السيد عبد الكريم

جزيرة الوشم

رواية

الطبعة الأولى – ديسمبر 2023

بطاقة الكتاب

عنوان المؤلف	جزيرة الوشم
المؤلف	السيد عبد الكريم
التصنيف	رواية
رقم الإيداع القانونى	- 2022
الترقيم الدولى	978-977-999--
رقم الإصدار الداخلى	1588الطبعة الأولى ديسمبر 2023
عدد الصفحات	278 صفحة
تصميم الغلاف	مؤسسة النيل والفرات

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للمؤلف، ولا يحق لأى دارنشر طبع ونشر وتوزيع الكتاب أو ترجمته أو الإقتباس منه أو نشره على النت الا بموافقة كتابية وموثقة من المؤلف

مؤسسة النيل والفرات للطبع والنشر والتوزيع
ثورة مصرية تشرق إبداعاً على الوطن العربي
رئيس مجلس الإدارة
ناجى عبد المنعم
مؤسسة النيل والفرات للطبع والنشر والتوزيع
أسسها الشاعر ناجى عبد المنعم عام 2017
رخصة مزاولة مهنة:58365 – سجل تجاري: – 13242 / 2017 – بطاقة ضريبية: 35—01—572
عضو عامل باتحاد الناشرين المصريين رقم 941 لسنة 2018
هاتف:01011256943 – 01116202218 – 01202541192 تليفاكس:020554372901
النيل والفرات nagyegy200064@gmail.com
alnilwaalfourat alnilwaalfourat@gmail.com
المقر الرئيسي:ق.م.ع محافظة الشرقية – العاشر من رمضان – مجاورة 13 – أمام سنتر الـ13 – عقار 304

إهـــــــداء

إلى هذينِ اللذينِ رحلا ولم يعدا إلا في أحلامي :
أبى وأمي .

مقدمة

القاهرة
الثامن من نوفمبر لعام ٢٠٠٥ ميلادية .

رن جرس المدرسة الإعدادية ليعلن انتهاء اليوم الدراسي ، وما هي إلا لحظات حتى أمتلأ الشارع بالطالبات ، كان هو بعيدا يراقب ما يحدث ، يبحث بين الوجوه عن ذلك الوجه الطفولي البريء ، وفجأة رآها فاهتز قلبه بين ضلوعه ، رآها تسير بين زميلاتها من الصف الثالث الإعدادي ، تتهادى من بعيد في مرح وبراءة ، سار خلفها وحين انفصلتْ عن زميلاتها قال مناديا :

- منال .

توقفتْ واستدارتْ نحوه وقالتْ :

- ماذا تريد ؟

كانت لا تعرفه ، وكم حذرتها والدتها بألا تتحدث مع الغرباء، لكنها وجدت نفسها تقف أمام شاب أسمر نحيل ربما تجاوز الأربعين من عمره يبدو عليه الاضطراب ، وكانت هي تتجاوز نصف قامته ، تحمل خلفها حقيبة المدرسة، تربط

شعرها بـ(فيونكتين) ليتدلى على جانبي رأسها ، وترتدى جيبة زرقاء تعلوها بلوزة بيضاء رُبطت بشريطٍ أزرق على صدرها ، ليحل محل رابطة العنق ، هنا كررتْ كلامها في خوف :

- من أنتَ ؟ وماذا تريد ؟

أجابها بسؤال :

- ألا تذكرينني ؟

هنا شعرتْ بالخوف أكثر ، ففرتْ من أمامه هاربه ، ولكن استدارتْ نحوه بينما هي تهرب ناحية الحارة فرأتْ دمعة حارة تسقط من عينه .

الفصل الأول "اغسطس ٢٠١٥"

(فوزى عبد الحميد)

ليس ذنبك أن تولد فقيرًا، لكن ذنبك أن تموت فقيرًا .

قلت في نفسي ناقمًا :

- يا سلام !

طبعًا هذه العبارة الرنانة قالها " بيل غيتس " وطبعا قالها بسلامته بعد أن تربع على رأس قائمة أثرياء العالم لسنوات طوال.

يبدو أن الأخ (غيتس) لا يعلم أن البحث عن وظيفة أشبه بالتفتيش في مقبرة عن جثة تتنفس ، أتفق معك أن الجرائد تعج بإعلانات الوظائف وصفحات المواقع والتواصل الاجتماعي تعلن كل ثانية عن وظيفة لكنها إعلانات كإعلانات عن الدواء كلها بلا فائدة .

أنا الآن عاطل عن العمل ولذلك قصة قصيرة غريبة ،طبعا قصيرة لأني سأمر عليها مرور الكرام ، لأنها تمثل لي ذكريات أليمة أكره أن أتذكرها بكامل تفاصيلها ، أعلم أن ذكرياتي لا تهمك في شيء لأن الذكريات كنوز ثمينة في خزائن أصحابها فقط ، ولا تمثل أدنى أهمية لدى الآخرين ، لكن لا ضرر أن تقرأ الصفحات التالية طالما اشتريت روايتي يا أخي .

آه نسيتُ أن أعرفكم بنفسي، طبعا لن أسوّدُ صفحات عن نفسي ، فلست من هؤلاء الذين يكتبون يومياتهم، فهم ولابد عباقرة ممن يحفل يومهم بحوادث وسفر ومؤتمرات ولجان، أنا شخص عادى جدا ممن تقابلهم في الشارع وتجدهم على أيّ مقهى ، وربما تحت كل حجر، حصلت على ليسانس آداب وتربية وعملتُ مدرسا للغة العربية لمدة عام، أعزب ولا مكان للحب في قلبي ، فهو أشبه بعود لم تشد عليه أوتار، لذلك هو غير قابل للعزف، كنت في مقتبل العمر، وكان باستطاعتي أن (أعدل المايلة) ،طبعًا كنت أحمقًا وقتها .

وقفت لأول مرة أشم رائحة المكاتب الحكومية والفصول المدرسية في مدرسة الأحلام الابتدائية، كانتْ على بعد ساعة من بيت خالتي نعيمة الذى أقطن فيه ، لكن كما قلتُ لك كان إكسير الشباب يجرى في دمى، لذلك لم أكن أكترث بثلاث مواصلات تقلّني يوميا إلى مدرستي ، بعد حصتي الأولى اكتشفتُ أن ثلاثة أرباع التلاميذ في فصلى لا يعرفون القراءة والكتابة ، هنا شعرت بجبلٍ يثقل كاهلي ، وتحرك الضمير الصعيدي بداخلي كثعبان يتلوى :

- علىّ أن أفعل شيئا .

وقسمتُ التلاميذ المتأخرين إلى قسمين: أولهم الذين لا يعرفون القراءة والكتابة نهائيا، والقسم الثاني الذين يقرأون بشكل بطيء متقطع كسيارة نفذ وقودها، طبعا قابلتني مشكلة إيجاد حصص إضافية لهؤلاء البؤساء، أنا الآن مكلف بتدريس تسع وعشرين حصة أسبوعيا، وإيجاد حصص إضافية هو

ضرب من الخيال ، ولا أستطيع تعطيل المنهج وشرح أساسيات القراءة والكتابة؛ فالمفتشون المتابعون لا يرحمون أحدا ناهيك عن تصيدهم للأخطاء.

ـ آه نحن في نوفمبر وما زلت تدرس منهج أكتوبر، يا لها من مهزلة يا أستاذ، تقريرك السرى لن يكون أكثر جمالا من وجهك أيها المتكاسل، تكاسلٌ عن العمل وعرقلة سير العملية التعليمية .

طبعا هي مصطلحات يحفظونها منذ العصر الحجري ويملؤون بها تقاريرهم وهى مصطلحات تصيبني بالغثيان .

لم يكن لي أصدقاء من السادة المدرسين لأنى كنتُ غريبا عن المنطقة ، كما أن شخصيتي الانطوائية لم تشجعني على سرعة تكوين صداقات ، فقررتُ أن أعرض المشكلة على الناظر الذى نظر إليّ متشككا وهو يفترش المكتب بطبق فول وقد أخرج من جيب بذلته ليمونة وقال :

ـ أنتَ مكلف بالمنهج فقط فلا ترهق نفسك، لكن إن أردتَ فعليك استعارة حصص الموسيقى من الأستاذة سوسن أو حصص المكتبة والاطلاع من الأستاذ شوقي ، الأمر متروك إليك .

طبعا رفضتُ تضييع هذه الحصص على التلاميذ لأنى مؤمن بأهمية الموسيقى والاطلاع ، فلربما خرج من هؤلاء التلاميذ طه حسين جديد أو كمال الطويل.

كنتُ غارقا حتى أذنيّ في تصحيح كراسات الإملاء في حجرة المدرسيين، وهى حجرة تفوح منها رائحة السجائر والشاي الثقيل والفول المعصور عليه ليمون، حين دخلتْ علىّ زميلةٌ لم أكنْ أعرفها من قبل ، قالتْ في لهفة:

ـ الأستاذ الجديد ، يمكنكَ استعارة جميع حصصي، آه نسيتُ أن أقدم نفسي أنا مس سوسن .

نظرتُ إليها فوجدتُ عينين لامعتين ثابتتين وشعر أسود داكن ووجه أسمر مستطيل محبب ، وقوام فارع، ترتدي الجينز، تقف واثقة بحذاء جلدي أبيض اللون.

توقف عقلي ثلاث ثواني من المفاجأة والارتباك وقلتُ متلعثما :

- لكن حصص الموسيقى....

قاطعتني مسرعة :

- إنّ ما ستقوم به من تعليم الأولاد القراءة والكتابة عمل إنساني رائع، هل تعلم أن الإدارة ستفخر بك ، وأتوقع أن يكرّمك وكيلُ الوزارة بنفسه ، وأنا أيضا فخورة بك يا أستاذ فوزى .

عبارتها الأخيرة لم تكن تخلو من دلال وأقسم على ذلك، طبعا هي مخبولة أو تعتقد أني مخبولا وأميل للرأي الثاني ، لكن ما أثار رعبي أنني لاحظت في جزء من الثانية أن لسانها وكأنه مشقوق ، ولحماقتي اعتبرتُ هذا شيئا عابرا واعتبرتُ نفسي واهما فيما رأيت ، ولم أعلم أن كل مصائبي ستكون بسبب إغفالي لهذه الملاحظة العابرة .

جمعتُ شتات شجاعتي وقلتُ بعد أن بلعتُ ريقي :

- حصص الموسيقى لا تقل أهميةً عن حصص اللغة العربية، والرياضيات و....

قاطعتني مرة أخرى :

- يا أستاذ فوزي، الأولاد لا يمتحنون في الموسيقى، وأردت أن أشارك معك في هذا العمل الخيرى ،ولا أظنك ممن يُؤثرن أنفسهم بالخير.

وافقتُ على مضض بعد أن أصرتْ إصرار الخرتيت وتوكلتُ على الله .

أخذتُ حصصها وكانتْ ثلاث حصص إضافية ، وقمت بتعليم التلاميذ ،وكلفتهم بواجبات منزلية، وكنت ألحظُ تعلقهم بي وحبهم للحصص ورغبة أكثرهم في التعلم ،وكنتُ فخورا بنفسي، حتى اكتشفتُ أن المدرسة ثلاث مجموعات : الأولى هؤلاء الحمقى الذين يتفانون في عملهم وكنتُ أمثلها وحدي، الثانية الذين لا يضربون على بطونهم، ويضرون وينفعون، وهم قليلون، والثالثة الذين يخبرون الناظر بدبة النملة، وهم مقسمون حسب نفاقهم لحضرة الناظر، وكنتُ بفضل الله أولا ثم بحماسي المفرط الأهوج ثانيا ارتقيت بمستوى التلاميذ المتعثرين في أربعة شهور ، وذاع صيتي بين أولياء الأمور، وتردد اسمى في المدارس الأخرى ،وشعرتُ بثمة خطة تُحاك ،وحرب على وشك الاندلاع من السادة المدرسين، وكنت أدخل

عليهم حجرة المدرسين فيمتنعون عن الكلام، وشعرت بأن أيامى صارتْ معدودة في المدرسة ،وحدث ذلك ظهيرة يوم اهتزتْ فيها المدرسة إثر وصول لجنة من الوزارة، وكنت في حصة موسيقى أقوم بمهنتي المحبوبة تعليم القراءة والكتابة، وقد علمتُ لاحقا أن اللجنة جردتْ أدوات حجرة الموسيقى، وسألتْ التلاميذ عما إذا كانتْ الأستاذة قامتْ بتدريس الموسيقى واستخدام الآلات ، وطبعا كانت الفاجعة عندما وجدتُ نفسي أمام مذكرة تتهم الأستاذة سوسن ببيع حصصها لي مقابل المال ، وطبعا دخلتُ في دوامة التحقيقات ، وتم إلغاء عقدي ، لأنني كنتُ على نظام التعاقد لا التوظيف ، ولا أعلم ما حدث للأستاذة سوسن، ولا أعلم لماذا لم أكن أتذكر حتى ملامحها كأنى لما أراها قط ، سوى اللسان المشقوق .

وابتسمتُ في مرارة حين تذكرتها وهى تقول :

- وأتوقع أن يكرّمك وكيلُ الوزارة بنفسه.

أنا ممن يؤمنون أن وكيل الوزارة لم يصبح وكيل وزارة إلا لتفانيه في العمل وتحمله مشقة الحصص الإضافية وإشرافه اليومي على الإذاعة الصباحية أيام شبابه ، هل أنا على حق ؟

ومازالتْ مرارة ذلك اليوم عالقة في حلقي ، وكان آخر عهدي بالمدرسة هو نظرات السادة المدرسين الزملاء وأنا خارج من المدرسة للمرة الأخيرة ، ولكن ما كان ينتظرني هو جد خطير.

في حجرة على السطوح أعددتُ لنفسي كوبا من الشاي الثقيل وبدأتُ أدخن وأنا أنظر من نافذة الغرفة إلى الحارة النائمة وأتخيل نفسى وكيل وزارة أجلس خلف مكتب رحب وعلى مقعد متحرك مريح أنظر إلى غرفة واسعة مزدحمة بالأثاث الذي يغمره هواء تكييف مركزي يهدر بلا صوت ويدخل علىّ الساعي طالبا توقيعي الكريم ويرن هاتف مكتبي ليخبرني شخص ما أن إدارة كذا بها مشكلة لن تحل إلا بوجودي ،وأنزل عبر الأسانسير لأجد السائق في انتظاري للذهاب إلى الإدارة لأحل المشكلة وألقى على مسامع مدير هذه الإدارة درسا في الإدارة، وهنا لسعتْ السيجارة أناملي وهبطت إلى واقعى وتذكرتُ التحقيقات والناظر وحصة الموسيقى والأستاذة سوسن والتلاميذ، اصبرْ يا فوزي ، كلها ستصبح ذكريات.

في عصر يوم تذكرتُ الأستاذ شوقي .

تذكرون الأستاذ شوقي، نعم هو بعينه مدرس المكتبة والاطلاع، كنتُ قد احتفظتُ برقم هاتفه من قبل ، حين أخبرني أن السادة الزملاء يتآمرون على بعد نجاحي في المدرسة ، لا أعلم لماذا تذكرته الآن وأخرجت هاتفي أبحث عن اسمه .

قلت :

- الو ... أستاذ شوقي .

قال في تبسط :

- فوزي ..افتقدناك يا رجل، كيف حالك؟ هل تزوجت ؟ ماذا حدث لك بعد فصلك من العمل ؟ أوه قل لي ألم تلتحق بعمل آخر ؟ حزنتُ عليكَ ولكن حذرتك ألا تتذكر ؟

كان يلقى الأسئلة ولا ينتظر الإجابة، وكنت فعلا أرتاح لهذا الرجل ولو طال مكثي بالمدرسة لاتخذته صديقا ، وأنا من الطراز الذي لا يتخذ شخصا صديقا إلا بدقة وحسن اختيار، لكن الأستاذ شوقي كان نقى السريرة رقيق الحاشية وتحفظي فقط كان بسبب شاربه الرفيع ، وأنا أفهم أصحاب الشوارب الرفيعة هم يسألون الأسئلة ولا ينتظرون إجابتها .

قلت في غيظ :

- أستاذ شوقي ، أنا بخير لكن اسمعني ، ماذا حدث لأستاذة سوسن ؟

قال مسرعا :

- اختفتْ .

قلتُ متعجبا :

- اختفتْ ! تعنى أنها فُصلتْ من العمل ؟

قال ضاحكا من جهلي :

- كلا، تغيبتْ من المدرسة ، وبعض الزميلات الفضليات سألن عنها في عنوان دارها فوجدنها قد تركتْ شقتها وتبخرت هي وذكراها كأنها لم تكن.

قلتُ وقد راق لي الحديث :

- ألم تلحظ شيئا غريبا فيها يا أستاذ شوقي ؟

قال وكأنه عالم ببواطن الأمور :

- نعم فأنا قوى الملاحظة يا أستاذ ، لاحظتُ أنها آنسة وتبحث عن عريس جياش العاطفة وأعتقد أنها كانتْ ترمى شباكها حولك .

يا لحماقتك يا شوقي!

قلتُ في غيظ :

- ألم تلحظ أن لسانها مشقوق ؟

وللحظات ندمتُ على إفشاء هذا الهاجس الذى يدور بداخلي لكنه

قال دون اكتراث :

- نعم شاهدتُ فيلما أجنبيا سخيفا عن بلدة تسكنها نساء ألسنتهن مشقوقة، ولكن قلْ لي يا لئيم كيف رأيتَ لسان الأستاذة سوسن ؟

قالها بنبرة لا تخلو من اتهام، لكنى فهمتُ أنه أحمق ولم يلحظ شيئا أو ربما أنا كنتُ واهما وآثرتُ أن أنهي المكالمة قبل أن تتحطم أعصابي .

عدتُ إلى رحلة البحث عن عمل ، وهى أشبه برحلة البحث عن جثة تتنفس بين القبور كما قلت، لن أصف لك حالي في هذه الشهور حتى لا تُصاب بملٍ أو عته بسببي ، لكن أقل ما يُقال عنها أنها مياه راكدة داكنة في انتظار إلقاء حجر يحركها، ماذا تنتظر من شابٍ متعطل عن العمل سوى السهر

والتسكع والتدخين وتصفح الأنترنت والجلوس على المقهى والتردد على المدارس الخاصة ومتابعة إعلانات التوظيف، هنا انذرني جيبي بالخطر ، فقد قلّتْ الجنيهات، وهنا خطر ببالي أن أعلن إفلاسي عبر منشور على فيس بوك ، أعتقد أن "ميل غيتس " سيفعل نفس الشيء إن أفلس ، وتذكرتُ أسرتي ، فقد انقطع ما كنتُ أرسله لهم كل شهر، وهو مالٌ قليل لكن كان يسد الحاجة ويمنع أسرة من الانزلاق .

وهنا السؤال الأصعب كيفَ أسدد إيجار حجرة السطوح هذه التي أقطنها ؟!

إن صاحبة البيت ترمقني بنظرات شك كلما صعدتُ أو هبطت سلم البيت، هي تسكن الدور الأرضي، وجه مستدير وأنف صارم فوقه عينان تقولان لي في نظرات صامتة :

- أيها الوغد سوف تُطرد إنْ لم تسدد الإيجار .

فكنتُ أنظر إليها نظرة تقول :

- خالتي نعيمة أمهليني شهرا آخر وحياة منال بنتك .

طبعا هنا تخرس المرأة، كنتُ طبعا أعلم سر صبرها على تأخري في دفع الإيجار وعدم مطالبتها بشكل صريح ، ولعلك بذكائك قد علمتَ القصة، أنا شاب أعزب وبنتها فتاة آنسة تجاوزتْ العشرين من عمرها، ظننتُ هذا جليا ، وتذكرتُ منال يوم أن طرقت الباب أول مرة وفى يدها طبق به أرز وقطعة لحمة وقالتْ في خجل :

- خالتك نعيمة تقول لك كل عام وأنتَ بخير يا أستاذ فوزى .

كنا في ليلة وقفة عيد الأضحى، تناولتُ منها الطبق بيد مرتعشة وقلتُ في ارتباك :

- عيد سعيد يا آنسة .

ولعلها كانت تنتظر منى موقف أكثر حرارة ، ولما لم تجد شيئا كهذا انصرفتْ وفى عينيها نظرة تقول :

- لا تكن نذلا وتعال واطلبْ يدي ولا تلعب ببنات الناس .

يا للسخافة ! أنا لا أصلح لشيء الآن ، فكما أخبرتك لي قلب لم تُشد أوتاره ، وهى تريد أن تعزف عليه .

وجاء يوم لا أنساه حين جاءني اتصالٌ من رقم مجهول .

كنتُ من قبل أمارس هوايتي المفضلة في تصفح فيس بوك وتركتُ في الكثير من الجروبات التعليمية هذا الإعلان :

(مدرس لغة عربية خبرة في تدريس المنهج وفى تأسيس تلاميذ المرحلة الابتدائية بسعر رمزي ، أقوم بتدريس اللغة العربية وآدابها بطرق تربوية .
ثم دونت رقم هاتفي .)

وبعد أسبوع دق جرس الهاتف :

- الو ... الأستاذ فوزى .

كان صوت أنثى .

- أهلا بحضرتك .
- قرأتُ إعلانك ، ولدى ابنتي ليلى ضعيفة المستوى في اللغة العربية ، أرجو أن تشرفنا في عنوان كذا .

سقط قلبي بين قدميّ ودبّتْ الحياة في شخصيتي الضعيفة وجسدي النحيف وقلتُ على الفور :

- تحت أمرك يا فندم .

قلتُ في نفسي أبهذه السهولة تحل الأمور؟ إذن الدنيا ليست بهذه القسوة ، وفكرت أن أذهب الآن ، لكن لم أستحسن الفكرة ، فلابد أن أعطيها انطباعا بانشغالي وجدولي المزدحم ولولا الإنسانية ما قبلتُ أن أدرّس لها في هذا المكان البعيد عن مسكني وكل هذا الهراء، وكان العنوان في مكان راقٍ بالقاهرة ، خمنتُ أن يغطى ثمن الدرس نفقاتي وربما أرسل لأهلي منه ، يا لها من أحلام !

وعصر اليوم التالي توجهتُ إلى العنوان ولم أنسَ ارتداء رابطة عنق وتلميع الحذاء ولا ضرر من بعض البرفان الذى أهدتني إيّاه منال المسكينة ذات يوم، وجدتني أمام فيلا قادني بوابها للداخل في بهو متسع وملنا ناحية اليمين إلى غرفة واسعة بها نافذة تطل على حديقة تتوسطها نافورة، وجلستُ

حالما بأجر هذا الدرس وما ينتظرني من أيام سعيدة، كنتُ وقتها مغفلا .

سمعتُ وقع أقدام على سلم فارتجف قلبي واعتدلتُ في جلستي ووجدتُ أمامي سيدة في الأربعين شقراء ذات شعر مصفر متموج ، قالتْ :

- مرحبا أستاذ فوزى .

طبعا قبل دخولي سألني البواب الأسئلة التقليدية : من أنتَ وماذا تريد وهل الهانم تعلم بقدومك؟ لكنه تهلل عندما أخبرته بأنى الأستاذ فوزى أستاذ ليلى ، وأجلسني في الغرفة ليخبر الهانم بأنى حضرت .

قالتْ الهانم بعد أن أمرتْ خادما بإحضار ليمون :

- أنا مدام نورا مديرة بنك ، وقتي ليس ملكي وابنتي ليلى ضعيفة المستوى وجربتُ مدرسين كثيرين متمرسين، لكنهم تمرسوا على الاستغلال أكثر من التدريس ،وليلى في مدرسة لغات، عشنا في بريطانيا حتى انفصالي عن زوجي وآثرتُ أن تنشأ ليلى في مصر، لذلك تجد اللغة العربية نوعا من المعجزة، وأمنيتي أن تتحدث ليلى العربية، وتحبها كما تحب الإنجليزية وأرجو أن تكون المدرس الذى يحقق لي أمنيتي.

قلتُ في اهتمام :

- بالطبع ويسرني هذا .
- إذن ما الموعد الذى يناسبك ؟

كدتُ أن أقول : أي وقت تريدينه، ولكن تمهلتُ وتذكرتُ الانطباع الذي يعطونه المدرسون لأولياء الأمور .

- أنا مشغول ، جدولي مزدحم ...الخ .

لكنني خفتُ من ضياع الفرصة فقلت :

- أعتقد أن نبدأ اليوم والآن تكون أول حصة .

قالتْ بعد لحظات صمت وتفكير :

- آسفة فبعد قليل موعد حصة الرياضيات .

قلت :

- لا بأس ، ومتى تنتهى حصة الرياضيات ؟

- الخامسة .

قلت :

- إذن نبدأ السادسة في كل مرة بعد حصة الرياضيات .

قالت :

- أشكرك وهذا لطف منك .

ولم تنسَ أن تنادى على ليلى بنت العشر سنوات ، وكانتْ البنت كفراشة في خفتها وحركتها ، يلمع في عينيها ذكاء حاد ، باختصار خواجية صغيرة .

- سلّمى على المستر يا ليلى .

قالتْ ليلى بعربية محطمة :

- هالو سير .

وفتر الكلام بعدها ، وعلمتُ أنه جاء وقت الانصراف وكانت الساعة الرابعة إلا عشر دقائق ، أي أنه موعد حصة

الرياضيات وكنت قد فرغت من شرب الليمون واستأذنتُ في كياسة وخرجت.

بينما أنا خارج من باب الفيلا رأيتُ شابة تدخل الفيلا فهي ولا شك مدرسة الرياضيات، عينان لامعتان ثابتتان، بشعر أسود داكن ووجه أسمر مستطيل محبب وقوام فارع ترتدى الجينز تمشى بخطوات واثقة بحذاء جلدي أبيض اللون .
مهلا
هذه الملامح مألوفة لي .
إنها الأستاذة سوسن .

الفصل الثاني

عدتُ إلى البيت مصدوما مما رأيت، وقررتُ أن أتبين الأمر وعمدتُ لوضع خطة تكشف لي حقيقة سوسن، وسر ظهورها في حياتي بهذا الشكل المريب، كنتُ في منتصف الليل والمرء ليس بحاجة لأن يكون خبيرا في الفيزياء ليعلم أنه منتصف الليل ، لأنى سمعت قطة تموء على سطوح الجيران، ولا أعلم هل هي قطة حقا أم مخلوقا من الأطياف .

يا لهواجسي المجنونة الكئيبة !

كعادتي أعددتُ كوبا من الشاي الثقيل وجلستُ بالقرب من نافذة الحجرة أدخن وأطل للحارة الناعسة، أمسكتُ هاتفي وبدأت الرحلة، فتحت محرك البحث الأخ العزيز جوجل وكتبت (أصحاب اللسان المشقوق) لتظهر لي نتائج البحث :

أعراض تشقق اللسان .

الثعبان مشوق اللسان .

فيلم أجنبي عن نسوة بألسنة مشقوقة .

إذن شوقي كان على حق، لم أتخيل أن أصحاب الشوارب الرفيعة يتابعون الأفلام الأجنبية المرعبة، وعلى أيّ حال لم أجد شيئا مفيدا، فقررتُ اللجوء للخطة البديلة .

مر أسبوعان على هذا الموقف حينما قررتُ الاعتذار عن حصة ليلى وانتظار سوسن بعد خروجها من حصة الرياضيات، أنا واثق أنها هي، نفس القوام والسمار والمشية الواثقة.

جلستُ على مقهى قريب ، وضعتُ على عيني نظارة سوداء ، وإن بدا لي الأمر سخيفا ، وبدأتُ أتابع الجالسين حولي ، كنتُ على مقعد بالقرب من الشارع وكانتْ جلستي تتيح لي رؤية باب الفيلا ، ورأيتها خارجة بنفس القوام والخطوات الواثقة ، هنا ناديتُ على النادل فلم يكترث فوضعت بعض الجنيهات بجوار كوب الشاي وهرعت إلى الشارع ، أنا الآن أمشي خلفها وطبعا سرتْ في جسدي رعشة خفيفة ، وكان الشارع غير مزدحم والغروب يزحف على الأشجار المتراصة على جانبي الشارع، قلت مناديا :

- أستاذة سوسن .

للحظات بدا لي أن ما أفعله سخيفا، لكنها توقفتْ واستدارتْ، ابتلعتُ ريقي بصعوبة ثم قلت :

- أستاذة سوسن، كيف حالك؟

قالتْ في اندهاش مصطنع :

- أستاذ فوزى ، في الحقيقة أريد الاعتذار لك عما حدث في المدرسة، وسألتُ الزملاء عن عنوانك أو رقم هاتف لأقدم اعتذاري .

قلت :

- وكيف حال المدرسة والزملاء ؟

طبعا سألتها هذا السؤال لأتبين كذبها ، قالتْ :

- بخير .. آه بخير.

إذن هي كاذبة فالأستاذ شوقي أخبرني أنها اختفت، اعتقد الآن أن شكوكي في محلها.

قالت :

- هل وجدتَ عملا ؟

قلت :

- أعتقد أن ثمة كافتيريا قريبة، ولديك متسع من الوقت، هل تمانعين في تناول آيس كريم ؟

هنا لمحتُ الشك في عينيها وبدا عرضي هذا غريبا

قلت مستدركا :

- هذه الكافتيريا تقدم آيس كريم ممتاز، جربته من قبل وأؤكد أنها سيروق لك

قالت مبتسمة :

- لا بأس .

أعلم إنني سأدفع مبلغا فادحا لكنني كنت أريد أن أتبين الأمر، تعمدت أن أطلب آيس كريم من الطراز الذي لابد أن يظهر لسانك وأنت تتناوله، لعلك الآن علمتَ تفاصيل الخطة، تحدثنا في أمور مختلفة ونصحتني بمتابعة إعلانات صفحات التواصل الاجتماعي، والتركيز على المدارس (الانترناشونال) وأن الأمور ستكون طيبة و .... و ..... الخ من هذا السخف، وهنا ظهر لسانها جليا.

يا الله !

لسانٌ طويل رطب لزج مشقوق من الأمام إلى لسانين كأنه لسان أفعى وأقسم على ذلك، أصابتني الربكة وسألتها أكثر سؤال حيرتني في أيامى السابقة :

- هل تقومين بتدريس الرياضيات ؟

ولمّا لمحتُ العجب في عينيها أردفتُ :

- آه نسيتُ أن أقول أنا أدرس اللغة العربية لليلى .

قالت في لا مبالاة :

- أنتَ تعلم يا أستاذ فوزي نحن مدرسون كشكول.

طبعا لو كنتَ معلما لعلمتَ أن مصطلح (مدرس كشكول) هو الذى يقوم بتدريس جميع المواد، تصور مثلا مدرس موسيقى يقوم بتدريس الرياضيات، والدراسات الاجتماعية ، صدقتْ إذن مدام نورا حين قالت أن بعضهم تمرس على الاستغلال .

قلت غير مهتم :

- آه مفهوم .. مفهوم .

نظرتْ لهاتفها وقالتْ بعصبية :

- أشكركَ على الآيس كريم، عندك حق هو ممتاز، لكنى أعتقد أنك تكذب وهذه أول مرة لك ترتاد فيها هذه الكافتيريا.

هممتُ أن أقول شيئا لكنها قالتْ مقاطعة لتريحني من عناء الإجابة :

- لا عليك .. الكذب مطلوب أحيانا .

ثم وقفتْ تتأهب للانصراف وقالت :

- كلنا نكذب يا صديقي .
ثم سألتني آخر سؤال كنت أتوقعه في حياتي، قالت :
- كيف حال منال ؟
وانصرفت .

" لا أخاف من الشخص الذى يركلني ألف ركلة في مرة واحدة، لكنني أخاف من ذلك إلى يركلني ركلة واحدة ألف مرة "

قالها المصارع الملقب بالتنين الصغير (بروس لي) ، وسوسن لا تكتفي بألف ركلة في مرة واحدة ثم ترحل من حياتي ، إنها تلعب معي هذه اللعبة القاسية ، تريد أن تركل ركلة واحدة ثم تكررها ألف مرة، وكما ترى فإن الأمور تزداد تعقيدا، لم يكن مصادفة طبعا حينما قالتْ اسم منال، لأن منال مجرد هواجس في نفسى لا أكثر ، خالتي نعيمة لم تصرح بشيء، منال كذلك لم تصرح بشيء، وقصة رغبتهما في تزويجي مجرد أوهام في نفسى، فأنا شخص موسوس من الطراز الذى لا يلقي بجسده على السرير إلا اذا شكّ ألف مرة أنه نسى صنبور الحمام مفتوحا، وأحيانا أستيقظ من النوم لأتأكد أني أطفأتُ مصباح الحمام رغم أني أطفأته قبل نومى، أنتَ تعرف هذا الطراز من الناس الموسوسين، وربما صادفتَ واحدا منهم في حياتك ، وإن لم تصادف فأنتَ الآن أمام موسوس من الطراز الثقيل .

بعد ثلاثة أيام، وفى منتصف الليل مارستُ عادتي المفضلة، أنتَ تعرفها الآن ، نعم بالفعل السيجارة مع الشاي الثقيل ولعمرى لهى عادة سيئة لا أنصحك بها ، نظرتُ إلى الحارة الناعسة من نافذة الحجرة وبدأتُ أراجع أفكاري :

أولا : تم فصلى من الوظيفة بسبب سوسن.

ثانيا : لم أرى لسانا مشقوقا إلا واحدا صاحبته تُدعى سوسن.

ثالثا : لا أعتقد أنه يوجد في مصر كلها معلمة تربية موسيقية تُدرّس الرياضيات إلا سوسن .

رابعا : أفهم أن تُفصل معلمة من المدرسة لكن لا أعرف معلمة تختفي إلا سوسن، هكذا أكد لي الأستاذ شوقي، وأنتَ تعرف أصحاب الشوارب الرفيعة عندما يؤكدون شيئا .

خامسا : هل هناك خامسا، في الحقيقة لا أتذكر، ولا أعرف ؟

لكن هل كل هذا مجرد مصادفات ؟ أم أن الأمر طبيعي وهواجسي السوداء ـ سامحها الله ـ هي من صورتْ لي كل هذا، كم أحسد هؤلاء الذين لا يلقون بالا بما يدور حولهم من أحداث ويفسرون كل شيء على أنه طبيعي وأن هذا يحدث مع الجميع ، هل تتصور انى تمنيت أن أمتلك عقل خالتي نعيمة ، على الأقل لو حدث معها هذا لقالت :

ـ لسانها مشقوق، وماله يا خويا بتحصل في أحسن العائلات .

ابتسمتُ في نفسي وأنا غارق في خيالاتي وهواجسي حتى رنّ جرس هاتفي فقفزتُ مترين في الهواء، ولما استعدتُ قلبي من بين قدميّ شعرتُ بأن روعي قد هدأ، ونظرت لشاشة هاتفي

فوجدتُ رقما غريبا غير مسجل باسم، وأنا من الطراز الذى أكره الرد على هذه الأرقام غير المعروفة ، وطبعا رقم غريب بعد منتصف الليل إذن المكالمة تتضمن مصيبة ، سمعت صوتا يقول :

- الو ... أستاذ فوزى هناك أسئلة كثيرة في هذا العالم لا إجابة لها ، فلماذا ترهق نفسك ، لماذا تهاجر بعض الأسماك شمالا رغم الشتاء ؟ سؤال بلا إجابة ، أليس كذلك ؟

قلت :

- أعتقد أن علماء البحار يعرفون الإجابة .

ضحكتْ ضحكة طويلة رنانة وقالتْ :

- لم أعرف أن سيجارة مع كوب شاي ثقيل يجعلان المزاج رائقا لهذا الحد .

هنا أربكتني العبارة ونظرتُ حولي في ذهول وان كنتُ بدأت أخمن من المتحدث ، لكنني قلت :

- من المتحدث ؟

قالت في كياسة :

- سوسن ... هل نسيتَ الآيس كريم يا أستاذ ؟

كادت الموجودات تتلاشى من حولي واهتز الهاتف في يدى وقلت :

- ماذا تريدين منى ؟ وبالأحرى من أنتِ ؟ والأهم هل أنتِ من البشر ؟

ضحكتْ في دلال واضح وقالتْ :

- هل تظنني عفريتا ؟ لا أعتقد أن العفاريت يستخدمون الهواتف إلا في أفلام الكاتبة (ج . ك . رولينج)على حد علمي، لكن العفاريت خارج الأفلام قادرون على إيصال رسائلهم دون هواتف .

قلت :

- كيف عرفتِ رقم هاتفي ؟ ومن هي منال ؟

قالت في بساطة :

- رقمك عرفته كما عرفه الأستاذ شوقي، أما منال فهي زميلتنا معلمة اللغة الإنجليزية بالمدرسة ... آه نسيت انك انطوائي ولم تكن واحدا من شلة المدرسة .

قلت في تحدى :

- أنت كاذبة .

قالت :

- أخبرتك من قبل أن الكذب مطلوب أحيانا، أعرف شخصا لم يكذب طوال حياته لم يجد من يشيعه للقبر عند مماته، المجتمع يقول مرحبا بالكذابين، ثم أردفت وقد غيّرت لهجتها ونبرة صوتها إلى الجدية والصرامة :

- اسمعْ يا أستاذ ، لا تحاول أن تفتش عنى ثانية وإلا اتهمك الناس بالعته المغولي، وتحققت أسوأ كوابيسك .

قلت مرعوبا :

- ولكن...

قاطعتني :

- لا تقلق سنتلقى ثانية لكن وقتها سنتلقى بدون أقنعة .

" إن لم أجد شيئا يقلقني فهذا يقلقني "

جملة قالها الكاتب العبقري (آرثر شوبنهاور) ، أتمنى أن يعلم الأخ آرثر بحالي الآن اعتقد إنه حتما سيغير مقولته، وعلي أي حال مرت ثلاثة أيام على هذه المكالمة، وكنت قد قررتُ أن أنسى الموضوع وأستعير عقل خالتي نعيمة، فما أجمل أن تأخذ كل نوايا الناس على محمل النية الحسنة ! أسمعك تقول أن من يعتقد أن نوايا كل الناس حسنة يأخذ على قفاه أخيرا، لكنى أردتُ فعلا أن ارتاح من عناء التفكير، طبعا بدا واضحا أن الأمور ليست مصادفة وأن سوسن تخفي ورائها سرا عظيما ، لكن عقلي يحتاج إلى هدنة .

عصر يوم الثلاثاء كنت أتصفح فيس بوك فوجدت منشورا مكتوبا باللغتين العربية والإنجليزية وكان فيه :

أبحث في بلاد الشرق الأوسط عن مغامر، شخص يدمن المغامرات، يحب أن يتمرد على واقعه، من الذين لا يقدسون كل قديم ويريدون تجربة كل جديد، شخص يحلم بالسفر إلى الشمس والغوص تحت الماء، عزيزي إذا مللتَ من واقعك، وأردتَ أن تعيش المغامرة اترك لي تعليقا فيه اسمك وعمرك وبلدك وسوف ارسل إليك عرضا مشوقا لن تندم عليه .)

وجدتُ هذا الهراء في جروب يسمى (مجانين السفر)

ضغطتُ على اسم صاحب الأكاونت ، كان (هنري الفونسو) أمريكي ، في العقد الثاني من العمر ، يعيش في ولاية تكساس، وعندما تجولتُ في ملفه الشخصي وألبوم صوره ، وجدته قسّم ألبوم صوره حسب رحلاته ، صورا في جنوب أفريقيا وجبال كليمنجارو والهمالايا وفرنسا وأستراليا وصحراء المغرب وفى معابد الأقصر وقرى رومانيا وحارات المكسيك وشوارع لندن و ....و....

قلت في نفسى :

- هراء وسخف .

لكنني كتبتُ له تعليقا بدون إرادة :

- فوزى عبدالحميد، سبعة وثلاثون عاما، القاهرة .

وبدأتُ اقرأ تعليقات المتابعين لمنشوره وكانتْ معظمها تسأل عن رحلته القادمة، إذن مخبول آخر ثرى مدلل لا يجد شيئا يفعله، عدتُ أفحص التعليقات لأقوم بحذف تعليقي لكنني لم أجده بسبب كثرة التعليقات، وهنا سمعتُ طرقات على باب حجرتي، سقط قلبي بين ضلوعي ولوهلة توهمت أنها سوسن، وصورتْ لي خواطري أنها عادتْ لنتحدث بدون أقنعة وأخذتُ أفكر ترى كيف يبدو وجهها دون قناع، عادت الطرقات على الباب بإصرار، هرعتُ إلى المطبخ وحملتُ سكينا وفتحت، كانت منال تحمل بين يديها طبقا مغطى لكنها بسملتْ حين لمحتْ السكين في يدى وقالت :

- لماذا تحمل السكين في يدك ؟ أفزعتني يا أستاذ فوزى .

كنت قد نسيتُ أن السكين في يدى عندما رأيتها ، وقلت من فوري وأنا أخفيه خلف ظهري :

- كنت أقطع البصل في المطبخ و .. و أنتِ تعلمين هذه الأمور .

قالتْ في رقة :

- لا داع للبصل، هذه نصف فرخة، ومدتْ يدها بالطبق وأردفت :

- أنتَ مدعو لحفلة عيد ميلادي اليوم الساعة السابعة ، وخالتك نعيمة تصر على حضورك .

ثم أكملتْ بعد أن رأتْ نظرة خبث في عيني :

- أنتَ وسكان البيت .

ثم انصرفت .

مسكينة منال تريد أن تعزف على عود بلا أوتار، أنا فقير عاطل بلا مستقبل ولا أريد أن تشاركني هذه البائسة فقرى وهواجسي ، كانت رقيقة في كل شيء ، وجه مستدير رقيق أبيض كبياض الثلج وقوام كالفراشة يميل إلى الرشاقة وشعر اسود داكن كعتمة الليل ، عينان كبيرتان مليئتان بالبراءة والحيوية ، غمازتان فاتنتان تصبحان أكثر جاذبية عندما تبتسم أو تضحك، ولو كنت جشعا أو نذلا لاصطنعت الحب وطلبت يديها من خالتي نعيمة وظفرت بالبيت والبنت، يا لها من صفقة ، لكن متى كان الحب وتكوين الأسرة صفقات ، وقتها كيف أهرب من الثعبان الذى يتلوى بداخلي، أعنى ضميري .

كان ضميري هذا نائما في سُبات عميق وأنا أتناول نصف الفرخة مع الأرز في جشع، لولاها لكان غدائي اليوم شطائر فول من مطعم الصديقان، نعم أنت قرأتها صحيحة مطعم الصديقان، وليس الصديقين، مكتوبة في لافتة كبيرة بحجم مكتب وكيل الوزارة، وهو مطعم مشهور في الحارة، أخبرتُ ذات يوم صاحبَ المطعم أن يغيّر لافتة المحل إلى مطعم الصديقين لأنها مضاف إليه مجرور بالياء يا معلم، قال في عصبية :

- هي حصة نحو ولا إيه؟ ، انجز عايز كام سندوتش يا أستاذ؟

وبينما أتناول الوجبة الشهية مع طبق سلطة كنتُ قد احتفظتُ به من الأمس انتبهت لحفلة عيد الميلاد ، الساعة الآن السادسة ، هل الوقت متسع لشراء هدية ؟ وهل لابدَ من شراء هدية أصلا ، طبعا ستنهال عليها الهدايا من سكان البيت المدعوين ولابد أن أقدم هدية مثلهم ، وتخيلتُ خالتي نعيمة تقول لابنتها بعد انقضاء الحفل :

- الوغد لم يكلف نفسه بإحضار حتى بصلة يهديها لكِ في عيد ميلادك .

لا بأس سوف أرتدي ملابسي وأنزل من فوري وأقصد محلاً فخماً وأشتري لها هديةً تليق بها ، وأعتقد أن هديتي ستكون أجمل هدية حصلتْ عليها طوال حياتها .

كانت الساعة تقتربُ من السابعة والربع وأنا في الشارع حائر في اختيار هدية، الهدايا الجميلة باهظة الثمن ، سعر الواحدة منها قادر على خراب بيتي ، والهدايا رخيصة الثمن لا تليق بها ، هرعتُ إلى الحارة ودققتُ جرس الباب، صالة متسعة تتوسطها منضدة عليها أكواب عصائر وشموع ومطفأة سجائر، صافحتني منال بيد شفافة رقيقة ولم أجدْ مقعدا فارغاً إلا بجوار الأسطى عمر، ساكن الطابق الرابع ومتزوج، كان الجو حميمياً كأنهم أسرة واحدة وكنتُ أول مرة أدخل شقة خالتي نعيمة، الجميع يهنئ منال ، نساء ،وأطفال، ورجال ، وخالتي نعيمة تجلس هناك على حافة أريكة بجوارها زوجة الأسطى عمر ، لم تكنْ لي أي صداقات مع أحد من سكان البيت ، وأما الأسطى عمر فأعرفه ، لأنه يعمل سائق (تاكسي) وأحيانا أطلب منه توصيلي لمشاوير شتى .

كنت منزوياً أراقبُ ما يحدث من حركة وصخب وموسيقى هادئة وإضاءة شبه خافته وبعض حبال الورد المصنوع من البلاستيك معلقة على الحوائط ، لكزني الأسطى عمر ضاحكا :

- وكيف حالك يا أستاذ فوزي ؟

وقبل أن أجيبه قالتْ زوجته :

- عدد المدعوين قد اكتمل بحضور الأستاذ فوزي ، إذن نطفئ الشموع .

وهنا أطفأتْ إحدى السيدات مصباح الصالة لتصير الصالة ظلاما إلا من ضوء خمسة شموع على المنضدة، وانطلقتْ أصوات السيدات، والأطفال يعلوهم صوت الأسطى عمر يغنون أغاني عيد الميلاد، حتى إذا ما وصلوا إلى آخر مقطع من الأغنية هبّ واقفاً الأسطى عمر وكاد أن يسقطني من على الأريكة ليتقدم خطوة للأمام، و ينافس زوجته والأطفال في نفخ نيران الشموع، ثم عاد للوراء فوقف على أصابع قدمي فكتمتُ صرخةً ووضعتُ يدي على فمي وهنا عادت أضواء المصابيح ، نظر إلىّ الأسطى عمر فوجدَ يدي على فمي محاولاً كتمان صراخي فقال :

- طبعا حاولتَ عبثا أن تطفئ نيران الشمع قبلي لكن هيهات يا أستاذ .

يا لحماقة هذا الرجل !

جاء وقت تقديم الهدايا فأخرجتُ هاتفي ووضعته على أذنيّ ومثلتُ أنى أرد على مكالمةٍ هامة ، ورفعتُ صوتي قليلاً أكلم شخصاً وهمياً لأقنعهم بانشغالي حتى انتهى الجميع من تقديم الهدايا فوضعتُ هاتفي في جيبي .

هنا نادى الأسطى عمر على طفلٍ في السادسة من عمره وفى عينيه شقاوة وقال :

- سلّمْ يا رامي على عمك فوزي .

أخرجَ الولد لي لسانه ، فضحك الأسطى عمر، واهتزّ كرشه وقال :

- رامي ولد شقى يبصق على الضيوف ويبلل السجادة .

ثم عاد للضحك فاهتزتْ الأريكة ، وبدأ يزحف الفتور على الحضور لاسيما عندما استأذن بعض الحضور ، وساد صمتٌ قطعه صوت خالتي نعيمة :

- شرفتنا يا أستاذ فوزي ، رغم تأخرك عن الساعة السابعة لكن منال أقسمتْ ألا نطفئ الشموع إلا في حضورك .

قال الأسطى عمر :

- هكذا العزاب يتأخرون ، تزوجْ يا أستاذ وأنتَ تتعلم الانضباط .

قالها ونظرَ إلى منال التي أطرقتْ واحمرّ وجهها خجلاً .

قلت في ارتباك :

- طبعا الزواج مهم ... شيء مهم أكيد .

ثم استأذنتُ لأنصرف ، وجاءت منال خلفي وعلى الباب قالت :

- شكرا لحضورك يا أستاذ فوزي .

قالتها برقة ودلال واضحين .

أخرجتُ من جيبي لفافة ورق، هل تظنني أنى نسيتُ الهدية ؟ كلا ، لكنى كنت محرجاً أن أقدم (مبيد حشري) أمام هذا السيرك .

قلت :

- هدية بسيطة وعيد ميلاد سعيد يا آنسة .

وانصرفت .

صعدت غرفتي وأنا ألعن الأسطى عمر في سري، وخلعتُ ملابسي وارتديتُ منامتي وجلستُ أدخن وأفكر في حياتي الغريبة، متى أحقق ذاتي ومتى أجلب مالا، هل حياتي سعيدة ؟

أمسكتُ الهاتف ورحتُ أتصفح فيس بوك فوجدتُ رسالة طويلة عريضة عبر برنامج ماسنجر جاء فيها :

(عزيزي فوزي ، يسرني أن تحب المغامرات ، كنت أتمنى أن تحكى لي عن مغامراتك ، عددها وأماكنها وذكرياتها ، لكن لا بأس ، لنؤجل كل ذلك ، وأعرض عليكَ أن تسافر معي أنا وصديقي اليهودي إلى جزيرة الوشم بالمحيط الهادي ، سنقوم بمغامرة ونكتشف حقيقة وجود الجزيرة من عدمه وحقيقة ما فيها، فمعظم الدراسات تنفى وجود جزيرة بهذا الاسم ، إلا أن خرائط سرية حصلتُ عليها تؤكد أنها موجودة ، ولكنها متحركة ، أي تغير مكانها كل عام ولا تظهر إلا شهرا كل عام، وبناء على دراسات وأبحاث أجريتها على الجزيرة وأماكن ظهورها ، علمت تخميناً أقرب إلى اليقين متى وأين ستظهر هذا العام ، إن هذا الاكتشاف وهذه المغامرة ستخلّد أسماءنا ، سفرك ونفقاتك وإقامتك كلها ستكون على حسابي ؛ فلا قيمة للمال أمام العلم والمغامرة والاكتشاف، ناهيك عن تهافت الصحف والقنوات وكل وسائل الأعلام العالمية علينا حال

اكتشاف جزيرة الوشم هذه التي تتحرك وما بها كنوز، في حالة موافقتك أرسل لي صورة من جواز سفرك لأستخرج لك تأشيرة سفر تبادل الثقافات، وفى الخامس من نوفمبر سيكون ميعاد سفرك ، تقضي معنا أياما في دراسة الخرائط والمخطوطات الصينية والأمريكية ثم نرحل إلى الجزيرة .)

مفهوم طبعا أن الرسالة كانت من (هنري ألفونسو) .
أشعلتُ سيجارة وقرأتُ الرسالة ثلاث مرات ثم دقّ جرس هاتفي ، إنه شقيقي (علاء عبدالحميد)
قلت :
- الو .. علاء كيف حالك وكيف حال...
هنا سمعته يقول في صوت مخنوق :
- فوزى ... البقاء لله .. والدك الحاج عبدالحميد مات .

الفصل الثالث

(علاء عبد الحميد)

لستَ بحاجة أن تكون موظفا بيروقراطيا في سجل مدنى لتعلم اني شقيق فوزي عبد الحميد، وفوزي أخي يكبرني بأعوام قليلة، وهو من الطراز الذي يرى القرية ما هي إلا مقبرة للمواهب ومضيعة للفرص ويمكنك أن تتوقع كيف ستبدو القرية بعد ألف سنة ، ويؤمن بأن هواية كل قروى هي أن يسد أنفه في حياة الأقارب والجيران ، لكل هذه الأسباب وأكثر هجر أخي القرية وقصد المدينة الساحرة الساهرة الشقية اللعوب القاهرة حيثُ الأضواء والفرص والعمارات الشاهقة والشوارع الواسعة النظيفة تزينها واجهات محلات تجارية مليئة بمختلف المعروضات ، أما أنا فقد رضيت بالقرية مقاماً لأني من الطراز الذى سحرتهم بشمسها الوهاجة وظلالها الوارفة ، بهوائها اللافح ونسيمها الوديع ، بغدرانها الهادئة وسواقيها النواحة بجوار مواشيها ، وأغاني القرويين التي تتحدث غالباً عن هجران الحبيب وقسوته ، كنتُ أحب كلّ هذا ، وحصلت على تعليم متوسط، وكنت أرعى عشرة قراريط يملكها أبى وأشرفُ على تربية جاموسة وبعض الدواجن تساعدني أختي سعاد التي تصغرني بخمسة أعوام ، أبى في الستين من عمره أسمر فارع الطول ،على وجهه خطوط وأخاديد كأنها شهادات تقدير من

الزمن ، وكان معروفاً في القرية باسم (الشيخ عبدالحميد) ، نعيش سويا في بيت رحب مقسم إلى باحة فسيحة مريحة ومدخل وطرقة وبعض الغرف ، إلا أن غرفة واحدة كانت لها قدسية خاصة عند أبى وهى الحجرة القبلية، هي خاصة بأبي والزوار من أهل القرية الذين يقصدونه في فك السحر وطرد العفاريت وكتابة الحجب وقضاء حوائج الناس ، لم يكن أبي نصابا إنْ ظننتَ ذلك ، لكنه كان يستعينُ على كل عمل بالقرآن الكريم والرقية الشرعية ، ويكفى انه لم يتقاضى مليما واحدا نظير ما يقدمه ، ولو كان نصاباً لصرنا من أثرياء القرية ، كان يصلي العصر في المسجد القريب ويعود للبيت قاصدا الحجرة القبلية ، وتتوالى الأعداد ويزدحم البيت ليصير سيركا وتستمر هذه الجلبة إلى صلاة المغرب ، وبعد صلاة العشاء يبدأ السيرك من جديد إلى منتصف الليل ، وهنا يسود بيتنا صمتا كصمت القبور ، عندها كنتُ أسمع دعاء أبي وهو يصلي صلاة قيام الليل ، وكان عم شفيق يتولى تنظيم دخول الناس إلى غرفة أبى وكان يفعل ذلك في سعادة غامرة ، عم شفيق هو أقرب الناس إلى أبي وحافظ أسراره ولا يُذكر في القرية اسم الشيخ عبد الحميد إلا وذُكرَ بعده اسم عم شفيق .

طلب منى فوزي ونحن صغار ـ كان هو في الخامسة عشرة ـ أن نتجسس عما يدور في غرفة أبى القبلية ، وكان ما رأيناه شنيعاً مرعباً جعلني لا أتذوق طعم النوم لشهر كامل إلا من نوم متقطع لا يخلو من كوابيس .

- علاء ... سرْ خلفي وإيّاك أن تتنفس .

قالها فوزي ونحن نعبر مدخل البيت إلى منور ضيق مظلم قليلا وقد قطعنا خيوط العنكبوت أثناء سيرنا ، حتى وصلنا إلى الحجرة القبلية التي تطل في المنور ، وهي نافذة صغيرة هدفها التهوية لا أكثر ، مدّ فوزي يده وأزال طبقات الأتربة العالقة في خلفية خشب النافذة المتهالك .

في عصر ذلك اليوم وقبل هذا الموقف بساعات دخل عم شفيق بيتنا يجر خلفه فتاة في نفس عمرى تقريبا ، شاحبة سمراء تحت عينيها هالات سوداء تقترب من أنف مستقيم تحته شفتان متشققتان وكانت هافتة باهتة أقرب إلى جثة تتحرك من فرط الهزال ، علمتُ حين كبرتُ أن تلك علامات مرض أو مس ، المهم طرق عم شفيق باب الغرفة المقدسة في أدب .

- ادخل يا شفيق .

سمعتُ أبى قالها دون أن يعلم من بالباب ، لكن تلك أمور أعتدناها، مدّ عم شفيق يده وفتحَ باب حجرة الأسرار برفق بعد أن سمحَ له أبى بالدخول، وتلك هي اللحظة التي جلبني فيها فوزي وتسللنا لنتجسس، نحن الآن أشبه بشبحين صغيرين في المنور خلف النافذة ، سمعتُ صوت عم شفيق :

- البت مسكينة وغلبانة يا شيخ عبدالحميد .

قال أبي بصوت رخيم وهو يحدثُ الفتاة :

- ما اسمك يا عروسة ؟

قالت الفتاة بصوتٍ واهن رقيق :

- ريم .

قالي أبي :

- بتصلي الفروض في وقتها يا ريم ؟

وهنا ساد صمت كصمت القبور، واقترب مني فوزي وقال بصوتٍ كالفحيح:

- لابد من فتح النافذة أكثر .

هممتُ أن أتكلم فأشارَ لي وهو يضع أصبعه على فمه إشارة منه أن أخرس. كان شيش النافذة الخشبي متهالك متآكل عتيق لذا سمحتْ لنا الفرجة التي صنعها فوزى بخفة بالرؤية أوضح.

سمعتُ تمتمة أبي بالقرآن من سورة الملك والحديد والصافات وآيات أخرى، وهنا قفزتْ الفتاة في الهواء كبالون انثقب ، وأقسم اني رأيت ريشاً قد نبت في وجهها وصارت عيناها بلون الدم.

يا للغرابة ، فتاة في وجهها ريش !

قال أبي بعد أن أمرَ عم شفيق بتقييد البنت بقبضته :

- اترك البنت الغلبانة المسكينة يا ابن الكلب .

علمتُ حين كبرتُ أنه كان يحدث الشيء الذي غزا جسدها

وهنا تخلصتْ الفتاة من قبضة عم شفيق الواهنة وكورتْ قبضتها وبوم ... كانت اللكمة على صدر عم شفيق الذي طار في الهواء للخلف ثلاث كيلومترات وسقط متألما وهو يلعن شخصا وهميا ويقول :

- هتموتنى يا ابن الكلب .

قالها عم شفيق وهو يتحسس ظهره راقداً على الأرض لا يقوى على النهوض، ونظرتْ الفتاة إلى أبى وجها لوجه وهى تقترب منه وعلى وجهها شدة وصرامة وقسوة ورغبة في انتقام ، وفجأة ارتفعتْ في الهواء بمقدار نصف متر وظلتْ على هذا الوضع الطائر ، الآن قدماها لا تلمسان الأرض وصارتْ أطول من أبي بنصف متر ، وسمعتُ الفتاة تقول بصوت الكائن الذى يغزوها :

- هي السبب .

كان صوتا مقززا منفرا يجعلك راغبا في التقيئ ، لكن فم أبى لم يتوقف عن التمتمة ثم قال بصوت عالٍ :

- اخرج وإلاّ سأحرقك .

فخرج دخان أسود كثيف له رائحة ريش محترق يشمه المزكوم بعد أن سقط غطاء شعرها، وهنا سقط فوزي مغشياً عليه ، وحدثت جلبة فتحركتْ النافذة فتقهقرتُ للوراء لأتعرقل في فوزي المكوم على الأرض وأسقط بجانبه ، وفى أقل من دقيقة نهضتُ ووجهي للنافذة وأحسستُ أن شخصا ثالثا معنا في المنور، فاستدرتُ للخلف لأجد أبى واقفا يعلو وجهه غضب مخيف ، وهبدني بصفعةٍ ارتج فيها وجهي وهويتُ فوق جسد فوزي ، من وقتها وصار محرما علينا حتى النظر إلى باب الغرفة وكنت أخاف المرور من الطرقة المؤدية إليها .

ومرت السنوات وغادر فوزي القرية ليعمل معلما بالقاهرة ، وجاء عصر يوم كنت في الحقل وكنا في موسم

حصاد القمح ، ورأيتُ عم شفيق يتهادى إلى الحقل في وقار، ولما اقترب مني قال هامسا :

- اسمعْ يا علاء ، لقد ترددتُ كثيرا قبل هذه المقابلة وأرجو أن يكون كلامي سرّياً مهما حدث .

انتبهتُ له في رعب وقلت :

- سيظل سرا .

قال متلفتا حوله وقد أخرج من جيب جلبابه الرمادي شيئا :

- لولا ثقتي بكَ وظني انكَ تعرف قراءة اللغة الأجنبية هذه ، ما أخبرتك بهذا السر .

وفتح يده لأرى قلادة تتوسط سلسلة رفيعة والقلادة مدورة صفراء اللون عليها وجه فتاة ، قال عم شفيق :

- قلادة عثرتُ عليها وأريدُ منكَ قراءة ما نقش عليها .

ثم وضعها في يدي، وأقسمُ أنني عندما تحسستُ بأناملي ذلك الوجه الأنثوي شعرتُ برعشة في أوصالي وزلزلة في كياني وانتابني صداع خفيف، ونظرتُ إلى اللغة المنقوشة، وعجزتُ عن قراءتها ، فهي لا تنتمي إلى العربية، ولا إلى الإنجليزية ، وخشيت أن يلحظ جهلي فقلت كاذبا :

- قلادة فرعونية تعود لأسرة الملك امنمحات .

جذبها من يدى وقال وقد ضيق عنينه في رهبه :

- علاء ... سيظل سرا بيننا ما رأيت .

قلتُ في غيظ ولا مبالاة :

- بالطبع .

لكنه وهو يجذبها من يدي لمحتُ شيئا في القلادة لم ألمحه عندما كانت في يدي ، كان وجه الفتاة على القلادة يخرج لسانه ، لسان مشقوق كلسان الثعبان .

منذ ذلك الموقف وتدهورتْ صحة والدي ، وسقط ذات يوم في المسجد بعد صلاة الظهر مغشيا عليه ، والتف أهل القرية ونقلناه إلى الوحدة الصحية ، لكن تحسنتْ صحته بعد يومين وعدنا به إلى البيت وامتلأ البيت ناسا للاطمئنان على صحته ، وظننتُ أنها مجرد وعكة صحية لا أكثر ، حتى تكرر الإغماء وطبيب الوحدة الصحية نصحنا بنقله فورا إلى مستشفى سوهاج الجامعي ، وأصيب أبى بالهزال وكان يشكو من صداع مستمر لا يفارقه إلا بحقن المسكنات وأقراص المهدئات ، وعندما علم أحد أعيان القرية بمرض أبي هاتفني وطلب منى أن أعطي هاتفي لمدير المستشفى وقام بتوصية ، فلازمني طبيب قام بدسته من الفحوصات والتحاليل ، لكن أبى لم يتحسن ، انتحى بي الطبيب وقال :

- اسمع يا بنى ... الأمر معقد ، للصداع قائمة من الأسباب ، وقد أجريتُ كل الفحوصات اللازمة لكل سبب من مسببات الصداع ، لكن بلا فائدة ، أقصد انه لا يوجد سببا عضويا لهذا الصداع ، وظائفه الحيوية تعمل ، ضغط دمه منتظم ، قلبه كقلب طفل ، وأرجو ألا تضيع وقتك .

وظلتْ حالة أبي متدهورة ، حتى جاء عصر يوم تحسنتْ حالته فطلبني فهرعتُ إلى حجرة العناية المركزة ، قال أبى بصوت خفيض :

- لا تخبر فوزى بمرضي حتى لا يفزع وهو في سفر .

قلت وأنا أخفي دموعي :

- أنت بخير يا أبي .

قال في فتور :

- مجرد حلاوة روح .

ثم سعل فاهتزتْ مجموعة من الخراطيم تدخل وتخرج من وإلي جسده وقال:

- علاء ... تخلص من القلادة ، ظننتُ أنى قادر عليه ، لكن الأمر فاق تصوري ، صاحبة القلادة لن تهدأ ، تأتيني في كوابيسي بلسان مشقوق .

هنا تذكرتُ القلادة وعم شفيق والحقل وقلت :

- أين هي يا أبى ؟

قال : علاء ... رد القلادة إلى صاحبتها .

ثم سعل ثانية وسال من فمه لعاب وتحسس رأسه ، فمسحتُ فمه بكف يدي برقه وقلتُ مفزوعا :

- هل الصداع عاد ؟

قال في رضا : بالعكس يا عبيط ، الصداع انتهى للأبد، لا تقلق على والدك يا علاء .

وشخصتْ عيناه وبهت وجهه بعد أن توقف قلبه، لكنني أقسم أنه قال جملته الأخيرة وهو يبتسم .

الفصل الرابع

(فوزي عبد الحميد)

عندما تنهار جدران بيت ، ومن ثم سقف البيت الذي كان يحميك من برد الشتاء ويظلكَ من حر الصيف ، وقتها فقط تعلم أن والدك قد مات .

إن فقدان أبي كثيرا ما يشعرني بأني ريشة في مهب الريح، ونزل على خبر وفاته كالصاعقة ، فبعد مكالمة أخي علاء توقف بي الزمن وشعرتُ أن قدمي أسطوانتا ملأتا رمالا، ولم أدرِ بنفسي إلا وأنا في محطة رمسيس أنتظر أول قطار يقلني إلى الصعيد، وصلتُ القرية بعد عذاب سبع ساعات، كشفتُ عن وجه أبى وقبلته وشيعته إلى القبر، وواريته بيدي تحت التراب ، وكان الموقف فظيعاً ، وكنتُ أعجبُ أن عيوني لم تذرف دمعا كما كنت أتوقع ، ولكن عند وقوع المصيبة يتوقف العقل عن استيعابها، وأنا من هذا النوع أتحمل وأتحمل ثم أخلو بنفسي فأجد لذلك وجعا مناسبا، وجرتْ العادة في قريتي أن يقام العزاء خمسة أيام وازدحم سرادق العزاء بالمعزين تلقيت العزاء بوجه شاحب مكفهر خال من المعاني والتعابير وبعد نهاية اليوم الخامس كنتُ محطم الأعصاب كخرقة تهتز ، وخلا الدار من الناس وخلوتُ بنفسي وانهار السد فانفجرتُ في بكاءٍ

ونحيب كطفلٍ صغير ، ودخلتْ أختي سعاد فقالت في صرامة من تحدى الزمن :

- الرجال لا يبكون ، ماذا نفعل إذن أنا وأمي .

مسحتُ دموعي وهدأ روعي وفى نفسى حسدتها على صلابتها وقوة تحملها ، وجال بخاطري أنه ربما سدها لم ينهار بعد ، ونزلتُ إلى باحة الدار وجلسنا في صمت ، ونقلتُ بصري بينهم جميعا : أمي ، وعلاء ، وسعاد ، وأحسستُ فداحة المسئولية وخطورة الموقف ، لم أتصور يوما أني سأكون ربّ أسرة وأنا أرى نفسي الطفل الصغير الذى تبهره الأضواء .

" ربما جعلك الموت تعرف قيمة الحياة "

عبارة قالتها الممثلة الأمريكية الحسناء (أنجليا جولي) ولا أعرف ما كانت تقصده وقتها أنجليا الرقيقة، ولكنى تذكرت مقولتها والصمت يخيم علينا في باحة الدار ، عندما رأيتُ دمعة تنزل عنوة على خد سعاد علمت موضع ألمي بالضبط كأن تتعثر في قدمك في جرح قديم .

قطعتُ هذا الصمت قائلا وأنا أحاول أن يكون صوتي متزنا :

- لو أبي على قيد الحياة لما أحب أن يرانا بهذا الضعف ، ستسمر الحياة وتُزرع أرض أبى وتظل حجرته المقدسة مقدسة ، وسأسافر بعد غد إلى القاهرة .

لم يرد أحد ولم أسمع إلا صوت رشفات الشاي وصوت قطة تموء حتى قالتْ أمي في رقة :

- كفاكَ من القاهرة وعشْ معنا ورزق هنا رزق هناك .

قال علاء في صلابة العنيد :

- دعيهِ يا أمي ، أنا سأرعاكم وأرعى الأرض الزراعية وهو يحقق مستقبله .

قلت موافقا :

- سأبحث عن عملٍ إضافي وسأرسل لكم مبلغا ماليا كل شهر .

كنتُ أعلم أن مكوثي معهم لن يقدم شيئا بل سيزيد الأمر تعقيدا ويجدد الحزن والذكرى ، ناهيك عن كراهيتي لجو القرى الممل الرتيب لهذا قررت السفر .

وفى الليلة الأخيرة لي في القرية انتحى بي علاء جانبا وقال بعد أن تأكد أن أحدا لا يسمعنا :

- ثمة أمر خطير وسر غامض وراء وفاة أبينا .

قلت مستفسرا :

- كيفَ ذلك ؟

قال وهو يضغط على كلماته :

- القلادة هي السر .

قلت :

- قلادة ؟! ... هل جننتَ أخيرا يا علاء أم أنّ رؤيتك لأبينا وهو يحتضر أصابك بالعته .

قال مسرعاً :

- تعلم لماذا لم أبكِ على أبينا ؟ لأني رأيت وجه أبى المضيء المنير وقت غسله وشممتُ رائحة المسك من جسده بعد أن فارقته روحه في المستشفى ، ورأيت عدد المشيعين لجنازته وسمعت دعائهم ، وفى أول ليلة له في قبره رأيته في منامي يجلس في حديقة رحبة على قبة خضراء يلتف حوله أهل القرية .

هنا هربتْ من عيني دمعة جاهدتُ أن أخفيها وقلت :

- رحمك الله يا أبى .

ثم حكى لي علاء قصة القلادة وعم شفيق والحقل وطبعا لم أصدق كل هذا الهراء ، قلت في لامبالاة :

- عمك شفيق ضعيف النظر كبير السن وربما كان واهما ناهيك أنه من الطراز الذي يؤمن بالأساطير وأمنا الغولة والنداهة بل يقدس مثل هذه الحكايات ، وشخص متعلم مثلك الأحرى به ألاّ يصدق هذه الأمور .

قال كأنه لم يسمع شيئا منى :

قلادة غريبة عليها وجه أنثى تخرج لسانا مشقوقا .

هنا أصابني الدوار، هل قال لسان مشقوق ؟!

يبدو هذا المعنى مألوفا لدى، ثم أردف قائلا :

- لسان مشقوق كلسان ثعبان .

عدتُ إلى القاهرة وفى أول ليلة من وصولي جلست في حجرتي وقد ضاقتْ علىّ بجدرانها وتذكرتُ أبى وبدأت في

البكاء، ثم هدأتْ نفسي وعزمتُ أن أبدد وقتي في أمور تشغلني عن حزني وتبعدني عن هواجسي .

" في بعض الأحيان الأشياء السيئة ترحل وتحل محلها أشياء أفضل منها "

جملة قالتها الممثلة الذكية اللعوب (مارلين مونرو)، وهى جملة تبدو لنا عادية نحن المصريين، وربما استطعتَ أن تألف أفضل منها، لكن العبارة ربما وجدتْ صدى عند الأمريكان حتى تخلد في التاريخ .

بلا إرادة أخرجت هاتفي وبدأت أفتشُ عن الرقم الذى هاتفتني منه سوسن وكنت قد سجّلتُ الرقم باسمها آنذاك، طلبتُ رقمها عازما أن أنهي هذه القصة التي أرهقتُ فكري وشغلتني عن حياتي ومستقبلي، ثم سمعتُ صوتا يقول :

- آلو .

قلت :

- آلو .. سوسن . كيف حالك . و ....

هنا فطنتُ أن المتحدث رجلا وقال :

- سوسن مين يا قليل الأدب .. احترم نفسك واغلق الخط .

تجاهلت إهانته وقلت في ربكة :

- هل هذا رقم الأستاذة سوسن مدرسة الموسيقى والرياضيات ؟

قال في تهكمٍ واضح :

- موسيقى ورياضيات كمان، هذا ما كان ينقصني حقا، معاكسات ومضايقات من مخابيل .

قلت وقد أردتُ أن ألقى على نار غضبه حطبا :

- أنت والدها أم زوجها ؟

قال في عصبية وقد نجحت في إغاظته :

- اغلق الخط ولا استعلمت عن رقمك من شركة الاتصالات وبلغت عنكَ شرطة الاتصالات .

وأغلق الخط ، لكن الرجل لم يدرِ أنه أوحى إلى بفكرة مجنونة .

في صباح اليوم التالي قمتُ صباحا من فوري وتوجهتُ إلى شركة الاتصالات، في بداية الأمر سلمني موظف إلى موظف رافضين إعطائي أي معلومات عن صاحبة الرقم ، وعلمتُ أنهم اتبعوا معي نظام (الزحلقة) فطلبتُ الدخول على مدير الفرع ، وقبل أن أدخل مكتبه وضعت على عيني نظارة سوداء وأعدتُ هندام بذلتي ودخلتُ في ثقة وقلت فور دخولي :

- فوزى عبدالحميد، صحفي في قسم الجرائم الإلكترونية، وأرجو أن تساعدني في معلومات حول هذا الرقم وهو رقم أحد المشتبه فيهم في قضية تشغل الصحافة ولا أراك من النوع البيروقراطي الذي يعقد الأمور أو يعرقل جمع المعلومات لتحقيق العدالة .

هبّ الرجل واقفا ومد لي يده مصافحا وطلب منى الجلوس، وضغط على زر جرس بجواره، وقال فيه آمرا :

- فنجان قهوة يا مهران .

ورفع هاتف من الهواتف الكثيرة التي تستقر على مكتبه، وحدث شخصا ما ثم أغلق الخط وقال :

- لحظات يا فوزى بيه وستكون البيانات بين يديك .

فرغتُ من قهوتي ودخل علينا أحد الموظفين وقدم غلافا أنيقا للمدير الذى ناولني إياه بدوره وقال متلطفا متبسطا :

- كل التوفيق لكم يا بيه .

قلت في نفسى وأنا أخرج من مبنى الشركة :

- أبهذه السهولة تتم الأمور .. معقولة ؟

وفى حجرتي تحت ضوء المصباح الوحيد في الغرفة أخرجت الورقة من الغلاف وقرأت :

(شوكت عبدالعزيز السيد لطفى ، خمسة شارع عزام بحي الزهور بالقناطر ، الوظيفة كذا ، رقم قومي كذا و .....)

هنا تذكرتُ المحادثة التي دارت بيني وبين المدير، الرجل حتى لم يسألني عن بطاقة هويتي أو ما يثبت مهنتي وانتهى الأمر دون تعقيد لحسن ظني، وظننتُ أنه فعل ذلك لشخيصتي الكاسحة، لكن أعتقد أن الرجل كان ساذجا وانطلت عليه الخدعة، لكن كيف قلت له اسم الحقيقي فوزى عبدالحميد ولم أقل اسما وهميا؟! فلربما شكّ الرجل بعد خروجي وبحث عن اسمى، لكن استبعدتُ هذه الفكرة وطردتُ هذا الهاجس

الذي لا وقت له الآن على الإطلاق، عدت أنظر إلى الورقة مرة أخرى.
(شوكت عبدالعزيز السيد لطفى)
كيف كان سيلحنها العبقري كمال الطويل لو كانتْ مطلع أغنية عاطفية ، فمن المعروف عن هذا الملحن أنه كان يقوم بتلحين اسمه عندما لا يجد ما يلحنه ، وقد سمعتُ في لقاءٍ قديم لأحد أصدقائه كيف لحن كمال الطويل اسمه بلحنين مختلفين .
قمتُ من فوري وأخرجت هاتفي ، ثم طلبتُ الرقم ، وعمدتُ ألا أتحدث إلا بعد أن يبدأ هو الكلام ، فسمعته يقول :
- الو ... من معي ؟
قلت بصوت جاد :
- نحن شركة كذا وقد وقع اختيارنا في القناطر على اسم حضرتك، ألست الأستاذ شوكت عبدالعزيز السيد لطفى؟ ثمة عرض لا يُنافس تعرضه الشركة على من وقع اختيارنا عليهم.
قال :
- بلى أنا شوكت، وما هذا العرض يا ترى ؟
هنا أغلقت الخط .

مسكين الأستاذ شوكت فلابد أنه أصيب بالفالج الآن وتخيلته يسب ويلعن بينما أنصتُ أنا لأغنية مطلعها شوكت عبدالعزيز السيد لطفى وكتمت ضحكي من فعلة الصبيان هذه ،

لكن كان لابد من قطع الشك باليقين ، أشعلت سيجارة وقلت بصوت مسموع كأنما أحدث شخصا :

- شيطانة أنتِ يا سوسن ، تجيدين أداء ما تقومين به .

كان اليوم هو موعد حصة ليلى، وعزمتُ أن أذهب قبلَ موعد الدرس بساعتين، ربما أقابل سوسن ، فمنذ آخر مكالمة بيننا حينما قالت سنتقابل بلا أقنعه ، منذ تلك المكالمة وأنا لم أقابلها في الفيلا حتى أنني هممت أن اسأل ليلى عن موعد درس الرياضيات لكنني تراجعت، وأنا لست بحاجة لذكاء لأعلم أنها غيرتْ موعد الدرس حتى لا نلتقى، نظرتُ في ساعتي، وارتديتُ ملابسي وهممتُ أن أخرج لموعد الدرس لكن استوقفني رنين هاتفي فنظرت إليهِ ووجدتُ اسم (مدام نورا) على شاشته، تذكرون مدام نورا إنها أم ليلى ، قالت :

- أستاذ فوزى، البقاء لله ، هل عدتَ من سفرك ؟

قلت :

- نعم ، أنا في القاهرة وبعد قليل سأكون في الفيلا موعد الدرس .

قالت بعد صمت :

- في الحقيقة نحن نستغنى عن خدماتك وقد أحضرنا معلما جديدا، ونحن سعداء بما قدمته لليلى و ..

قاطعتها وقد أسودت الرؤية في عيني :

- والدرس وليلى و .... وهل قصرتُ في شيء ؟

قالت :

- لم تقصر ونشكرك وسوف أرسل لك بالبريد أو مع أستاذة سوسن مبلغا ماليا مكافأة على مجهودك الذى قمت به .

سوسن ؟! سوسن ... سوسن ... من أين ظهرتْ لي هذه الشيطانية، هل هبط بها شيطان من الجحيم ؟!

هل تعلم ما معنى أن تستغنى مدام نورا عن خدماتي ؟ ببساطة أنا بلا دخل، بلا مال وطعام بلا قدرة على دفع الإيجار ولا إرسال ما تيسر لأسرتي ، كانت مدام نورا تعطيني مبلغا كبيرا ، وعندما حصلتْ ليلى على مستوى متقدم في اختبار اللغة العربية والقواعد في المدرسة أعطتني مكافأة راتب شهر إضافي ، وكنت أرفض أن أتقاضى أكثر من حقي لكنها كانت تصر إصرار العنيد ، وكنت كثيرا ما أسهر مع ليلى عشية كل امتحان شهري لاستذكر معها كل الدروس، وكان هذا العمل فوق عملي الرسمي لكنى كنت أفعله حتى أشعر أنى أستحق ما أحصل عليه من مال، وأذكر ذات مرة أن مدام نورا أخبرتني بأني الوحيد الذى لم يطلب سعرا للدرس، خطفني من خواطري هذه صوت مدام نورا تقول عبر الهاتف :

- هل أنتَ معي يا أستاذ فوزى ؟

قلتُ في شجاعة لا تخلو من يأس :

- أحترم رأيك على أي حال ورأى الآنسة ليلى ، لكن هل من تفاصيل طالما لم أقصر ؟

قالت متعجلة :

- لا تفاصيل صدقني ونشكرك .

فقلت :

- العفو

وأغلقت الخط .

" القلق محرك تالف في طائرة تريد الإقلاع ، والمحرك التالف لا يذكرنا إلا بالسقوط "

عبارة عميقة كما ترون لكن من قائلها؟ في الحقيقة هذه العبارة لم أقرأها لأحد العظماء لأني قمتُ بتأليفها للتو ، لكنى أرجو من السادة المؤرخين أن يضموها إلى أقوال العظماء ولا ينسوا أن يدونوها بأسمى .

بدأت أسرح في خواطري ، كيف قالت إنها سترسل المال مع سوسن؟ سوسن قالت إننا لن نلتقى ؟ لكن مهلا هي قالت سنلتقى لكن بدون أقنعة ، إذن اللقاء قريب، وأتوقع أن يكون لقاءً رهيبا ستنكشف فيه الأقنعة، كيف سيحدث ذلك ؟ لا أعلم، ولكن على أن أتوقع مجيئها إلى غرفتي في أي وقت وكل وقت، وموضوع استغناء مدام نورا عن الدرس، أشم رائحة سوسن وراء كل هذا، ألم تلحظ معي أن كلما حدثت لي مصيبة كانت ورائها سوسن؟ راحت هواجسي توسوس لي أنّ سوسن أقنعت مدام نورا أن تطردني ، ولكن يا ترى ماذا قالت لها عنى وكيف أقنعتها ؟ إن علاقتي بمدام نورا علاقة عمل لا أكثر ولا نتبادل إلا ثلاث كلمات كل درس :

- كيف حال ليلى يا أستاذ فوزى، وبم تقيم مستواها وأرجو أن تعتبرها ابنتك ..؟

خلعت ملابسي وأعددت لنفسي كوبا من الشاي الثقيل وقبل أن أشعل سيجارة وجدت أن الوقت مازال عصرا ولابد من الخروج لعمل أي شيء حتى لا أصاب بالاكتئاب فعدتُ أرتدي ملابسي من جديد وقررت الذهاب إلى شخص تعرفونه جيدا ، الأستاذ شوقي ، وطلبت عنوانه عبر الهاتف قبل نزولي لأنى لم أزره في بيته من قبل :

- أستاذ شوقي هل أنتَ مشغول الليلة ؟ هل لديك مواعيد ؟ حسنا حسنا ، انتظرني بعد ساعتين، العنوان من فضلك

كان مكان إقامة شوقي قريبا من مسكني لذا وصلت قبل موعدي بنصف ساعة ، فتح لي باب شقته وهتف :

- أهلا يا أستاذ ... تبدو في بحبوحة من أمرك، هل وجدت عملا ؟ هل تزوجت ؟ أظنك فعلتها ، إذن وقعت في الفخ

كعادته كان يلقي السؤال ولا ينتظر إجابة، كان أسمرا قصيرا ممتلئ له شارب ، خيط أسود منمق رفيع يلامس شفته العليا محلوق من الأعلى لذلك ليس هو بشارب لكنه خط كأنه رُسم بقلم ، وأنتَ تعلم أصحاب الشوارب الرفيعة، دخلتُ شقته ومسحتها ببصرى ، كلّ شيء يدل على أنه عازب، ترى العزوبية وتشمها وربما تتذوقها في هذه الشقة، في الحقيقة كنت أظنه متزوجا وتعجبتُ كيف وصل هذا البائس إلى سن

الأربعين دون زواج ثم تذكرت أنني في سن السابعة والثلاثين، وقتها بدا على وجهى شحوب ورثيت لنفسي أتمنى أن تشاركني إياه ، الرثاء طبعا لا وجهى ، جلست على أريكة مهترئة ممزقة الكسوة أمامها منضدة خشبية عليها شطيرة فول وبصلة ومطفأة سجائر ، أزال ستارة فظهرت نافذة تطل على شارع ضيق وقال :

- لدى نسكافية ممتاز، مشروبي المفضل ، هل تجربه ؟

قلت :

- لا بأس .

غاب في المطبخ فسمعتُ صوت طبق يسقط على حوض المطبخ، وبعد ثلاث دقائق شممت رائحة النسكافية المحبب للنفس ثم سمعتُ صوت كوب يتحطم على البلاط ، وحضر أخيرا يحمل صينية وضعها على المنضدة فأسقط المطفأة ثم قال :

- حياة عازب كما ترى، اعذرني ، ما أجمل أن تكون لك زوجة تفهم من عينيك أنك تريد نسكافية ! وتفهم من نظرة أخرى انك تريد الغداء ، ما أجمل أن تقول في حزم رجولي " الشاي يا بت " فتحضر لك زوجتك ما أردت .

ثم سكت قليلا وأردف :

- لكن فات العمر يا ولدي.

ثم ضحك وأمسك بالبصلة وثبتها على المنضدة وكور يديه وهوى بها على البصلة فتناثر رزاز البصل على بذلتي .

قلت في غيظ :

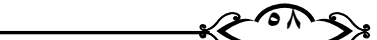

- ولماذا لم تتزوج حتى الآن يا أستاذ شوقي ؟

قال وهو يقدم لي كوب النسكافية الذى سقطت فيه قطعة صغيرة من البصل :

- الزواج في سن العشرين ضرورة وفى سن الثلاثين مغامرة والمغامرة دائما ما تذكرنا بالصعوبات، وربما الفشل ، أما في سن الأربعين فهو سخف.

ثم تناول شطيرة الفول وقضم منها قضمة ثم رمى في جوفة قطعة بصل وقال :

- وأعتقد يا فوزى أن الفرصة سانحة أمامك للزواج ما دمت لم تصل الأربعين .

قلت :

- نعم الزواج مهم ... فعلا مهم وسأفكر في الأمر، لكن دعني أسألك ماذا تعرف عن الأستاذة سوسن ؟

قال وقد تناثر من فمه بقايا طعام :

- آه ... سوسن ... إنها جميلة وطيبة وبنت حلال وأعتقد انه سوف تسعدك .

ماذا يظن هذا الأحمق ، هل النسكافية بالبصل له هذا المفعول السريع؟ قلت وأنا أضغط على كلماتي :

- أستاذ شوقي ، دعك من الزواج وقل لي أين هي الآن؟ وكيف اختفت؟ ومن هي أصلا ؟

قال :

- فوزى ... لا أحب الشخص الذى يلقي سؤالا تلو الآخر دون أن ينتظر إجابة .

قلت وقد أخذت زفيرا طويلا :

- معذرة ، ظننت أن الأمر مألوفا لديك أو تعرف واحدا كهذا .

قال وقد فرغ من شطيرته :

- سوسن حضرت إلى المدرسة عام ألفان وأربعة عشر أي قبل وصولك للمدرسة بعام، نعم أنا أحب الدقة والنظام، لكن سوسن كانت ترسم حول نفسها هالة من الغموض، وكنا جميعا نعرف بعضنا، نثرثر ونحكى ونضحك وندخن ونأكل الفول أثناء الفسحة ، حتى أنتَ الانطوائي عرفناك وفهمنا طباعك ، وقد نبذك الزملاء ، لأنك من الطراز الذي لا يروق لهم، كنت في نظرهم مجرد شاب متفائل بالعمل يريد أن يحرق شمعة شبابه في وظيفة حكومية (ويجيب الديب من ديله)، لكن كانوا يعرفون أن نشاطك هذا سيفتر ويتبخر مع أول صفعة من الزمن ، لكن لم تستمر معنا لتتلقى أول صفعة ، وكانت أول صفعة لي عندما ترقى منْ هم أصغر منى لقربهم من الناظر، المهم كانت سوسن أشد غموضا منك ، لم نعرف عنها إلا اسمها هل تعلم إنني أشك أنها ليست آنسة، ربما كانت أرملة أو مطلقة، المدرسون في مدرستنا شلة واحدة مهما اختلفت ميولهم وكنا نعرف كل كبيرة وصغيرة عن كل مدرس ومدرسة ماعدا

سوسن، حتى حضرت أنتَ عام ألفان وخمسة عشر، نعم أنا دقيق يا أستاذ، وبدأتَ تسبح ضد التيار، حاولنا أن نضمك للشلة لكن بديتَ لنا سمجا انطوائيا ، وقد أثارت أفكارك عن حصص التقوية والمجلات التثقيفية وإعداد الإذاعة المدرسية حفيظة المدرسين ، وأنا كنتُ أول من حذرك وطلبت منك آنذاك أن تترك المدرسة وتجد لك مدرسة تقدر المخلصين الذين يرون أن العلم رسالة، وهما نوعان : إما زاهد ، وإما مستغن أقصد مستغن عن المال، هل تتذكر يوم أن حذرتك؟

قلتُ وقد راق لي الحديث وقد علمتُ أن شوقي هذا ربما يحمل الحكمة في كلامه :

- نعم أتذكر .

قال بعد أن رشف أول رشفة من النسكافية الذى صار ثلجا :

- وبعد التحقيقات فُصلتَ أنت من الوظيفة، وعُوقبتْ سوسن بجزاءات إدارية ومالية منها لفت نظر وخصم الحوافز، ثم اختفتْ كأنها لم تكن، كأنها جاءت لتقوم بدور ما وترحل ..

هنا بدا لي الكلام خطيرا، وقد لاقتْ جملته الأخيرة صدى في نفسى لأنها وافقتْ هواجسي، فأشرتُ إليه أن يكمل لكنه مد يده إلى بسيجارة وفتش في على المنضدة وتحتها عن قداحة ، ثم

استأذن منى للذهاب للمطبخ فمددتُ يدي إليه بقداحتي ، فأشعل سيجارته، ووضع قداحتي في جيبة في شرود ثم قال :

- المدرسات الفضليات بحثن عن عنوان أستاذة سوسن وفى بداية الأمر لم يجدن شيئا ، حتى جاءت الأستاذة لبنى، وقالت أظن أنني أعرفه لكن عندما ذهبن إلى العنوان المقصود أخبرهم الجيران أن أحدا بهذا الاسم لم يسكن البناية قط ، وقلن كذبا في المدرسة أنها عزلت .

ثم نظر إليّ فوجدني أضع بين شفتيّ سيجارة غير مشتعلة فتحسس جيبه وأخرج القداحة وأشعل لي السيجارة وقال :

- يا لشرود ذهني ! معذرة إنها قداحتك .

قلتُ متجاهلا :

- هل كانتْ في المدرسة معلمة اسمها منال ؟

قال من فوره :

- أحمق يا صديقي ، عشتَ معنا عاما كاملا ولم تعرف حتى أسماء الزملاء والزميلات، لا توجد معلمة بهذا الاسم في مدرستنا .

قلت في استمتاع غريب :

- وأين ذهبت سوسن؟ أكملْ يا شوقي .

قال :

- ليس هناك ما أكمله، انتهت القصة.

قلت :

- ولم تظهر مرة أخرى في المدرسة ؟

قال :

- لم تظهر .

قلت له كاذبا ومشجعا :

- أستاذ شوقي أعلم أنك قوى الملاحظة سريع البديهة، هل لاحظت شيئا غريبا عليها طوال العام ؟

قال بعد أن وضع كوب النسكافية على المنضدة ومرر إصبعه على شاربه الرفيع :

- كنا في حفلة عيد ميلاد الأستاذة لبنى، وكانت هي معنا ، وهى التي قامت بإشعال الشموع ، وبينما تشعل الشمعة الأخيرة استقرتْ يدها على نيران الشمعة مدة طالت ولم تتألم ، مدة لا يتحملها بشرى، لكن تعلم أني ضعيف النظر يا فوزي وربما كنت أتوهم ، أنتَ تعرف ألعاب الضوء وما يتوهمه ضعاف النظر أمثالي .

ثم أردف وقد لمعتْ عيناه :

- لكن ما كل هذا الاهتمام يا لئيم ؟

طبعا أنا أعلم في نفسى أنه لم يكن واهما أو هكذا خيلت لي هواجسي ، وأردت أن أخرس أسئلته الفضولية فقلت كاذبا :

- سبب اهتمامي أنني شاب ، نعم شاب أو اعتقد هذا، والزواج مفيد ، أقصد مهم ،وهى طيبة كما قلت وأنت تعرف هذه الأمور.

قال في خبث :

- لئيم ... وأظنها لن ترفض، هي تبدو غريبة الأطوار، رعناء، لكنها رعونة الشباب، نعم هي كانت سببا في

فصلك من العمل لكن لا محبة إلا بعد عداوة، وقلب الحبيب يعمى عن كل شيء .

شكرته على النسكافية بطعم البصل وقلت :
- أرجو أن أراك في مسكني .
قال :
سيحدث يا صديقي .
وصافحته ورحلت .

في نفس اليوم عند منتصف الليل أنت تعلم ماذا أفعل، كوب الشاي الثقيل مع سيجارة وأنا انظر من النافذة إلى الحارة افكر في تلك الدوامة وهذا الغموض، وكان من الممكن أن أتخلى عن الموضوع، لكن موضوع القلادة هذه وعم شفيق والكوابيس التي هاجمت والدي فالأمر بات مقلقا.
رن هاتفي فانتفضتُ ووجدتُ عليه رقم غير مسجل باسم ، يا ترى أي كارثة تنتظرني ؟ قلت :
- الو ... من معي ؟
قالت :
- وهل هذا الصوت يُنسى بهذه السهولة ؟
قلت :
- سوسن !؟
قالت :

- لماذا تظنني السبب في طردك من درس ليلى ؟

قلت :

- ببساطة لأنك أنت السبب فعلا ، صار جليا أن كل كارثة تقع تكونين سببها

قالت في لا مبالاة :

- ربما طردك كان سببا في حصولك على عملٍ أفضل .

قلت :

- آها ... إذن أنت السبب ؟

قالت :

- وربما سأكون السبب في كل كوارثك .

قلت في غيظ :

- اسمعي... كفانا من هذه اللعبة السمجة لابد من إنهاء الأمر ، لدي دستة من الأسئلة ومن حقي أن أجد تفسيرا لما يحدث .

قالت :

- تفاصيل ... تفاصيل ... تفاصيل ، أنا أكره التفاصيل .

قلت :

- وأبى والكوابيس والقلادة ؟

قالت :

- عم تتحدث ؟ لا أعرف حرفا .

ثم أردفتْ :

- فوزي ... حذرتك أن تفتش عنى ثانية ، قلت لك سنلتقى دون أقنعة ، أعدك وقتها سأجيب عن عشرة أسئلة فقط ، والان وقتك انتهى و....

قلت مسرعا :

- انتظري ، أريد تفسيرا و...

قاطعتني :

- لا وقت للتفاصيل والتفسيرات، وعلى فكرة لا تبحث عن رقمي في الشركة، من حسن حظك أن المدير كان أحمقا وانطلت عليها خطتك أيها الصحفي المهم لكن في المرة القادمة ...

ثم صمتت لحظات وقالتْ :

- سأوفر عليك عناء البحث عن صاحب الرقم، أنا أتحدث من رقم شخص يدعى فهمى أبو اليزيد .

هممتُ أن أقول شيئا لكنى سمعتها تقول بسخرية :

- مسكين شوكت ....

ثم أغلقتْ الخط .

الفصل الخامس

مرّ على تلك المكالمة شهراً وكنا في أخريات أكتوبر بجوه المحبب للنفس ، وكنتُ أقضي نهاري في البحث عن عمل في المدارس الخاصة، ووقت الليل في التفكير والتدخين والأحلام، وذات يوم عدتُ من رحلة البحث عن عمل وكنت خائب الرجاء فقير القلب والجيب، اشتريت شطائر فول من (مطعم الصديقان) ودخلت البيت وبينما أصعد السلم سمعت من يناديني باسمي فاستدرت من فورى وإن كنت عرفت صاحبة هذا الصوت الرقيق، قالت منال بنبرة متهدجة دلت على انفلات الأعصاب :

- هل قابلتها يا أستاذ ؟

قلت مستفسرا :

- قابلت من ؟

قالت متلاحقة الأنفاس كمن نجا من كلب مسعور يركض خلفه :

- الحسناء التي تجردت من كل درجات الحياء وجاءت هنا لتقابلك

ثم أردفت في شرود :

- لم اكن أحسبك من هذا النوع

لأول مرة أرى منال تتحدث بهذه اللهجة لهجة من يريد الشجار ، قلت :

- عم تتحدثين ، لا أعرف حرفا

قالت كأنها لم تسمع شيئا :

- عندما لم تجدك وصلت بها البجاحة أن تترك لك خطابا مع الأسطى عمر ثم شهقت وغالبت دمعة تريد أن تسقط ونظرت إليّ نظرة ذات معنى وغادرت قبل أن تفلت منها دموعها .

حقا هذه الفتاة تحبني من قلبها لكن، لكن ماذا ؟ هنا بدأت أفهم وضربت رأسي بكفى وتذكرت ، فتاة وخطاب، إذن هي سوسن، هرعتُ صاعدا السلم وتوقفت أمام باب شقة الأسطى عمر وطرقت الباب، فتح لي الصغير رامي ثم أخرج لي لسانه وصوّب إليّ يده كأنه يمسك مسدسا وهميا قائلا :

- ارفع يديك ولا أصبتك في رأسك .

وسمعتُ زوجة الأسطى عمر تقول من الداخل :

- من بالباب يا رامي .

قال الولد ومازال يشير بيده نحوى :

- عمو اللي ساكن فوق على السطوح .

هرعتْ الزوجة إلى الباب وهى تمسح من يديها آثار السمن والبصل وقالت:

- تفضل أستاذ فوزى ، معذرة لو ضايقك هذا الشقي .

قلت :

- أريد الأسطى عمر .

جلسنا في صالة الشقة وكانت تعبق برائحة دجاج يُطهى، ومدّ الأسطى عمر يده نحوى بالخطاب قائلا :

- اعتقد أن اسمها سوزي .
- قلت : سوسن .

قال بسرعة :

- نعم سوسن هي كذلك ، قالت أنها صديقة .

أخذتُ الخطاب ولم أفتحه ، وقرأتُ المكتوب على غلافه (يصل ليد الأستاذ فوزي)

قال الأسطى عمر في خبث :

- محظوظ فعلا المرء الذى يجد من يحبه لاسيما لو كان أحباؤه كثيرين ، قلتُ في ضيق :
- مستحقات مالية من الدرس وسوسن زميلة ، مجرد زميلة تقوم بدور ساعي البريد .

ثم تذكرتُ شيئا فقلت :

- كيفَ عرفتْ منال بشأن الخطاب ؟

قال بعد أن ضحك ضحكة لا تخلو من اتهام وقد اهتزّ كرشه كعادته حين يضحك :

- كنت عائدا من الخارج وبينما أركن التاكسي في الحارة كدتُ اصطدم بطفل ، لكن هو المخطئ ، هم ينجبون ويرمون أطفالهم في الشارع و....

قلتُ في ضيق :

- مفهوم مفهوم ، ادخل في الموضوع من فضلك .

قال :

- ولمّا وصلت للبيت وجدتهن في الطابق الأرضي ، خالتي نعيمة ، والآنسة منال ومعهن هذه الزائرة ، فتريثت لأسترق السمع ، فسألتني خالتي نعيمة عنك فأخبرته أنك ربما بالخارج ، هنا تدخلتْ الزائرة، وسألتني إن كنت أعرفك ، ولما عرفتْ أني أحد سكان البيت تركت لي الخطاب وأوصتني أن أسلمك إياه ، وكنت أنوي الحضور إليك ، لكن رائحة الدجاجة الشهية جعلتني أتريث لما بعد الغداء ، وها أنتَ الآن سوف تتغدى معنا، فزوجتي ماهرة في طهى الدجاج و ...

قلت مغتاظا :

- وهل قالت شيئا آخر ؟

قال بعد أن وبخ ابنه رامي لأنه ركل كرة اصطدمت بزهرية :

- لم تقل شيئا لكنى دعني أؤكد لك يا أستاذ أن منال أجمل منها ، أما صديقتك سوزي لـــ.....

- قلت : سوسن .

قال في لا مبالاة :

- لا عليك ، فإن صديقتك سوسن لم أستخف لها ظلا من نظرتي الأولى لها .

ثم مال نحوي فتكور كرشه وقال :

- أرجو ألا تنخدع بطلاء وجهها يا أستاذ وأؤكد أنها من اللاتي يضعن طنا من المساحيق على وجوههن ، حتى حواجبها بدتْ لي صناعية ثم ضحك نصف قهقهة وقال :

- لو أزالتْ حواجبها ورموشها الاصطناعية لبدتْ مثل ثعبان قبيح، فليسامحني الله ، لكن وجبتْ علىّ نصيحتك وأنت جار كريم .

هل قال ثعبان قبيح ؟!
هممتُ أن أستفسر عن هذا التشبيه بالذات لكن خشيت أن أثرثر أمامه فيعرف سكان البناية كلهم بهواجسي ، أنا أعلم أن الأسطى عمر لا تبتل في فمه حبة الفول لذا قلت :
- لا عليك ، واشكر لك نصيحتك.
وانصرفت .

عندما دخلتُ حجرتي وفتحتُ غلاف الرسالة وجدتُ الرسالة مرفقا معها مبلغا ماليا لا بأس به ، وقد كُتب في الرسالة عبارة قصيرة (أشكرك على تعاونك ، مدام نورا)
وسرني أنها وضعت الهمزة على الفعل (أشكرك) ، وبدأتُ أقسّم المبلغ على الإيجار المتأخر ونفقاتي وما أرسله لأسرتي ، لكن هذا المبلغ وإن كان لا بأس به فهو لا يسع كل هذا ، وعدتُ إلى همومي وهواجسي وألمى وتركتُ الرسالة والمال على المنضدة بجوار هاتفي ثم دخلت المطبخ وأعددتُ كوبا من الشاي الثقيل ، وجلست أدخن ومددت يدي ، وأمسكت بهاتفي وبدأت أتصفح جروبات الإعلانات عن الوظائف ورحت أنشر الإعلان القديم في الجروبات ، ثم فُوجئت بأن هناك سبع

إشعارات تفيد بأن رسائل غير مقروءة عبر ماسنجر ، فولجتُ للبرنامج وقرأت :
(عزيزي فوزي ، هذه هي الرسالة السابعة وأرجو سرعة الرد، لقد جهزتُ لك تأشيرة السفر ومكان الإقامة ، ثمة مغامرة ستغير العالم في انتظارنا أيها المغامر الرحالة العظيم ، وفى انتظار الموافقة النهائية لأرسل لك تذكرة الطيران ، السفر سيكون يوم الثلاثاء الموافق ٥ نوفمبر ٢٠١٥، أرجو الرد بسرعة)
مفهوم طبعا أنه (هنري الفونسو) .
قرأتُ الرسالة مرة أخرى ونظرتُ إلى التقويم فوجدته السابع والعشرين من أكتوبر ، فكتبت له على الفور :
(عزيزي هنري ، موافق ومستعد للمغامرة)

" إن أشد الناس كآبة هو من لا يعرف سبب كآبته "
وأنا هنا عرفتُ سر كآبتي الذى هو حياتي نفسها التي لا أجد نفسى فيها كأنى أرتدى قميصا استعرته مِن مَن هو أنحف منى ، ما أجمل أن يترك المرء همومه وهواجسه وفقره ويطير إلى بلد آخر لا يعرفه فيه أحد !
بلد بدون سوسن، ولن تلاحقني فيه منال لتعذب ضميري وتدفعني دفعا لأن أكون وغدا ، تدفعني لأن أجرها معي لمستنقع الفقر والتيه والمستقبل المجهول ، قرار السفر هذا لا أعرف كيف اتخذته ولماذا لم أتردد كعادتي قبل اتخاذ كل قرار في حياتي ، لا أعلم ماذا ينتظرني في أرض الأحلام والفرص ،

وهل ستتحقق أحلامي وتأتيني الفرص هناك أم أن هنري هذا مجرد نصاب يريد التسلية والتسكع في جزيرة الوشم هذه .

في الأيام التالية استخرجتُ جواز السفر وجهزتُ كل الأوراق المطلوبة ، وعندما وصلتني التأشيرة وأمسكتُ بين يدي المرتعشة تذكرة الطيران علمت أن هذا الأمريكي المغامر لا يمزح ولم يكن الأمر دعابة ، كنت أحمقا وقتها فلم أكن اعلم أن أسوأ كوابيسي ستتحقق في جزيرة الوشم .

في اليوم التالي كنت جالسا أمام حجرتي على السطوح أحدق في السماء والبنايات المتراصة المتلاصقة وبين الحين والآخر أنظر إلى درجات السلم الهابط حتى الدور الأرضي أترقب ظهور شخص ما ، وقد ظهر، سمعتُ وقع خطوات فنظرتُ فوجدتها صاعدة ، أعتقد أنها كانت قاصدة زوجة الأسطى عمر، فهرعتُ هابطا السلم واستوقفتها وقلتُ في شجاعة :

- آنسة منال هل تمانعين في الخروج معي لنتحدث في أمر هام ؟

تلألأ وجهها وأشرق فظهرتْ غمازتان فاتنتان وقالتْ في براءة :

- أكيد .

جلسنا معنا بالقرب من النيل ننظر إلى السماء والنجوم وبدأت كلامي :

- كان لي عند أحد أولياء الأمور مالا متأخرا ولم تكن بيني وبينه وسيلة اتصال إلا سوسن.

قالت :

- علمتُ هذا مؤخرا من زوجة الأسطى عمر واعتذر عما بدر منى في آخر مرة .

قلت :

- لا بأس ، سأسافر بعد غد .

قالت في لهفة :

- هل حدث شيئا في قريتك ؟!

قلت :

- ليس السفر للقرية بل للولايات المتحدة الأمريكية .

قالت وقد بدا العجب على وجهها :

- أمريكا ، ولماذا ؟

قلت :

- ثم فرصة عمل أظنها مناسبة .

قالت في شرود وقد تغير مزاجها :

- إذن متى ستعود ؟

قلت :

- لا أعرف، ربما لن أعود إن استقر الأمر ، وهي فرصة لن تأتي مرتين .

لمعتْ عيناها ببوادر دموع تريد أن تمطر وقالت :

- ماذا ؟! لن تعود ! كيف هذا ؟ أنت إذن لا تعلم شيئا ، أنت أنت ...

قاطعتها وقلت بهدوء :

- آنسة منال دعينا نضع النقاط على الحروف، أنا مجرد ساكن عندكم ومتعثر في دفع ثلاثة شهور متأخرة في الإيجار، ولا يخفى عن ذكائك انى فقير وما زلتُ أبحث عن عمل ومستقبلي مجهول ، أنا في السابعة والثلاثين وأنتِ صغيرة ، فتاة جميلة رقيقة تستحق من هو أفضل حالا وأصغر سنا ولو كنت نذلا لجررتك معي في مستنقع فقرى ومستقبلي المظلم ، يمكنك من الآن أن تعتبريني مجرد راكب قطار رأيتهِ ساعة ، ثم نزل محطته الساعة التالية ، شعورك هذا مجرد إعجاب لا أراه في محله وسرعان ما سيزول بعد سفري بيوم واحد ، سيزول لأنه إعجاب للشخص الخطأ في الزمن الخطأ .

كنتُ أقول هذا الكلام ناظرا إلى النيل متحاشيا نظراتها حتى لا يتهدج صوتي ، لكنى عندما نظرتُ إليها وجدتُ صدرها يعلو ويهبط من الانفعال وعلى وجهها الغض شرود وحزن ، ثم لمحتُ دمعة خانتها وسقطت على خدها سرعان ما جففتها وهبّت واقفة وانصرفت .

أعلم انى كنت قاسيا لكن لأن أكون قاسيا خيرا لي من أن أكون نذلا أنانيا ، هذه الفراشة الرقيقة الحالمة البائسة لن تطيق أن تشاركني حياتي الكئيبة ليوم واحد ، لهذا رجوت لها مستقبلا ناضرا مع من يستطيعون أن يجعلوا مستقبلها نضرا،

كان لابد من هذه المقابلة حتى أسافر مطمئن البال مرتاح الضمير ، ظننتُ أنها ستنسى وستقبل أول عريس يطرق بابها وتعيش حياة سعيدة مع شاب في مثل عمرها وتنتهى الحكاية ، ولكن كعادتي كنت أحمقا .

وفى آخر ليلة لي في القاهرة كنتُ قد تأهبتُ تماما للسفر وحزمت متاعي القليل وجهزت شنطة سفري ، في هذه الليل سمعتُ من يطرق باب حجرتي بخفة ولم يكن الطارق سوى منال .

- آنسة منال ... أهلا بك .

قالت في هدوء :

- هل يمكنني الدخول ؟

قلت مسرعا :

- بالطبع

جلستْ على مقعد خشبي ونظرتْ إلى سرير نومي والى حقيقة سفري ثم أخرجتْ شيئا وفتحته ، لأجد سلسلة ذهبية مدتها إلى بيد لينة رقيقة

وقالت :

- إن المسافر يحتاج إلى المال .

قلت متفاجئا :

- لكن هذه سلسلة من ذهب .

ولما وجدت تعليقي هذا غبيا قالت :

- يا لها من ملاحظة دقيقة .

ثم أردفتْ :

- أعلم أنها من الذهب ، وهى أعز ما أملك ، ابتاعها لي أبي رحمه قبل وفاته متمنيا أن يراها حول رقبتي وأنا عروسة .

قلت متأثرا :

- وكيفَ تفرطين في أعز ما تملكين من أجلى ؟

قالت :

- لأنك أنتَ الآن أعز ما أملك .

هنا علمتُ أن السد قد انهار، وأن الفتاة تنتظر منى أن أكون أكثر حرارة أو تنتظر منى وعدا ، وكأنها علمتْ بما يجول في خواطري فقالت وهى تنظر في عينيّ :

- أنا لست غبية ، أذكر لقاءنا على النيل ، أعلم أنكَ كنتَ بطريقةٍ مهذبة تطلب منى أن أنساك ، وأتزوج من يطرق بابي ، لكن طلبك مرفوض.

كنتُ لا أستطيع مقاومة نظراتها ، وقد تحطمتْ نظراتي أمام عينيها ، لكنها كانت تنظر في عينيّ وأردفتْ :

- طلبك مرفوض ، سأنتظرك حتى تعود ، وأعلم أنك ستعود .

وتركت السلسلة على المنضدة وهبت خارجة ثم توقفتْ بعد أن فتحتْ باب الغرفة واستدارتْ نحوى وقالتْ :

- هل تريد أن تقول شيئا ؟

كنت مبهورا تتلاحق أنفاسي من هول الموقف فلم أرد ، فغادرت

الفصل السادس

٥ من نوفمبر ٢٠١٥ ميلادية .
في الرابعة ظهرا بالتحديد .
هبطتْ الطائرة مطار(dallas fort worth airport) (دالاس فورت ورث) بولاية تكساس، ولا أعلم لماذا يصر الإسبان أن ينطقوها (tejas) (تيخاس) ، لكنهم يظنون أن هذه اللفظة تعنى الأصدقاء في لغة (كادو) ، وتكساس هي ثاني أكبر ولاية بالولايات من حيث المساحة والسكان ، وأطلقوا عليها لقب (النجمة الوحيدة) للدلالة على وضعها السابق كجمهورية مستقلة ، وهى الولاية التي وُلدتْ فيها الكاتبة ، والمطربة الأمريكية (جانيس جوبلن) ، وسر شهرتها الفتاة لا الولاية أنها أول فتاة غنّتْ موسيقى الروك اند رول .
وجدتُ في انتظاري شابين قال أطولهم قامة :
- هالو سيد فوزي ، مرحبا بك في تكساس .
قالها بعربية محطمة تذكرت بالخواجات في أفلامنا المصرية القديمة ، وكان من السهل أن أعرف انه هنري فأنا أعرف كيف يبدو الأمريكان الأثرياء ، كان رشيقا أنيقا وسيما أبيض البشرة مبتسما ، لم يصل لسن الثلاثين ، أو هكذا خُيل لي ، له شعر أسود كثيف طويل ، يرتدي بنطلون جينز أزرق وقميص أبيض

مفتوح الأزرار يكشف عن تيشيرت أزرق اللون ، قال وهو يمد يده نحوى:

- هنري الفونسو .

صافحته ، فهزّ رأسه في وقار كأنه يصافح عالما ملأت أبحاثه الدنيا ، وقال بنفس الوقار مشيرا إلى صديقه :

- وهذا صديقي ديفيد جوناثان .

صافحني الرجل مُرحِباً في حرارة قائلا :

- مرحبا صديقي المصري .

وكان في سن الأربعين ممتلئ الوجه قصير القامة ، وجه أحمر محتقن ، له شعر يميل إلى الصفرة .

خرجنا من المطار وقال لي هنري وهو يفتح باب سيارته :

- سنقيم يوما في تكساس ونتجه بعدها إلى لوس أنجلوس ، فمن هناك سوف تبدأ المغامرة .

وصلنا لمنزل ريفي في مكان هادى تملأه الخضرة والأشجار ، وتناولنا وجبة أمريكية سريعة ، ثم دلّني هنري على غرفة علوية لأستريح من عناء السفر .

في اليوم التالي جلسنا حول منضدة مستديرة عليها مشروبات وردية وقال ديفيد :

- صديقي لو طلبنا منكَ أن تلخص حياتك في سطور قليلة فماذا تقول ؟

أربكني السؤال وطريقة عرض السؤال لكنني قلت :

- شخص عادى جدا ، غيرَ أن الدنيا لم تبتسم لي بعد ، ولم أجد نفسى فيها حتى الآن ، وتشاجرتُ معها طويلا وطبعا كانت تفوز كل مرة وكنت أنا المهزوم البائس وكنت أشعر أنى سأنتصر ذات مرة لكن متى ؟ لا أعرف ، وحينما قرأتُ إعلانكم كانتْ تطاردني لعنة ، ربما ليست من البشر، لعنة تسببت في وفاة أبي رحمه الله ، وربما كنتُ واهما في هذا ، لكن ما كان يجرى معي لم يكن طبيعيا ، وكنت على استعداد أن أهرب من هذا الشيء وأغيّر حياتي ، فربما وجدتُ نفسي ، وانتصرت على الدنيا .

هلل هنري معجبا وقال في انبهار :

- يا لها من حياة حافلة !

ثم أردف قائلا :

- سوف اسأل نفسى سؤال صديقنا ديفيد لنتعرف

ثم صمت ورشف رشفة وقال :

- هنري ، والدي أمريكي الجنسية من أصل صيني جاء من الصين مؤسسا لاحدي الشركات التي تربح مليارات الدولارات سنويا ، وأعجب أبي بالسكرتيرة الحسناء التي صارتْ أمي، وهى أمريكية من أصل بريطاني لينجبا ذلك الولد الثرى المدلل ،

ثم ابتسم ومال نحوى وقال :

- هكذا يراني الآخرون .

ثم أردف :

- لم أكن أحلم بالمال ولا الثراء ، فأنا جربت كل شيء ، ومللتُ من كل شيء وكنت أولد من جديد عندما أخوض مغامرة جديدة ، فأنفقت مالي في السفر والتحقتُ بمعهد (ليسانو) لدراسة الجغرافيا وطبيعة البلدان ، وقررت أخيرا أن اتحدى نفسي وأسافر إلى جزيرة الوشم ، وهى مغامرة أشبه بالتحليق فوق منطقة مثلث برمودا .

هنا ابتلعتُ ريقي بصعوبة وقلتُ في نفسى :

- كيف سأعيش مع هذين المخبولين ؟!

فوجدته ينظر نحوى كأنما ينتظر تعليقا فصحتُ في انبهار :

- لا قيمة للحياة دون مغامرات .

فابتسم عندما وجد رأيي موافقا لأفكاره وسمعته يقول :

- والآن يا ديفيد هل يمكنك الإجابة عن نفس السؤال ليتعرف عليك صديقنا المصري ، فقال ديفيد :

- عشتُ جُلّ عمري في البحر تحملني المياه من بلد لبلد ، فقد كان أبي بحارا ماهرا يحفظ البحر موجة موجة ، ويعرف مواعيد وأماكن الدوامات المائية والجبال الثلجية والشعب المرجانية ، ولازمته منذ صغري ، فورثتُ عنه هذا العلم ، وعندما مات أبي قررتُ أن أدرس أكثر في هذا المجال حتى التقيت يوما بصديقنا هنري وخضنا رحلات ومغامرات ومنذ ثلاث سنوات ونحن ندرس السفر لجزيرة الوشم ، وشرفنا أخيرا بانضمامك معنا .

قلت في غيظ :
هل تعلمان أن ما تنويان القيام به يعده الناس في بلدي نوع من الترف والجنون.
فضحك ديفيد حتى احتقن وجهه وقال :
- هم محقون فالمغامرة نوع من الجنون ، وإن لم تكن مجنونا برؤية أرض جديدة فلن تغامر أبدا.
أخرج هنري مجموعة من الأوراق وقال :
الرحلة مجهزة بكل وسائل الأمان ، لكن لابد من توقيع كل منا على هذه البنود .
قلت مستغربا :
- ما هذه البنود ؟
قال هنري بعدما وضع أمامي الورقة :
- إقرار بقبول القيام بالرحلة وتوقيع شرط جزائي قدره مائة ألف دولار على من يريد الانسحاب من خوض المغامرة .
بدا لي هذا غريبا فقلتُ من فوري :
- ولكن إن أردتُ الانسحاب في منتصف الرحلة ؟
قال هنري :
- عندها نجرى تصويتا بين ثلاثتنا وتربح الأكثرية .
وجدتُ الأمر مسليا بعد أن بدا الأمر جنونيا وقلت في نفسى :
سأستمتع بوقتي مع هذين الأحمقين .

وقمتُ بالتوقيع باسمي مرتين ، مرة بالإنجليزية ، ومرة بالعربية كما أراد هنري الذى أعطى الورقة ل ديفيد وطلب منه التوقيع بدوره.
ثم وقّع هنري باسمه وقال بعد أن رفع حاجبيه ليوحي بالخطورة:

- سنحزم أمتعتنا الليلة ونحمل وخرائطنا ونسافر إلى لوس أنجلوس نقيم يوما ونبحر إلى جزيرة الوشم .

بعد قضاء يوم في لوس أنجلوس البراقة الزاهية الملونة كنا نحن الثلاثة نبحر عبر المحيط الهادي في مركب كبير- أشبه بسفينة - مجهز بكافة وسائل الأمان والحياة كأنك تعيش في قصر متحرك ، وكنت أبحر لأول مرة ، لذلك كنت متوترا عصبيا ، وشعرت أنني تورطتُ في هذه الرحلة ، وأعترف أنني وجدت لذة خفية فيما أقوم به من جنون ، ماذا لو عرف الأستاذ شوقي بأنني أنظر إلى سماء المحيط الهادي ؟ ابتسمتُ في نفسي وسمعتُ هنري يقول :

- صديقي فوزي ، سنعقد اجتماعنا الأول بعد ساعة في قمرة القيادة .

أومأتُ برأسي موافقا .

وفى الحقيقة كنت أتمنى أن أمكث في (لوس أنجلوس) أكثر من ذلك ، فطالما حلمتُ بالسير في شوارعها والتعرف على عادات أهلها ، وهى تعد أكبر مدينة في ولاية (كاليفورنيا)

حيث تقع جنوب غرب الولاية على المحيط الهادي ، وكانت المدينة تأهل بالقبائل حتى اكتشفها الإسبان، ورغم قصر مدة مكثي فيها إلا أن جوها أعجبني لما تتمتع به من جو معتدل يشبه الجو في مصر ، وتعد (مارلين مونرو) أشهر شخصية ولدت في مدينة (لوس أنجلوس)

وبعد ساعة جلسنا بينما ديفيد يتابع القيادة ، قال هنري :

- نحن الآن في التاسع من نوفمبر ، ولو سارت الأمور كما خططنا لوجدنا الجزيرة في اليوم الخامس عشر من نوفمبر .

قلتُ في خوف :

- ما معنى لوجدنا الجزيرة ، هل من الجائز ألا نجدها ؟

قال ديفيد بينما يحرك دائرة كبيرة أمامه ويتابع حركة السفينة :

- ليس من الجائز بل من اليقين ألا نجدها فهي جزيرة ملعونة .

سرتْ رعشة في أوصالي فشلتُ في إخفائها وقلتُ في رعب :

- كيف لا نجدها ؟ إذن ما أهمية الخرائط وثلاث سنوات دراسة ؟

قال هنري :

- الجزيرة تغيّر مكانها مرة كل عام اثر زلازل يهز أرضها ، فبعد حدوث الزلزال بعشر ساعات وخمسة وعشرون دقيقة تختفى الجزيرة من الوجود وتظهر بعدها بثلاثين يوميا تقريبا في مكان آخر بعيد ، وفى مكانها الجديد

تظل ظاهرة مرئية للأقمار الصناعية وفرق الاستكشافات لمدة شهر ، ثم تختفي .

وأكمل ديفيد قائلا :

- منذ ثلاث سنوات ونحن نرصد حركة وموعد الزلزال بشواطئ المحيط الهادي شرق الولايات ، وتيقنا من هيئة مراقبة الزلازل والبراكين بواشنطن أن ثمة زلزال حدث في الساعة الواحدة ظهرا يوم الرابع عشر من أكتوبر المنصرم على عمق كبير بالمحيط الهادي ، وهذا يعنى أن الساعة الحادية عشرة وخمس وعشرون دقيقة مساء نفس يوم الزلازل اختفت الجزيرة وغادرت مكانها لتعود في الظهور بعد ثلاثين يوما .

قال ديفيد بعد أن التقط صورا بكاميرته للمحيط من زجاج قمرة القيادة :

- يوم الخامس عشر من الشهر الجاري أي بعد أيام يكون هو موعد ظهور الجزيرة ، وبحساب حركة ظهور الجزيرة كل عام فنتوقع ظهورها في الجنوب الشرقي الموازي لخليج المكسيك ،

وبالتحديد بعد دوامات new sow (نيو سو المحيطية) ، وهى دوامات متراصة يبلغ قطر الواحدة منها سبعين مترا ، وهى ثاني أكبر دوامات في العالم بعد دوامة old sow (أولد سو) الواقعة بين جزيرة deer island (دير أيلاند) و (جزيرة موسى) بكندا.

أصاب الدوار رأسي وتحسست صدغي ضاغطا عليهما وقلت :

- إذن كم فرصة وصولنا أحياء إلى الجزيرة ؟

قال هنري :

- اذا نجونا ونجحنا في عبور الدوامات أو وجدنا معبرا مائيا بين الدوامات المتراصة ستكون هناك فرصة مؤكدة للوصول إلى الجزيرة .

قال ديفيد بلا اكتراث وقد أشعل سيجارة ملونة باهظة الثمن دون أن يعطيني واحدة :

- الخطر الحقيقي هو عبور الدوامات المائية لان فرصة نجاحنا في عبورها لا يتجاوز ثلاثين بالمائة .

قلت :

- ما شاء الله ، جميل جدا أن تخبراني بكل هذه المعلومات البسيطة بعد إبحار عشر ساعات .

ثم أردفتُ في عصبية واضحة :

- لماذا لم تخبراني بكل هذه التفاصيل قبل الإبحار ؟

قال ديفيد :

- يا صديقي أنتَ قلتَ أنها معلومات بسيطة ، وأعتقد أنها ليست مفاجئة لمغامر عظيم مثلك.

طبعا هذا الأحمق لم يفهم سخريتي فقلت من فورى :

- هل لي أن أنسحب ؟

قال ديفيد :

- يمكنك الانسحاب شرط أن تدفع مائة ألف دولار الآن .

كنت أعلم طبعا أن التصويت سيكون لصالحهما فصمت .

ثم قال هنري ليهدئ الموقف :

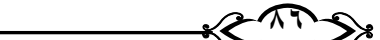

- يا عزيزي ، أخبرتنا أنك صارعتَ الدنيا كثيرا، ولم تنتصر عليها قط ، فإن فشلتْ المغامرة فلا ضرر أن تهزمك الدنيا مرة إضافية.

ثم أردف مشجعا :

- استحضرْ روح أجدادك الفراعنة الذين صنعوا المعجزات

يا للحماقة ، يظنني هذا الرجل أنني أتيت من أسرة الملك خوفو

قلت في استسلام :

- إن نجونا من الدوامات ، كم ساعة تفصلنا عن وصولنا للجزيرة ؟

قال ديفيد بعد أن ارتفعت السفينة مترين نتيجة لارتطامها بموجة عالية :

- ثلاث ساعات بسرعة خمسة وعشرين عقدة في الساعة

مرت ثلاثة أيام كاملة كنت أستيقظ صباحا أجلس معهم نتناقش في أمور الرحلة ، وفى كل مرة يفتح هنري مخطوطات ، وخرائط صفراء قديمة باهتة وأخرى زاهية ملونة ، ويتحدثان عن مخاطر المحيط ، فكنتُ أرتعش بينهما كورقة ، بينما هما يتحدثان في حماس وفخر، وعندما ينتهى الحديث يهرع هنري لأعلى السفينة حاملا كاميرته يلتقط صورا وفيديوهات للمحيط والأمواج والسماء، وكنتُ في المساء أقرأ في كتب قد جلبتها

من مصر، وأنام نوم متقطع بسبب حركة السفينة فوق الأمواج وبسبب عدم اعتيادي الإبحار .
وفى اليوم الرابع كانت الأمواج تكشر عن أنيابها فقال ديفيد مستاء :
- لقد خففتُ من سرعة السفينة ثلاث عشرة عقدة ، فأتوقع عاصفة صباح غد
قلتُ مرعوبا :
- عاصفة ؟!
قال ديفيد وهو يتناول سيجارة ويشعلها دون أن يعطني واحدة :
- نعم ، هذه أمور تحدث.
قال هنري :
- وما مدى خطورتها في توقعك ؟
أجاب ديفيد :
- لا أعرف لكن يمكنني أن أقول أنها ستكون خطيرة .
ابتلعت ريقي وذهبت إلى النوم .

وفى صباح اليوم الخامس استيقظتُ على عاصفة كانت ترج السفينة رجا ، وما إن خرجتُ مغمض العينين بسبب نومى المتقطع حتى وجدتُ عاصفة تكاد تقتلع جدران السفينة وهطلت الأمطار الغزيرة مما اضطر ديفيد لإيقاف السفينة ، ووجدته ينظر عبر منظار ضخم للأفق وللإمام ، وهنا ارتفعتْ موجة وارتطمتْ بجدران السفينة ، فمالت السفينة وكادتْ أن تنقلب ، وقبل أن تعود السفينة لموضعها الأول حطّت موجة أخرى داخل

السفينة كأنما شلال هبط علينا من جبل ، وجرت المياه داخل السفينة واهتزّت حركتها بشكل عشوائي ، وكنت متشبثا بسارٍ حديدي مرتفع من سواري السفينة فصاح هنري صارخا فيَّ وجهى وهو يحمل خرطوما متسعا :

- افعل شيئا ، أحضر ماكينة طرد ضخ المياه من ذيل السفينة.

فهرعتُ مترنحا مع حركة السفينة وجلبتُ هذه الماكينة وهى أشبه بماتور كهرباني ضخم له أربع عجلات، جررته خلفي بصعوبة ، وبعناء استطعتُ الوصول لطرف السفينة حيث يقف هنري الذى سرعان ما رمى الخرطوم المثبت بالماكينة على أرض السفينة ، وركّب بسرعة وخفة الخرطوم الثاني في مقدمة الماكينة وطلب منى أن اضغط على أحد أزرار الماكينة فضغطت وانطلقت الماكينة تهدر ، لتخرج المياه من أرضية السفينة إلى خارجها واستمرتْ الأمطار والعاصفة ثلاث ساعات كدنا فيها أن نهلك ، بينما كان ديفيد يقوم بتحريك إصبعه على جهاز مثبت في مقدمة السفينة حتى يدير السفينة بشكل يلائم الموجة القادمة حتى لا تغرق .

هدأتْ العاصفة وتوقفتْ الأمطار، فخرج ديفيد من قمرة القيادة وارتمى على ظهره ، ونظر هنري إلى السماء وقد تنفس الصعداء ، أما أنا فأخرجتُ من جيبي مصحفا صغيرا وبدأت اقرأ بعد ساعة كانت الماكينة طردتْ كل المياه الراكدة داخل السفينة وخلعنا ملابسنا نجففها وقال ديفيد وهو يخلع قميصه :

- لا يمكننا الإبحار إلا بعد عشر ساعات ، لابد من فحص كامل للمحرك والغرف السفلية.

بالفعل هبطنا جميعا للغرف السفلية وتفحصنا الجدران والأرضية والمحرك والمضخات ، وكنت أرافقهم رغم أنني لا أفهم في هذه الأمور، واسترحنا لمدة عشر ساعات ثم واصلنا الرحلة .

وفى صباح اليوم الخامس طلب هنري منا أن نجتمع وجلس ثلاثتنا ، وقال هنري :

- كان من المقرر أن نصل اليوم لولا العاصفة واستراحة الفحص.

قال ديفيد :

- أتوقع أن نصل منطقة الدوامات ظهر الغد .

دقّ قلبي بسرعة وقلت :

- وهل هي خطيرة ؟

أجاب هنري ضاحكا من جهلي :

- هذه المنطقة لم يدخلها بشر من قبل ، وحتى إن فشلنا في عبور الدوامات وعدنا فقد حققنا نجاحا سيبهر البشرية .

ثم نظر إلى الأفق حالما وقد ضيّق عينيه كثعلب ماكر وقال وهو يشير بيده :

- ثلاث رجال استطاعوا الوصول لدوامات (نيو سو) السحرية وقد وثّقوا رحلتهم هذه بالصور والفيديوهات

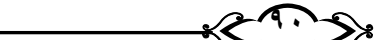

، سيكون عنوان الصفحة الأولى بجريدة (وال ستريت جورنال) و (واشنطن بوست) .

قلت ساخرا :

- وربما كان العنوان العثور على ثلاث جثث لمخابيل حاولوا الوصول لدوامات (نيو سو) .

قال ديفيد ضاحكا :

- احتمال جائز جدا .

قلت في جدية :

- لماذا يا هنري لا تعتقد أن وصولنا للدوامات نجاحا سيهز العالم ؟

أجاب في فخر :

- أولا لأن بشرا لم يأت هنا قط ، ثانيا وهو الأهم أن الولايات لا تمتلك أي خرائط لتحديد أماكن هذه الدوامات ، لكنني حددت مكانها بفضل خرائط كان يحتفظ بها أبى الذى ورثها عن جده ، وهى خرائط صينية تم تهريبها من معابد هندوسية قديمة وليست أمريكية.

أضاف ديفيد :

- سينبهر العالم عندما يعلم أن أول من اكتشف الدوامات والجزيرة المتحركة هم أمريكان .

ثم انتبه سريعا وقال :

- وصديقهم المصري .

قلت وماذا يفيد اكتشاف وجود أرض أخرى ؟

أجاب هنري :

- ستكون دراستنا التي أجريناها على مكان ظهور الجزيرة دراسات دقيقة وصحيحة ، ويمكننا التنبؤ بمكان ظهورها العام القادم وكل عام ، وأيضا سيدرس العلماء أسباب اختفاء الجزيرة كل عام وكيف تتحرك أصلا، ثم ما يدريك لعل بها يورانيوم أو ذهب أو معادن نادرة غير موجودة في أي مكان في العالم .

ثم نظر متحمسا وقال :

- أتوق شوقا لرؤية حيوانات وطيور وسكان هذه الجزيرة هل هم مثلنا وهل لهم عادات وثقافة !

ثم أضاف ديفيد :

- والسؤال الأهم : أين يذهبون حينما تنتقل الجزيرة من مكان إلى مكان ؟!

قلت :

- ألم تتحدث كتب الصين القديمة عن طبيعة أرض الجزيرة ؟

قال هنري :

- قامتْ فرقة الاستطلاعات الأمريكية الجوية عام ألف وتسعمائة وثمانين بمسح المنطقة رقم تسعة وستين ، فوجدتْ جزيرة عائمة في المحيط الهادي فالتقطوا لها الصور والفيديوهات ، وعند عودتهم وأثناء تفريغ الصور والفيديوهات لفحصها ودراستها لم يجدوا شيئا ، فقامتْ فرقة أخرى بالتحليق فوق نفس المنطقة لكنهم لم يجدوا الجزيرة .

قلت :
- ربما كانت هلوسة جماعية .
قال ديفيد وهو يشعل سيجارة دون أن يعطني واحدة :
- هذا ما سنثبته أو ننفيه في رحلتنا هذه .

في المساء أخرجتُ رواية مصرية وبدأتُ اقرأ ، وتمددت على سرير متأرجح مع حركة السفينة والأمواج ودعوت الله أن ينجينا من هول هذه المغامرة وأن يعيدني إلى وطني بسلام ولا اعلم لماذا تذكرت منال والسلسلة وخالتي نعيمة والأستاذ شوقي ثم ثقل جفناي ورحت في نوم متقطع .

وفى ظهر اليوم التالي هبّ ديفيد واقفا في قمرة القيادة وتصلبتْ يداه وتسمر مكانه ولمعتْ عيناه في ذهول ورعب وصرخ بصوت يبقظ أهل القبور :
- هنري ، فوزى ، انظرا ، إنها الدوامات .
فهرعنا أنا وهنري ونظرنا وكان ما رأيناه كابوسيا .

الفصل السابع

وجدنا ديفيد يصرخ في لهفة وحماس مناديا بأننا وصلنا الدوامات فنظرنا وكان ما رأيناه كابوسيا .

أخرج هنري من فوره كاميرته التي بحجم كف اليد وأخذ يلتقط مئات من الصور والفيديوهات وهو مبهور لامع العينين يقفز كأرنب صغير من مكان لآخر محاولا أن يجمع صورا من زوايا مختلفة ، أما أنا فبصرتُ مجموعة من الدوامات متراصة متلاصقة ، قطر الواحدة منها يفوق الستين مترا، والمياه تنزلق داخل كل دوامة بسرعة الشلال ، وكانت كل دوامة تبتلع كل ما يقترب منها من ماء وأمواج وعشب ، غير أن الحافة الدائرية التي تحيط بكل دوامة كانت تتلون باللون الأحمر ، ولأول مرة في حياتي أرى هذا المنظر العجيب ، أما حافة الدوامة الداخلية فتتلون باللون الرمادي القاتم ، وكنا بالكاد لا نرى عمق الدوامة لان ديفيد ثبّت السفينة على مسافة بعيدة من تلك الدوامات ، حتى لا ننجرف إليها فتبلعنا، ونظرة واحدة لذلك المنظر العجيب كفيلة بأن تنزع قلبك من صدرك وتزلزل كيانك من الرعب والرهبة ، كنت مبهور الأنفاس فاتحا فمي أرتجف كورقة شجر وقلتُ في نفسي :

- مَنْ المجنون الذي تسول له نفسه الاقتراب من تلك الدوامات ؟

لكنى رأيت ديفيد يشير بيده شمالا وجنوبا وهو يقول :

- انظرا ، الدوامات تمتد شمالا وجنوبا لمسافات طويلة ، وأعتقد العبور مستحيل وعلينا الانسحاب ، لكن لابد من تصويت فما رأيكما ؟

نظرتُ كما أشار ديفيد فوجدتُ أن الدوامات تمتد فعلا على مرمى البصر، دوامة بجوارها دوامة إلى أن ينتهى بصرك ، وهنا توقف هنري عن التقاط الصور وتصوير الفيديوهات وقال :

- سنعقد اجتماعا قصيرا لكنه سيكون مصيريا ، بعده نجرى تصويتا ولنبدأ الآن اجتماعنا .

هذا ما كان ينقصني فعلا ، كيف تورطتُ مع هذين المخبولين ، نحن على حافة الموت وهو يريد عقد اجتماعا، سمعته يقول :

- يجب أن نجد طريقة آمنة للعبور وأعتقد أن وجود معبر آمن بين تلك الدوامات هو مستحيل ، غير أن الدوامات تضيق وتتسع بطريقة عشوائية ، وإذا اتسعتْ الدوامة ضاق المعبر والعكس .

قلت :

- تقصد أنه لا يمكننا العبور حتى إن وجدنا معبرا مناسبا يسمح بمرور السفينة .

أجاب ديفيد :

- في ظني أن العبور مستحيل، وأخشى أن نبدأ في العبور فتتسع الدوامة ومن ثم يضيق بنا المعبر فنهلك جميعا .

قال هنري :

- وماذا لو أبحرنا شمالا أو جنوبا في خط موازى للدوامات ربما ينتهى وجود الدوامات في مكان ما .

قال ديفيد وقد أشعل سيجارة ملونة تمنيت أن أجربها :

- يا صديقي الدوامات تمتد مد البصر، والإبحار شمالا سيبعدنا عن خط التوازي مع خليج المكسيك ويضيع وقتنا وجهدنا بلا طائل .

قلت وقد لاحت لي فكرة :

- قطر الدوامة يتراوح بين الستين والسبعين مترا وسفينتنا يمكنها الإبحار بسرعة ٣٠ عقدة يمكننا أن نخفف حمل السفينة ونزيد السرعة .

قال ديفيد وهو ينفس دخان سيجارته بلذة بينما أنا أغلى غيظا :

- إلام ترمى ؟

قلت :

- يمكننا عبور المعبر بين دوامتين في دقائق لو خففنا الحمل وأبحرنا بسرعة تقارب سرعة اللانش .

نظر إلى هنري منبهرا وقال :

- لطالما سألت نفسى كيف نقل أجدادك الفراعنة أحجار الأهرامات ، وشيدوا هذا الصرح العملاق ، هم أذكياء وأنت الآن تفكر بعقلهم ، لذا سنجرب خطتك لكن بعد موافقة ديفيد ، لأنه سيكون المسئول الأول والأخير عن تنفيذها .

نظرنا أنا وهنري إلى ديفيد الذى قال محتقن الوجه :

- يمكنني تنفيذها لكن هل من توضيح للخطة أيها المصري ؟

قلت :

- نراقب الدوامات وحركتها التي تضيق وتتسع وننتظر حتى يضيق قطر دوامة ما ، وقتها يتسع المعبر وتستقر أمواجه ، ثم نمرق بسرعة البرق وبعد دقائق نكون قد وصلنا حتى لو ضاق المعبر .

قال هنري مسرعا :

الآن تبدأ المغامرة الحقيقة وإما نجحنا أو هلكنا ، لكن لابد من تصويت قبل هذا القرار المصيري.

وتم التصويت ووافق ثلاثتنا على العبور بهذه الخطة ، وقررنا العبور بعد استراحة ساعتين .

وبعد ساعتين بدأنا التنفيذ وكان علينا مراقبة خمس دوامات وما يتخللها من معابر، فثبت ديفيد السفينة أمام معبر واخذ يراقبه ، بينما كنت أراقب أنا معبرين من الناحية الجنوبية من خلال منظار يقرب الرؤية ، وتولّى هنري مراقبة معبرين بمنظاره في الناحية الشمالية ، ومرت أربع ساعات كاملة من المراقبة وشد الأعصاب والملل ، حتى رأيت عبر منظاري دوامة يضيق قطرها مما سمح للمعبر المجاور لان يتسع أكثر فأكثر، هنا هتفتُ إليهما :

- انظرا .

انتفض الاثنان وراح هنري يراقب بمنظاره المعبر المتسع بالناحية الجنوبية بينما جذب ديفيد منى منظاري وهتف قائلا :

- استعدا ، سنعبر الآن بسرعة اثنين وثلاثين عقدة أما نجحنا أو هلكنا .

قال هنري وهو يبتلع ريقه :

- ديفيد هل أنت متأكد أن المعبر متسع مستقر الأمواج ؟

أجاب ديفيد وهو ينطلق بالسفين ويزيد من سرعتها :

- متأكد من شيء واحد ، إن لم نعبر الآن لن نعبر أبدا.

دخلنا المعبر وصرنا بين دوامتين عملاقتين تبدو الواحدة منهما كفم ديناصور عملاق ، الدوامة الشمالية تبعد عنا سبع عشرة مترا ، بينما الجنوبية تبعد عشرين مترا ، وكنتُ أضع كفى على عيني متحاشيا النظر وهنري يقفز بحماسه بكاميرته يمينا ويسارا ، وعندما اهتزّت السفينة أشحتُ بيدي بعيدا عن عيني ، فرأيت أننا نجحنا، وبقى متران ونترك الدوامات خلفنا ، فابتسمت في لذة وفجأة اتسعت الدوامة الشمالية ، وابتلعتُ المعبر فهوتْ السفينة داخل الدوامة ، ونظرتُ إلى ديفيد وجدته ارتطم بوجهه في مقدمة قمرة القيادة وفقد الوعي ، بينما تهوى السفينة للأسفل وسط هذا الشلال ، ورأيت هنري وقد طار في الهواء ثلاثين كيلوا مترا وسقط على ظهره وارتطمتْ ساقه اليسري بسارِ حديدي ، هنا بدأتُ أتمتم بالدعاء وتلوتُ الشهادتين وسَقطت قدمي وبدأت أفقد الوعي وساد الظلام .

لم أعرف كم مرّ من الوقت عندما عاد لي وعىّ ، لكنني شعرتُ بيد تهزني كانت يد ديفيد وعلى وجهه ضمادة طبية وبجواره

هنري الذى يتحسس قدمه اليسرى في ألم ، فتشتُ في جسدي فلم أجد كسورا أو جروحا إلا دغدغة خفيفة في أوصالي فحمدت الله ونهضت ، كنا في السفينة طبعا ، وحركة الأمواج مستقرة وظللنا صامتين لوقت طويل ، لم ينطق أحدنا بكلمة فوقفنا نطل على البحر دون كلام ، ولما طال الصمت تبدلنا النظرات وكان كل منا يخشى أن يبدأ بالسؤال الذى يدور بأذهاننا ، ثم قلتُ عندما رأيتُ أننا أمام الدوامات :

- ألم نعبر ؟

قال ديفيد :

- لم نعبر ، كأن شيطانا أخرج السفينة من الدوامة وأعادها موضوعها الأول

قال هنري متحسسا ساقه اليسرى :

- انظرا، نحن رجعنا فعلا لموضعنا السابق ، ما زلنا أمام الدوامات كأننا لم ندخل المعبر من الأساس .

قلت :

ربما عبرنا الدوامات ووصلنا إلى دوامات جديدة .

قال هنري :

لا اعتقد ذلك ، لو عبرنا الدوامات فلابد أن نراها خلف ظهورنا ، وكيف عادتْ السفينة من قاع الدوامة إلى سطح المحيط ؟

سألت ديفيد :

- يمكنك تحديد موقعنا واتجاهنا بجهاز البوصلة .

أجاب ديفيد :

لقد تحطم مع ما تحطم .

قلت :

- إن استطعنا تحديد موقعنا واتجاهنا لعرفنا هل عبرنا فعلا أما لا ، فربما لم ندخل الممر أصلا وكان عبورنا وسقوطنا في الدوامة هلوسة جماعية.

قال ديفيد :

- إن كنا نهلوس بدخول المعبر والسقوط في الدوامة فلماذا أصبنا ، ولماذا تحطم جهاز الوصلة ؟!

قلت :

- على أي حال لو أننا الآن شرق الدوامات فنحن لم نعبر ، أما إن كنا غرب الدوامات فمعناه أننا عبرنا .

قال هنري :

- اقترح أن ننتظر ثلاث ساعات حتى تغرب الشمس ، ومن حركتها سنعرف هل نحن غرب الدوامات أم شرقها .

وغربت الشمس وكنا نراقب حركة الشمس ، وحركة ظل السفينة ثم هتف ديفيد :

- نحن الآن غرب الدوامات، أقسم لكما أننا عبرنا، هيا فلنجعل الدوامات خلفنا ونبحر نحو الجزيرة تاركين هذه المنطقة اللعينة قبل أن نصاب بالخبال .

قال جملته الأخيرة وهو يعيد اتجاه السفينة نحو الغرب ، قال هنري سائلا :

- متى سنصل الجزيرة في تقديرك ؟

أجاب ديفيد :

- يمكنني الإبحار بسرعة سبعة عشرة عقدة فقط لذلك سنصل ربما بعد سبع ساعات أو اقل قليلا .

ثم أضاف :

- أي في منتصف الليل .

وبعد ساعات من الترقب والخوف وحبس الأنفاس بدت لنا بقعة مظلمة يظهر منها نور خافت من بعيد، فأضاء ديفيد الكشافات العملاقة بعيدة المدى بأعلى السفينة وقام بتوجيهها ناحية البقعة السوداء التي نقترب منها شيئا فشيئا، ولم تكن البقعة السوداء سوى الجزيرة .

الفصل الثامن

وصلنا الجزيرة في ظلمة الليل ، لا نرى شيئا إلا ضوء نجوم تظهر وتختفى خلف سحب عائمة ، ولا نسمع إلا صوت الأمواج القريبة كأنها حبيس يزمجر، وأفق واسع فارغ ، وكل ما حولنا يوحى بالرهبة والخوف ، ذلك الخوف من المجهول القريب ، كان الجو معتدلا منعشا على غير توقعي ، توغلنا للداخل بعد أن أولينا البحر ظهورنا قرابة عشرات الأمتار حاملين ما استطعنا حمله من متاع يُحمل ، وحقائب وأدوية وأجهزة خفيفة مثل : الكشافات ، والكاميرا ، وبدتْ لنا عن كثب أشجار عملاقة ، صف ممتد من الأشجار شبه المتلاصقة هائلة الجزع والساق ، يصل قطر ساق الواحدة منها مترا تقريبا وبين كل شجرة وأخرى فرجة قريبة لا تسمح بمرور إنسان نحيف ، والأشجار طويلة مرتفعة متشابكة الأغصان ، درنا مع الأشجار كي نجد فرجة متسعة نلج من خلالها إلى داخل الجزيرة فلم نجد ، واكتشفنا بعد ساعتين من السير أن هذه الأشجار زُرعت بهذا الشكل المنظم الدقيق كي تقوم بدور سور حول الجزيرة ليحميها ، واقترحنا أن يحاول أكثرنا نحافة المرور في فرجة ما ، وكنتُ أنا هذا الأهبل ، لأني أنحف الثلاثة ، اقتربتُ من فرجة بين شجرتين عملاقتين ، وقبل أن أمد قدمي خطوة أخرى للأمام هبط ثعبان بشع المنظر أمامي ، في الحقيقة هو لم يهبط ولكن

تدلى برأسه ، بينما يثبت ذيله بالأعلى عند غصن الشجرة ، وفتح فمه مكشرا عن أنيابه أمام هذا الفضولي الذى أراد إيقاظه من راحته ، وكاد أن يقترب من وجهى وتوقف عقلي عن التفكير فتسمرت مكاني ، وفى جزء من الثانية شدّني ديفيد للخلف ، فطرتُ مترين للخلف وارتميتُ على الأرض وعدت أنظر، فوجدتُ هذا الشيء البشع ينشب أنيابه في المكان الذى كنت أقف فيه ، ثم تراجع للأعلى حينما فشل في التهامي ، تنفسنا الصعداء وسرنا بعض الأمتار لنكرر المحاولة ، توقفنا أمام فرجة أخرى ظننا أنها متسعة فتقدمت في حذر وبطء لكنى سمعت ديفيد يقول :

- توقف يا فوزى .

ثم أشار بيده لأعلى الشجرة بينما يسلط ضوء كشافه على الغصن المتشابك الأخضر القاتم وقال :

- ثعبان آخر على غصن هذه الشجرة .

وهنا بدأتُ أفهم بعد أن بات الأمر جليا فقلت :

- إن هذه الأشجار هي سور الحماية للجزيرة ولن ننجح .

ثم قال هنري بعد أن فهم ما يدور بعقلي :

- ولما كانت هذه الأشجار غير كافية لحماية الجزيرة ، فقد تكفل كل ثعبان ضخم بحراسة شجرة ، وعلينا أن نتوقع أن كل شجرة يسكنها ثعبان .

هتف ديفيد في إعجاب لا يخلو من رهبة :

- إنها عبقرية فعلا ، لكن أحجام هذه الثعابين مبالغ فيها .

قلت في جهل :

- ماذا تقصد ؟

قال :

- بكل بساطة هذه الثعابين مسحورة .

بدا لي هذا الاستنتاج غريبا .

قال هنري :

- لديّ حيلة لنتأكد من صحة ما تقول .

ثم أخرج من حقيبته مسدسا يلمع في ضوء الكشاف وأشار لكلينا أن نقترب، واقتربنا أنا وديفيد في حذر يشوبه خوف وارتباك ، وما كدنا نلمس الشجرة حتى قفز ثعبان متدليا بفمه المفتوح نحون ا، وكان هنري قد اتخذ وضع التصويب وأطلق رصاصة موفقة وعاد يسلط ضوء الكشاف أكثر فأكثر فرأينا الثعبان وقد اخترقتْ الرصاصة أسفل رأسه وأحدثتْ فجوة ، لكنها سرعان ما التأمت أمام عيوننا الذاهلة ، وعاد يصدر الثعبان فحيحا مخيفا ورجع إلى موضعه الأول بين أغصان الشجرة .

كنا لا نصدق ما نرى وتبادلنا النظرات في توجس لكنني قلت :

- يبدو إننا ارتكبنا حماقة ، فلو سمع أحد صوت الرصاص لعَرفَ بوجودنا وصرنا في عداد الموتى .

قال ديفيد وهو يحك رأسه :

- ربما هذه الجزيرة الملعونة لا يسكنها سوى الثعابين .

ثم أضاف هامسا وهو يحاول إخفاء رجفته :

- وربما تسكنها أرواح شريرة .

كنا في حاجة للراحة والتفكير ودراسة الموقف ، فاقترح هنري أن نستريح حتى طلوع ضوء الفجر، واتفقنا أن يتولى واحد منا نوبة الحراسة بالمسدس كل ساعة ، حتى لا يداهمنا أحد الثعابين إذا ما نمنا جميعا .

وبعد ثلاث ساعات كنت في نوبة حراستي أحمل في يدى مسدس هنري اللامع ، ولم يفارقني الرعب والتوجس حتى غمرنا ضوء الفجر فأيقظتهما وتناولنا إفطارا وشربنا عصائر معلبة كنا قد جلبناها معنا من السفينة مع ما حملناه من حقائب وأمتعة .

بعد الإفطار بساعة قال هنري، وهو يتلقط الصور للأشجار والثعابين التي بدتْ واضحة بين الأغصان :

- إن دخولنا الجزيرة أمر مستحيل في وجود هذه الثعابين المسحورة .

قلت في سخرية :

- معلومة ثمينة فعلا يا هنري .

قال ديفيد بعدما فتح علبة سجائره وأخرج سيجارة واحدة أشعلها وأعاد العلبة لجيبه كأنه يغيظني :

- لا أحبذ فكرة الانسحاب لو تفكران في هذا .

هممتُ أن أقول شيئا ، لكن الكلمات توقفتْ خلف لساني وعادت إلى حلقى حينما رأيتُ من بعيد مجموعة من الناس وكإنو بالطبع خارج سور الأشجار مثلنا ، فأشرت لرفيقيّ وقلتُ مشيرا :

- انظرا .

توجهنا من فورنا إليهم وكانوا بشرا كما توقعنا ، رجلا ونساء وأطفال يرتدون ملابس مختلفة الألوان والطراز، يحملون أمتعتهم كأنهم في محطة قطار ، وما أثار انتباهنا انهم كانوا يصطفون في صف طويل جدا فوقفنا في نهاية الصف .

كان الرجل الذى أمامنا في الصف عجوزا محمر الوجه له شارب مصفر منمق يمسك بيده اليمنى بيد طفل في التاسعة وبيده اليسرى حقيبة جلدية متوسطة الحجم.

قال ديفيد للرجل لأنه كان يقف أمامنا وخلف الرجل مباشرة :

- هل لابد من الوقوف في الصف ؟

أجاب الرجل دون أن ينظر لنا :

- إن كنت تنوى الدخول للجزيرة .

سأل ديفيد :

- هل الدخول هنا بتذكرة أو ما شابه ؟

هنا نظر إلينا الرجل بعينين غائرتين ثابتتين وقال ضاحكا بسخرية :

- تذكرة ! يا لك من معتوه !

ثم أردف بعد أن نظر للأمام :

- يبدو أن رحلة العودة قد أثّرتْ على أعصابك وذاكرتك .

قلت في كياسة :

- سيدى ، كانت الرحلة طويلة وكدنا نهلك ، واعذرنا على ضعف الذاكرة وانفلات الأعصاب ، لكن هل من تفسير ؟

أجاب الرجل وهو يتقدم للأمام خطوة مع حركة الطابور فتقدمنا خلفه بدورنا:

- من وجوهكم المذعورة علمت أن الرحلة قد أضعفت ذاكرتكم ، ولكن لم أتوقع أن تصيروا بهذا الخبال .

طبعا نحن لا نفهم ، لكن نحاول أن نحصل منه على أي معلومة ، وكنتُ على استعداد أن أجاريه وأوافق على ما يقول حتى لو أنشد لي أغنية لعبدالحليم حافظ سأصفق منبهرا وأقول له مشجعا :

- يا سلام .

كنا فعلا في حاجة لمعرفة كيفية الدخول .

تقدم الرجل خطوة للأمام وقال :

- أنا وحفيدي جئنا عبرة الثغرة ، كنا في أستراليا لكن سافرنا طويلا طويلا كي نجد ثغرة تعيدنا إلى هن ا، المحظوظون فقط هم من تلقي بهم الثغرة داخل سور الجزيرة ، أما التعساء مثلنا فلابد من عبور باب الحراسة .

ثم سأل :

- كيف جئتم ؟

قال هنري وكان يقف خلفي وفى آخر الصف :

- عبر البحر

وشعرتُ أن الإجابة تحتاج إلى إضافة فقلت مسرعا :

- أبحرنا ستة أيام .

قال الرجل :

- فعلا مخابيل ، لماذا لم تبحثوا عن ثغرة ، إن العودة عبر الثغرة لا تستغرق أكثر من خمس دقائق .

ثم صمتَ كأنه يتذكر شيئا وقال :

- غريبة أن تعرفوا مكان الجزيرة وتأتون بالبحر، لابد أنكم من رتبة السحرة

ثم نظر إلينا مرة أخرى، وتفحص وجوهنا بعينيه الذابلتين وقال :

- أعرف الآن سر ضعيف ذاكرتكم ، إنه دوار البحر ومشقة السفر، لا أراكم من الدخلاء ، ولا أعتقد ذلك ، لهذا سوف أوضح لكم الأمر ريثما تنشيط ذاكرتكم.

ثم تقدم خطوة مع حركة الطابور، ووضع حقيبته على الأرض ليستريح من عناء حملها قليلا ثم أردف :

- عندما يحدث زلزال في الجزيرة وما إن ينتهى حتى يجتمع الراغبون في السفر ونطلق عليهم (الطيور) يجتمعون في منطقة الأصنام والآبار ، وتقف كبيرة السحرة لتشهد هذا الحدث العظيم ويقفز (الطيور) في والآبار الثلاثة ، وما هي إلا دقائق حتى يجد المسافر نفسه في أرض العالم الثاني عالم الأشرار ، حين سافرتُ مع حفيدي قذفني البئر في مكان لا أعرفه وانتقلت منه إلى أستراليا ، والذي يعبر الثغرة يعيش هناك حياة جديدة دون أن يتقدم به العمر مهما عاش ، وحين يمل المكوث بين عالم الأشرار عليه أن يبحث عن ثغرة ليستطيع العودة للجزيرة ، وأنا شخصيا

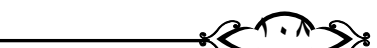

استغرقتُ عشر سنوات بحثا في البلاد كي أجد ثغرة أعود من خلالها إلى هنا.

تبادلنا النظرات فيما بيننا في عجب وذهول، وسأل ديفيد :

- تقول يعيش دون أن يتقدم به العمر ؟!

قال الرجل :

- نعم ، إذا سافر أحد سكان الجزيرة إلى عالم الأشرار يستطيع أن يعيش مئات السنين دون أن يتقدم به العمر يوما واحدا، ويعود إلى الجزيرة وهو في نفس العمر الذى رحل فيه ، وأنا لا أحب السفر، وأحب حياة الجزيرة كثيرا ، لكنني وبعد أن تجاوزت الخامسة والستين شعرت بأن عمرى اقترب خفتُ الموت ، فسافرتُ عبر بئر إثر حدوث أحد الزلازل ، ورماني بئر الأصنام في بلد غريبة ، وعشتُ في أستراليا وتنقلتُ إلى دول أخرى حتى ثلاثمائة عام ، وها أنا الآن أعود في نفس العمر الذى غادرت فيه الجزيرة .

وتوقف عن الكلام حين تقدم خطوة ، فوجدنا أنفسنا نتقدم خلفه في خوف وعجب ، وكنا قد اقتربنا من باب الجزيرة ، كانت بوابة حديدة متسعة شاهقة الارتفاع منقوش عليها نقوش لأصنام وثعابين ضخمة، ورأيت مجموعة من الجنود يرتدون ملابس عسكرية غريبة الشكل مرسوم عليها ثعابين ويضعون على رءوسهم قبعات مصنوعة من القش ، نظرنا خلفنا فوجدنا عددا جديدا من الناس اصطفوا في نظام ، ولا أعلم من أين أتى

هؤلاء الناس الذين انضموا مجددا للصف، هنا سأل ديفيد في حنق :

- وهل لابد أن نملك مالا من اجل الدخول ؟

همس الرجل قائلا :

يسألك الجندي سؤالين، أولها عن كلمة السر الأولى فتنطق اسمك بالمقلوب، وكلمة السر الثانية فـ....

هنا نادى الجندي على محدثنا وقد أخذنا الحديث، فتقدم العجوز وخلا الصف من أمامنا ، وشعرت إننا وقعنا في فخ ، ولابد من الهروب ، فقمتُ بسرعة وخفة بسحب ديفيد وهنري وتقهقرت للخلف بعد أن خرجنا من الصف وتركنا مكاننا في الصف خاليا ، قال هنري وانا أشده خلفي كبقرة :

- لماذا تجرنا هكذا ؟

قلت بعد أن وقفنا في آخر الطابور لاهثين :

- لم يخبرنا الرجل بكلمة السر الثانية ، كيف غاب عنكما هذا ؟!

أجاب هنري :

- أنا أشك أصلا في رجاحة عقل هذا العجوز المخرف .

قال ديفيد :

علينا أن نصدق كل شيء ولا نعجب من أي شيء حتى لو بدا لنا غريبا .

وصمتَ برهة ثم أردف في سخرية واضحة :

- جزيرة سورها أشجار تحرسه الثعابين المسحورة ، علينا ألا نعجب من شيء .

قلت في جدية :

- رأيتما كيف تحدث الرجل عن الدخلاء ، وغاب عنه أننا فعلا دخلاء بعد ما ظن بحمقه أننا ضعاف الذاكرة وكان هذا من حسن حظنا .

قال هنري في حمق :

- ماذا تقصد ؟

قلت :

- أقصد أنه بدون معرفة كلمة السر الثانية فلن ندخل الجزيرة .

أضاف ديفيد ساخرا :

- هذا ليس أسوأ ما قد يحدث ، فلربما قطعونا آذاننا أو طبخونا لأطفالهم .

نظرتْ نحونا الفتاة التي تقف أمامي في الصف وقالتْ :

- إن أهل الجزيرة لا يطبخون الدخلاء أيها الدخلاء .

هنا وضعتُ يدي على صدري أتحسس قلبي بعدما ظننت أنه تركني وغادر، وأصابتني رِعشة في أوصالي ، فنظرت خلفي فوجدتهما يرتعشان، لقد كُشفَ أمرنا وسوف توشي بنا هذه الماكرة التي سمعت حديثنا وعلينا الهروب ، وشعرتُ بيد ديفيد على ظهري يجرني للهروب ، لكن الفتاة نظرتْ إلىّ مرة أخرى وقالت وهى تغمز بإحدى عينيها :

- كلنا دخلاء في هذه الأيام يا حبيب القلب .

حبيب القلب! هل وقعتْ الفتاة في حبي ، ثم تذكرتُ أنني لا أملك ذلك السحر الرجولي لتهيم بي حبا من نظرتها الأولى ، والأجدر هنا أن تهيم بهنري هو أكثرنا وسامة أو ديفيد أو حتى ثعبان من ثعابين الشجرة ، فإن لم يروق لها الثعبان عندها فقط قد تهيم بي غراما ، وكانت يد ديفيد مازالتْ على كتفي حين رأيت الفتاة تغمز مرة أخرى وتقول :

- كلمة السر الثانية هي إجابة لسؤال من أربعة أسئلة (اسم أول حاكم للجزيرة - أو اسم زوجته - أو اسم ابنته - أو اسم أكبر صنم في المدينة ؟)

قلت في غباء وشعرتُ بيد ديفيد تتراخى فوق كتفي :

- وهل تعرفين الإجابة ؟

أخرجتْ من حقيبتها الصغيرة الأنيقة ورقة وقالت :

- ماذا تظنني يا نن العين ؟

فهمتُ وقتها أن (حبيب القلب و نن العين) هي مجرد لازمة كلامية تعودتْ عليها ليس أكثر، ورأيتها تمد يدها بالورقة وتقول :

- يمكنكم حفظ الإجابات ، فمازال لديكم متسع من الوقت .

جذبتُ منها الورقة بسرعة وأنا أقول :

- وهل أنت دخيلة ؟

قالتْ وهى تتقدم خطوة للأمام :

- ظننتُ هذا مفهوما يا حبوب .

انتحينا بعيدا عن أعين الفضولين نحفظ الإجابات ، وعندما عدنا للطابور بعد نصف ساعة ، وجدنا أن عددا لا بأس به انضم مؤخرا للصف ففصلنا عن الفتاة التي صرنا لا نراها .

كنت الأخير في الصف هذه المرة ومن أمامي ديفيد ومن أمامه هنري ، وبعد ساعة أشار الجندي لهنري فتقدم الثاني عشرة أمتار وحين هم ديفيد للتقدم خلفه منعه الجندي الآخر حتى لا يسمع الأسئلة ، وبعد دقائق كان هنري داخل الجزيرة ، تنفسنا الصعداء وأشار الجندي لديفيد فتقدم ولم أتقدم أنا، وبعد دقائق دلف ديفيد لداخل الجزيرة، دقّ قلبي بسرعة حينما سمعتُ الجندي يشير نحوى بصوته المرتفع :

- أنت ، تقدم .

وقفتُ أمام الجندي الذي قال :

- ما اسمك ؟

قلت :

- فوزي .

قال :

- كلمة السر الأولى هي ؟

فكرت كيف ينطق اسم فوزى بالمقلوب رغم أني تدربت على هذا عشرات المرات في سري فقلت :

- يزوف .

- قال : كلمة السر الثانية ، ما اسم زوجة أول ملك حكم الجزيرة ؟

قلت :

- مارتينا .

أخرج الجندي الذي يقف خلفه سيفه وتقدم نحوى ، فقال الجندي الأول :

- هذا اسم ابنته ، سألتك عن اسم زوجته .

قلتُ في ارتباك ظاهر :

- نعم اسمها ازيدورا ، نعم ازيدورا ومعذرة أصابني دوار مفاجئ و...

قاطعني قائلا بحدة :

- اخرسْ ، تقدم للمرور .

ودخلتُ الجزيرة .

هنا وجدتُ أمامي ديفيد وهنري وقبل أن أتكلم قال ديفيد :

- يا لحماقة هؤلاء ! مازال ثمة إجراء آخر .

وقبل أن أتحدت جذبني أحد الجنود وقال :

- هل تجيد السحر ؟

ووقعتُ في ربكة بين الإثبات والنفي لكنني قلت :

- لا .

- قال : إذن أنت من الرتبة (ش) .

ووضع يدي اليسرى على ماكينة غريبة فشعرت بلسعة وألم وعندما انتهى وجدتُ مطبوعا عليها (٧٥ ش) .

كان قد أجرى هذا مع هنري لأنى رأيت يده وقد طبع على يده (٧٣ ش)
أما ديفيد فكان وشم يده (٧٤ ش) .
هنا بدأت أفهم لماذا سميت الجزيرة بجزيرة الوشم ، لكنى لا أعرف ما تعنيه الرتبة (ش) .

نظر كل منا إلى وشم يده في تعجب كنا وقتها قد اجتزنا البوابة ونقف في مدخل متسع ينتهى إلى بهو واسع ، همستُ إليهما في حذر :

- لا أسئلة ، فإن الأسئلة تكشف أمرنا، تصرفا على أن كل شيء يبدو طبيعيا حتى نجد تفسيرا لكل هذا السخف لاحقا .

وقتها كان الجندي الذى سألنا عن السحر يسأل رجلا أنيقا نفس السؤال :

- هل تجيد السحر ؟

قال الرجل الأنيق :

- نعم .

هنا غمز لي ديفيد وبدأنا نراقب الموقف ، قال الجندي :

- آها تجيد السحر إذن اثبت لنا ذلك .

فأشار الرجل الأنيق إلى جندي آخر كان يقف بمقربة منا ، فتحول الجندي المشار إليه إلى بومة سوداء مخيفة الشكل ،

نعم بومة بشحمها ولحمها تنظر اللي الواقفين بعينين دائرتين حادتين .
قال الجندي :
- أحسنت سيدى ، هلا أعدته لسيرته الأولى.
فأشار الرجل الأنيق إلى البومة فعادت إلى جندي.
أصابنا الذهول ، فغمزتُ بإحدى عينيّ لرفيقيّ حتى لا يلحظ الجنود دهشتنا ورأينا الجندي ينحني أمام الرجل الأنيق في إجلال وأمسك يد الثاني برفق ووضعها على الماكينة التي تنقش الوشم ، ولم يتألم الرجل الأنيق كما تألمنا ثم أخرج يده من الماكينة فلمحتها بطرف عيني وقد نُقش عليها (٣ س)
- إذن هو من رتبة غير رتبتنا .
هكذا حدثتُ نفسي وحمدتُ الله أن أحدنا لم يدّعِ أنه يعرف السحر .
اجتزنا المدخل ووصلنا إلى بهو متسع يزدحم بالعربات والتجار والبائعين والمنتظرين ذويهم العائدين إلى الجزيرة ، وقبل أن نتحرك جانبا إلى أحد الشوارع رأينا الفتاة ، الفتاة الدخيلة التي كانت تقف أمامنا في الصف خارج سور الجزيرة.

الفصل التاسع

وجدنا الفتاة الدخيلة في الباحة الواسعة تحمل بين يديها كاميرا صغيرة أنيقة تلتقط صورا للعربات والبهو والشوارع القريبة والأشجار وكل شيء ، غير أنها تلتقط تلك الصور خلسة كأنها تخشى أن يراها أحدهم ، قلت بعدما دنونا منها :

- مرحبا ، ونود أن نشكرك على ....

قاطعتني في مرح :

- مرحبا حبايبي ، أين تنون الإقامة ؟

قال هنري :

- في فندق .

قالت :

- لا أظن أن الجزيرة من الأماكن التي تجد بها فندقا .

سأل ديفيد :

- وأين تنوين أنت الإقامة ؟

هزتْ كتفيها كمن لا يعرف الإجابة وقالتْ :

- يمكننا البحث معا .

وسرنا قليلا حتى شارع نظيف تحيطه الأشجار ، وسألنا أحد المارة عن مكان للمبيت، فأشار الرجل إلى العربة قائلا :

- هذه العربة تذهب إلى حانة القمر، وهى حانة مريحة نظيفة رخيصة تقدم طعاما جيدا وخمرا معتقا، والعربة التي أشار إليها الرجل كانت خشبية قديمة يجرها حصان عجوز هذيل مكتظة بالركاب رجال ونساء فتجاوزناها إلى عربة أخرى أنيقة ملونة باللون الأحمر يقف أمامها حصانان قويان وعندما بدأنا في ركوب العربة نهرنا سائقها بشدة قائلا :
- من الرتبة (ش) وتريدون ركوب عربات الرتبة (س) يا لكم من معاتيه

تراجعنا للخلف وعدنا إلى العربية المكتظة بالركاب ، وانطلق بنا السائق الذى أخذ يطلق صفيرا عاليا بينما يتسامر الركاب يتحدثون عن العائدين، وأدهشني فعلا جمال الجزيرة وما بها من نظام وأشجار وزهور ونقوش فلا يخلو مكان من الأشجار، ولا بيت من مساحة خضراء أمامه ، حتى وقع نظري على مجموعة من الرجال في الشارع ينظفون الطريق، وفى يد كل واحد منهم مكنسة وعلى رأسه قبعة فقال السائق :

- تستعد الجزيرة ليوم الاختفاء .

يوم الاختفاء !

تبادلنا النظرات في حذر لكن لم يجرأ أحدنا أن يسأل سؤالا يدور بعقولنا واقترب هنري من أذني وهمس :

لو سألناه لارتاب الرجل في أمرنا، كنتَ على حق عندما قلتَ لا أسئلة.

بعد نصف ساعة توقف السائق أمام بناية عالية ملونة فخمة ، وقال :

- حانة القمر.

فنزلنا وحملنا أمتعتنا واجتزنا سور البناية المزخرف بتماثيل ، ورسومات الثعابين ، رأينا رجلا سمينا يغالب النعاس رغم أننا في منتصف النهار، ولما انتبه لقدومنا ابتسم فظهرت أسنانه المتآكلة وقال :

- مبيت ليلة للرتبة (ش) بدولار، وللرتبة (س) بنصف دولار شاملة الطعام.

بدا لي العرض مغريا جدا ، قال السمين :

- كم ليلة تنون المبيت ؟

أجابت الفتاة :

- أنا ليلة واحدة .

وقال هنري :

ونحن إقامة مفتوحة .

ابتسم السمين وطلب إبراز أوشمة أيدينا ففعلنا ، وأشار لصبى اقتادنا إلى الطابق الثالث وقال :

- الحجرة ذات ثلاثة أسرة لكم .

وأكمل محدثا الفتاة ومشيرا إلى باب غرفة مجاورة :

- والحجرة ذات سرير واحد لكِ سيدتي .

وما إن دخلنا الحجرة وأوصد الباب من خلفنا ، حتى ألقى كل منا بجسده على فراشه ، ولذنا بصمت طويل وغبتُ في ثبات عميق .

استيقظتُ قبل غروب الشمس ووجدتُ رفيقيّ مازالا غارقين في النوم فأيقظتهما، وطرق الصبى باب الحجرة ليخبرني بالنزول إلى صالة الحانة لتناول الغداء، وبعد نصف ساعة كنا في الصالة جالسين حول منضدة نلتهم الطعام، وبعد دقائق هبطتْ الفتاة السلم واقتربت منا وجذبت مقعدا وجلست قائلة :

- مرحبا يا أحباء فؤادي .

جاء لها السمين بالطعام مع كوب عصير، قالت الفتاة وهى تلتهم قطعة من اللحم :

- سأغادر الحانة غدا وأرجو أن تستمتعوا برحلتكم .

قال هنري :

- ما اسمك ؟ وكيف عرفتي أننا دخلاء ؟

طبعا سأل سؤاله الأخير في همس .

أجابت الفتاة :

- أعرف أن طنا من الأسئلة تدور بعقولكم .

تناولتْ رشفة من كوب العصير وقالت :

- اسمى جيفان واسمى في بلادي الهند يعنى الحياة ، وهكذا قررتُ أن يكون لحياتي نصيبا من اسمى، كنتُ أشعر وأنا صغيرة أنني غير عادية كمثيلاتي، تمردتُ على واقعي وسافرتُ إلى الصين وأنا في سن الخامسة

عشر وتعلمت الكثير وتخرجت في الصحافة وتعلمت الإنجليزية وانتقلت مبعوثة إلى الولايات المتحدة الأمريكية وطابت لي الحياة ، وعندما وصلت إلى سن العشرين اكتشفت أن جيفان الطفلة مازالت تعيش بداخلي، جيفان التي نشأتْ في الأساطير الهندية تتحرك وتتلوى ، فعدتُ إلى الهند وجلبت كتبا كان يحتفظ بها جدي، لطالما سألت نفسي هل فعلا يوجد في هذا الكون ما يسمى بجزيرة الوشم ، ووجدتُ الإجابة في كتب جدي القديمة لكنها إجابة نظرية لا تزيد عن حبر على ورق ، إجابة لا ترضيني ولا تخرس ذلك الفضول الذي يتلوى ويصرخ بداخلي ، وزاد إصراري على خوض المغامرة حين وقعت عيناي على مخطوطة نادرة تحذر كل أحمق تسول له نفسه السفر للجزيرة وأن أسوأ كوابيسه ستتحقق بسرعة البرق ، وأن ما سيراه سيكون شنيعا ، وتقول المخطوطة بأن أهل الجزيرة هم مَنْ تبقوا من (الهنود الحمر) الذين غادروا الأمريكيتين ، وأظنكم الآن قد عرفتم بقية القصة أيها الغاليين .

قلت وأنا أتناول قطعة لحم غريبة الشكل والطعم :

- ولماذا قدمتي لنا المساعدة ؟

قالت في مرح :

- لم أكن في حاجة لأن أسمع حديثكم وأنتم تقفون في الصف ، فالبلاهة التي كست وجوهكم كانت توحى بكل

شيء ، دخلاء لكن حمقى ، وكنت أنا الدخيلة الذكية ، أعلم كل شيء عن الجزيرة ، كل شيء ، تصورت نفسى في موقفكم ، ماذا سيكون مصيري وقتها ، ليس الذبح هو أسوأ عقاب .

قلت :

- ألم تخشى أن نشى بكِ عند الجنود ؟

ضحكتْ وقالتْ :

- كلنا في الهوا سوا يا مهجة قلبي .

وكانت جيفان سمراء مستطيلة الوجه دقيقة الملامح لها أنف مستقيم قليلا فيه كبرياء ، وعينان حادتان توحيان بالذكاء والمرح ، ولو تخيلت الفنانة الموهوبة (شيرين عبدالوهاب) بملامح هندية لرفعت عنى عناء الوصف.

كنا قد انتهينا من الطعام وازدحمتْ الحانة من حولنا ، وعقدت أدخنة السجائر سحبا فوق رؤوسنا ، فأخرج ديفيد سيجارة وأشعلها فتحاشيت النظر إلى عينيه في غيظ ثم قال :

- لماذا ستتركين الحانة غدا ؟

قالت :

- لدي الكثير لأقوم به ، أنا لا أطيق المكوث في مكان واحد .

قال هنري :

- ظننتُ من الأفضل ألا تظهري أمام الأعين فترتكبين خطأ واحدا يكشف أمرك .

قالت مبتسمة :

- أعرف كل قوانين الجزيرة فكيف أقع في خطأ؟

قلت مسرعا :

- إذن تعرفين حكاية الوشم ويوم الاختفاء الذى تحدث عنه سائق العربة ؟

قالت ساخرة من جهلي :

- أخبرتك أنني أعرف كل شيء يا عصفوري الصغير .

تجاهلتُ وصفها المهين هذا وقلت :

- هل من توضيح ؟

قالت :

- سكان الجزيرة هنا على ثلاثة رتب ، الرتبة الأولى وهى الرتبة (أ) وهى ترمز للملك وحاشيته من الأمراء والوزراء ومستشاريه والقضاة والجنود، والرتبة الثانية الرتبة (س) وهى ترمز للسحرة رجالا ونساء وهم مقربون من الحاكم مفضلون لديه ، ويمثلون الدين والعقيدة والجميع يخشون السحرة لذا سألك الجندي الثاني إن كنت تجيد السحر أم لا ، والرتبة الثالثة الرتبة (ش) وترمز إلى الشعب ، التجار والعمال والسائقين والزراع وهكذا

ولا يحق لأى شخص أن ينتقل من رتبة إلى رتبة أخرى إلا بأمر من كبيرة السحرة .

قال هنري :

- وماذا عن يوم الاختفاء ؟

قالت :

- لا تتعجل يا حبوب .

ثم أردفتْ :

- لا أحد يعرف متى يقع الزلزال ، لكن حين يحدث الزلزال تفتح الثغرة لمدة ثلاثة أيام ، ومن خلال هذه الثغرة يستطيع أي شخص السفر إلى عالمنا الذى يسمونه هنا عالم الأشرار.

قال ديفيد وهو ينفس دخان سيجارته بلذة :

- ولماذا يسمون عالمنا بعالم الأشرار ؟

قالتْ بعد أن عدّلت من وضع خصلة في شعرها الأسود الكثيف :

- في نظرهم نحن الأشرار الذين عرفنا البخار والكهرباء والطاقة والذرة والجاذبية ، فلوثنا الأرض والجو وغيرنا نمط المناخ ، وقطعنا الأشجار وقتلنا الحيوان وتحاربنا من أجل المعادن والكبرياء ، وأفقدنا الأرض عذريتها فتاهت وشحبت وشاخت ووهنت وبكت وأوشكت على الفناء ، لكنها أقسمتْ أن تنتقم قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وانتقامها سيكون كابوسيا على البشر، ستمطر الجبال حجارة وتخرج الأرض نارا وتخرج البحار ألسنتها لتبتلع اليابسة ، ويبتسم ثغر الأوزون معلنا عن النهاية ، وتلك هي الحقيقة التي يؤمن بها أهل الجزيرة ، ولعلكم تسألوا أنفسكم طالما

عالمنا بهذا الشر لماذا يرحل إليه أهل الجزيرة والإجابة باختصار لأن الجزيرة منحتهم مزية لا تماثلها مزية في الكون ، وهى أن أهل الجزيرة لا يمتد بهم العمر إذا ما عاشوا في عالمنا ، ويظن أهل الجزيرة أنهم هم السكان الأصليين للأميركتين ولو لم يتم طردهم لحافظوا على طبيعة الكون في الكوكب .

كنا ننظر إليها في دهشة وقد راق لنا حديثها وبدأنا نفهم ، ثم أردفتْ :

- هناك فرصة لمغادرة الجزيرة مرة واحدة كل عام إثر الزلزال ، من أراد الرحيل يقفز في بئر من ثلاثة آبار تستقر في منطقة الأصنام ، ومن فاتته هذه الفرصة فقد فاته السفر ، وعليه أن ينتظر زلزالا آخرا ، وعالمنا ليس به إلا ثغرتين ، ثغرة في الهند وقد بحثتُ عنها سبع سنوات حتى عثرت عليها بفضل أساطيرنا وكتب حضارتنا الهندية القديمة ، فكنتُ أنا أول هندية أعبر الثغرة لأصل هنا ، والثغرة الثانية توجد بلد بحثت عنه كثيرا في الكتب ، لكن لم تذكره الأساطير الهندية ولا الصينية ، وأظن أن هذه الثغرة ستظل مجهولة لعالمنا للابد . وربما في عالمنا ثغرات عديدة لا أحد يعلم.

قال هنري :

- نحن أتينا عن طريق البحر وكدنا نهلك عند الدوامات .

قالت في لا مبالاة :

- هذا عناء يستحق الثناء ، ولا أحد يفكر في دخول الجزيرة من البحر إلا إذا كان مجنونا ، وأؤكد أنكم نجوتم من الغرق بأعجوبة .

فكرتُ في كلامها وقلتُ في رعب :

- فهمتُ من كلامك أنه إذا أردنا العودة علينا أن ننتظر وقوع زلزال ؟

قالتْ ساخرة :

- أنتَ سريع الفهم يا روحي، لكن هناك حالة استثنائية للعودة دون حدوث زلزال ، وهى أن توافق كبيرة السحرة على ذلك .

كدتُ أن أطلب سيجارة من ديفيد لكنى تراجعتُ وقال هنري في تحدٍ :

- لن ننتظر الزلزال ، سنعود متى أردنا .

قالت ساخرة :

- لن تستطيع أيها الحبوب .

ثم نظرتْ إلى المطربة التي صعدتْ على مسرح الحانة وقالتْ في شرود :

- الخروج يكون بعد حدوث الزلزال .

قال ديفيد :

- معنا سفينتنا مجهزة بأحدث وسائل الأمان ونستطيع أن نعبر الدوامات ونعود .

أخرجتْ من حقيبتها في توجس ساعة يد أنيقة ونظرتْ فيها وأخفتها سريعا كأنها تخشى أن يراها أحدهم وقالت :

- الآن الساعة الثانية عشرة وخمسة دقائق ، أي أننا بدأنا يوم الاختفاء .

قلت :

- لا أفهم .

قالت :

- أغلق باب الجزيرة منذ خمسة دقائق ولن يُفتح إلا بعد إجراء طقوس الاختفاء ، أي بعد أربعة وعشرين ساعة من الآن .

- قال هنري :

نعود إلى سفينتنا بعد غد .

قالت في بساطة :

- بعد أن تقوم كبيرة السحرة بطقوس الاختفاء تختفي الجزيرة وكل الموجودات من حولها على بعد ثلاثة كيلومترات تقريبا أي إن سفينتكم ستختفى .

قلتُ في ذعر :

- ولماذا يقومون بإخفاء الجزيرة وما حولها ؟

همت أن تقول شيئا لكننا سمعنا المطربة التي صعدتْ المسرح قد بدأت الغناء ، فتمايل الثمالى من الحاضرين وصفق الناس وعلت الضوضاء لكننا سمعنا جيفان تقول :

- ربما أجبت عن سؤالك في وقت آخر .

ثم نهضتْ وقالتْ :

- لديّ الكثير مما أقوم به ، أراكم غدا يا غاليين .

ثم انصرفتْ .

بعد ساعة اقترح هنري أن نتأكد من صحة كلامها ونذهب إلى باب سور الجزيرة ، خرجنا من الحانة وسرنا نتجول الطرقات باحثين عن عربة تقلنا إلى منطقة بوابة الدخول فلم نجد إلا العربات الحمراء التي أخبرنا السائق أنها مخصصة للسحرة ، فقد كان الوقت متأخرا وجاوزنا منتصف الليل ، جلسنا تحت عمود من الخشب عليه مشعل يضئ الطريق وصمتنا قليلا حتى قال هنري :

- سنجرب أن نذهب بعربة السحرة .

قال ديفيد :

- لكن هذا يعرضنا للخطر وقد رأيت كيف عنّفنا السائق عندما اقتربنا من عربته من قبل .

قال هنري :

- اتبعاني ، سوف نغرى السائق بالمال .

وسرنا نحو عربة يقف بجوارها سائقها وكانت عربة فاخرة مزينة بالألوان ومحاطة بالستائر وأمامها حصانان قويان ، قال هنري :

- نريد الذهاب إلى منطقة باب الجزيرة ، كم تأخذ ؟

قال السائق :

- خمسة وعشرون سنتا ، ربع دولار .

ثم أردف :

- لكن لا تبدون من السحرة ، أين الوشم ؟

قال هنري :

- نحن الشعب، الرتبة (ش) لكن سندفع خمسة دولارات وكان الرقم فادحا ، فلمعتْ عينا السائق وسال لعابه واهتزت شفته السفلى كذيل برص يهتز بعد قتله حين رأى الدولارات في يد هنري ، ثم قال متلاحق الأنفاس :

- ابتعد أيها الشيطان ، لو كُشف أمري لطار عنقي وربما رموني في حجرة الثعابين .

قال ديفيد :

- لن يكشف أمرك لا تقلق .

قال غاضبا :

- الجنود ينتشرون في كل مكان فقد بدأت ساعات يوم الاختفاء، ابتعدوا وإلا ناديت الجنود.

فابتعدنا وعدنا إلى الحانة صامتين صمت القبور .

في صباح اليوم التالي استيقظنا على جلبة وهبطنا صالة الحانة بعد أن ارتدينا ملابسنا ووجدنا الصالة فارغة إلا من السمين وصبيان ينظفان ، قال السمين :

- لماذا تأخرتما، الاحتفال سيبدأ بعد ساعات ثم وضع بين شفتيه فم زجاجة خمر وجرع منها وأخذ يغنى بصوت مزعج، خرجنا فوجدنا الشوارع مزدحمة وقد تجمع أهل الجزيرة في ملابس ملونة رجالا ونساء وأطفال وشيوخ كانوا مختلفين لون الملابس لكنهم اتفقوا في انهم جميعا وضعوا على رءوسهم قبعات مصنوعه من القش

مرسوم عليها ثعابين ، وعُزفتْ الموسيقى ودُقتْ الطبول، وقبل أن يجرفنا تيار البشر ناحية الساحة انتحى بنا هنري جانبا وقال :

- الفرصة سانحة ، سنذهب إلى منطقة بوابة الجزيرة، ربما كانت جيفان كاذبة أو واهمة ووجدنا الباب مفتوح ، ووجدتنا سفينتنا على الشاطئ، عندها نفر هاربين قبل أن يتم إجراء طقوس الاختفاء.

هرع ثلاثتنا نحو الشارع وابتعدنا عن الهرج والازدحام فوجدنا عربات السحرة وعربات الشعب ، ابتعلت ريقي ودعوت الله أن ينجينا، ركبنا العربة وانطلق بنا السائق نحو مدخل الجزيرة ، كنت شاردا انظر إلى شوارع الجزيرة الأشجار والزهور والشمس الساطعة التي تغمر كل شيء والجو المعتدل المنعش والروائح الذكية التي تنثرها الخمائل والغابات البعيدة ، وسرحت بفكري، إن وجهة نظر أهل الجزيرة عن عالمنا الشرير لا تخلو من منطق، هؤلاء القوم يعيشون في قطعة من الأرض أشبه بالجنة يعيشون كما خلقهم الله، هواء نقى، ثمار وفواكه وخضروات طازجة ، لا مبيدات لا ملوثات لا قاذورات، كل شيء هنا منظم جميل شاعري يثير حواس العابد والزاهد ، أيقظني من غفلتي وشرودي صوت السائق حين قال:

- وصلنا .

نزلنا وأسرعنا الخطى إلى البهو وكان كل شيء هنا يخلو من الجنود والحراس ، اجتزنا البهو الواسع ودلفنا إلى المدخل المؤدى للبوابة ، ودقّ قلبي حين رأيت الباب الحديدي موصد ، باب عملاق شاهق الارتفاع منقوش عليه ثعابين تخرج لنا ألسنتها كأنها تغيظنا، جرى هنري مسرعا إلى الباب يريد أن يحطمه بيديه الضعيفتين ، لكنه تقهقر للوراء فزعا مرتعشا حينما تدلى من أعلى الباب ثلاث ثعابين مسحورة، وهنا فهمتُ لماذا يخلو المكان من الجنود ، وقلت في نفسى ساخرا :

- لا حاجة للجنود، الثعابين تقوم بالواجب .

وابتعدنا عن الباب وعدنا نجر أذيال اليأس ، هدأ روع هنري قليلا وقال :

- لا تقلقا سنجد طريقة للخروج، جيفان تعرف الكثير وسوف تساعدنا، هي دخيلة مثلنا ولابد أنها تعرف طريقة للخروج والا ما أتت إلى الجزيرة .

قلت في يأس :

- جيفان سعيدة بما تفعل وتنعم بوقتها وتعرف ما تفعل وتعرف متى وكيف تعود وربما راقت لها الحياة هنا فتقرر المكوث بقية حياتها، غير أنها تشعر بشكل أو بآخر أنها من أهل الجزيرة ، هي أخبرتنا أن أهل الجزيرة هم أجدادها الهنود.

قال هنري :

- لا أظن ، هي من الطراز الذى يريد أن يجرب كل شيء واذا ما جربه انبهر به ، وسرعان ما يشعر بالملل فيبحث عن شيء جديد .

كان ديفيد صامتا محتقن الوجه يسير بجوارنا في حزن غريب ، وكنا نسير على الأقدام ، وبدت لنا منطقة الغابات التي تجبرك أن تتوقف أمامها لترمقها في ذهول ، وهنا أخرج هنري كاميرته وبدأ يلتقط صورا للأشجار والغابات والطيور غريبة الأشكال والألوان .

وهنا انفجر ديفيد باكيا :

- أنا لا أطيق المكوث هنا ، أريد العودة .

ثم نظر إلى هنري وقد أمسك بقميصه من الأمام.

- أنتَ من ورطنا في هذه المغامرة ، قلت أننا سنعود ، وعدتني بالعودة ، يا لك من وغد كذاب .

هذا الديفيد يتحدث بلساني ، تباطأتُ في سيرى وتركتهما يتشاجران، هم أمريكان (مع بعض) ولن أتدخل في هذه المشاكل الدولية ، وإن كنتُ أجد لذة خفية فيما يحدث ، ابتعدا عنى أكثر من عشرين مترا فجلستُ تحت شجرة لحين أن ينتهيا من المشاجرة .

ثم سمعتُ هنري يصرخ ويقول وهو يحاول أن يتخلص من قبضته :

- اهدأ يا صديقي ، مازالت فرص العودة سانحة و ...

هنا جذبه ديفيد من قميصه أكثر حتى خرج قميصه من بنطلونه من الأمام وقال :

- اخرس، ليتني ما اتبعتك ، ظننتُ أنها مجرد جزيرة هادئة جميلة نقضى فيها (الويك ايند) ثم نعود سعداء ، لن تكتب (الواشنطن بوست) عنا، لأنها لا تكتب عن الأموات ، ثم كور قبضته ورفع يده عاليا وقبل أن ينهال بها على وجه هنري سمعنا بعض الجنود :

- توقفا .

وفى أقل من أربعة ثوان التف مجموعة من الجنود بهما وأمرهم كبيرهم بالقبض عليهما وقذفوا بهما داخل عربة سرعان ما انطلقت بهما بعيدا حينما هرعتُ إليهما كانت عربة الجنود قد أسرعت، ولم يكن لديّ وقت كافٍ كي أفهم ما يدور أو أن أتصرف ، ووجدتُ نفسي وحيدا لا أعرف كيف أتصرف وأين اذهب فتركت قدماي تذهبان حيثما اتفق فسرتُ بين الناس اجتاحني تيار الناس الذين يدفعوني دفعا وكان الناس يسيرون نحو الساحة .

قبل أن نصل الساحة استطعتُ بصعوبة أن أخرج من هذا الزحام والتيار الجارف إلى جانب أحد الطرق وأسرعت إلى الحانة وتمنيت أن أجد جيفان، هي الوحيدة التي تعرف كيف تتصرف ، دخلتُ الحانة فوجدتها خالية إلا من صبى هذيل ولما سألته عن ساكنة الغرفة العلوية قال :

- سيدى ، الجميع في الساحة .

وقبل أن أغادر قال الصبى وهو يمد يده نحوى حاملا قبعة من قش عليها نقش ثعبان :

- سيدى لابد من ارتداء هذه ، هذه هي التقاليد .

هنا فهمتُ لماذا يضع الجميع هذه القبعات على رءوسهم حتى النساء والأطفال .

عدتُ مسرعا إلى الشارع ودخلت وسط الزحام وسرت معهم ، كنت شارد الذهن وكانوا سعداء فرحين يغنون وينشدون أغنية تقول (في يوم الاختفاء لابد من الاحتفاء) وبدت الكلمات لي مصطنعة متكلفة تخلو من الموسيقى الداخلية ، لكن لا وقت للسخرية يا فوزي، أسرع معهم وحاول أن تتصرف مثلهم حاول ألا تبدو غريبا عنهم ، لقد انكشف أمر الرفيقين، ولابد أنها سيعترفان مع أول صفعة إن كانوا هنا يكتفون بالصفعات، وصلتُ إلى بناية ضخمة وقد اصطف الناس في ثلاثة عشر صفا تقريبا ، وبدأ الجنود في تنظيم دخول الناس إلى الساحة عبر ثلاثة عشر بابا ، وكنت أرى بعض البائعين الذين يحملون قبعات يبيعونها لمن نسى ارتداء واحدة ودخلت الساحة وكان المنظر عجيبا، صالة متسعة جدا ، مدرجات دائرية ومقاعد خشبية ملونة في نظام دقيق، في هذه الجزيرة كل يوم أرى جديدا، ويبدو أنها لن تكف عن إبهاري في كل يوم ، كنت جالسا في المدرجات العلوية لذا بدت لي أرض الساحة بعيدة وأحجام الناس صغيرة ، دخل الملك فدُقتْ الطبول وارتفعت الزغاريد تتخللها الأهازيج وصفق الناس، وارتفعت أعلام حمراء منقوش عليها ثعابين ، وظهر بجوار الملك سيدة

ترتدى رداء أسودا قاتما، ظننتُ أنها زوجته حتى سمعت من يهمس :

- إنها كبيرة السحرة سيدتي شمس .

إنها إذن كبيرة السحرة، يا لها من سيدة قبيحة، في الحقيقة لم أتبين وجهها لأن المسافة كانت بعيدة كما أخبرتك، لكن لا أعرف لماذا انقبض قلبي حينما رأيتها، كانت تجلس على يمين الملك في شموخ وكبر، وعلى يساره اصطف مجموعة من الوجهاء خمنتُ أنهم كبار المستشارين والقضاة ورجال الدولة ، وقف الملك فساد الصمت وسكن الجميع وجلس على مقعده من كان واقفا وابتلع لسانه من كان يتكلم ، وشُلتُ يد من كان يلوح وقال الملك في فصاحة :

- تحياتي الحارة للرتبة (أ) التي أنا منها والتي سخّرتْ وقتها وحياتها وجهدها لإدارة أمور الدولة ومقدراتها وخيراتها لإسعادكم ، وتحياتي للرتبة (س) التي ابتكرتْ وتواصلت مع كائنات أخرى وسخرت الثعابين وغيرها من الكائنات المتوحشة لحماية بلدكم من أي فضولي أو مستعمر مغرور، تحياتي للرتبة (ش) الطبقة العاملة الصانعة الزارعة التي بأيديها تكفينا شر الحاجة لدول العالم الشرير والتي بها تنهض بلدنا .

صفق الجميع وارتفعت الأعلام وعلت الطبول والموسيقى حتى أشار الملك بيده فعاد الصمت يخيم على الجميع ثم قال :

- اليوم يوم الاختفاء وهو ليس كأي يوم، فلدينا مفاجأة بعد إجراء الطقوس، لذلك أرجو ألا ينصرف الناس حتى يعرفوا المفاجأة .

ثم أشار ناحية كبيرة السحرة السيدة شمس التي وقفت بدورها وقالت :

- لكم أن تفخروا بملككم وبنفسكم وببلدكم التي رفضت أن تنجرف في خلافات وحروب وصراعات مع العالم الشرير وحافظنا على الأرض فأخرجت لنا ثمارها ، وقدسنا السماء فأنزلت علينا مياهها العذبة، وحافظنا على جوها فلم نمرض يوما ولم نعرف أمراض العالم الشرير القبيح، وبعد حدوث الزلزال الأخير واستقرت جزيرتنا ها هنا سنجرى الآن طقوس الاختفاء التي ستخفي الجزيرة عن عيون المستعمرين الحاقدين الذين لم يكتفوا بأرضهم ، فاخترعوا السفن التي تلوث البحار للبحث عن أرض يستعمرونها ، وصنعوا الطائرات التي تلوث الجو لنفس الهدف ، لكننا بهذا الاختفاء نكون في مأمن من هؤلاء حتى يهز جزيرتنا زلزال جديد.

ثم نظرتْ إلى الملك بعد أن أخرجتْ كتابا وقالت في أدب جم :

- اسمحْ لي سيدي ببدء طقوس الاختفاء .

فأومأ الملك بهز رأسه مبتسما وبدأت تقرأ ، فوقف الجمهور في إجلال وقد انحنوا إلى الأمام في ثبات ، وقفتُ معهم ولم انحني مثلهم، ورحت أجهد عينيّ وأدقق النظر في السيدة شمس لكن بعد المسافة جعل وجهها يبدو لي كبقعة سمراء

بعيدة ناهيك عن توشحها برداء أسود قاتم ، مرتْ عشر دقائق، أغلقتْ الكتاب بعدها ووضعته على منضدة طويلة أمامها ورفعتْ وجهها وقالت وهى تلوح بكلتا يديها :

- تبا لكم أيها المستعمرون الفضولين غير المرغوب فيهم على جزيرتنا، فجزيرتنا صارت مخفية عن أنظار كل العالم الشرير بسفنه وطائراته وصواريخه .

صفق الجميع ورقص البعض واحتضن الرجال بعضهم البعض وزغرد النساء، وتمايلت الفتيات وارتفعت الأعلام الحمراء، ووقف المستشارون يهنئون ملكهم في إجلال، وبعد دقائق هدأت فيها الأصوات وقف الملك في زهو قائلا :

- أخبرتنا نبوءات السحرة أنه لابد من دخلاء متسللين رغم الحراسة، وها قد تحققت، فقد علمت للتو أن جنودي وجدوا رجلين يتشاجران بالقرب من مدخل الجزيرة ، وما أثار شك الجنود اليقظين أن الرجلين يملكان أدوات تصوير وساعة يد حديثة ، ونحن لا نمتلك هذه الأشياء منذ زلزال (ريتا) المدمر العام قبل الماضي .

ومع الاستجواب السريع تبين أنهما دخيلان متسللان نجحا للأسف في معرفة كلمات السر وخداع جندي البوابة .

كنت واقفا وفور سماع كلمات الملك أصابني الدوار وكدت أن أسقط فاقد الوعى وقاومت هذا الإحساس الغريب الذى يدعوني لفقدان الوعى وقاومت جاهدا حتى لا أسقط فينكشف أمرى ، ونبت عرق بارد على جبهتي وتسارعتْ دقات قلبي كطبل

فمددتُ يدي أتحسس مقعدي فاصطدمتْ يدي بشابٍ يجلس بجواري ، نظر إليّ وقال :

- هل أنت بخير ؟

قلت كاذبا :

- بخير ، فقط أصابني الاشمئزاز من هذين المتسللين الوغدين .

قال الشاب :

- لا عليك سينالهما عقاب شنيع.

جلست أتحاشى النظرات لهذا الشاب وتشاغلت بالنظر إلى أظافر يدى كعذراء بِيعت في سوق الرقيق ، ثم سمعت الملك يقول :

- تعلمون أن الخروج من الجزيرة لا يكون إلا من ثغرة البئر في منطقة الأصنام، والخروج لا يكون إلا بعد حدوث زلزال، لكن كبيرة السحرة السيدة الموقرة شمس تمتلك تعويذة تجعل الثغرة تعمل حتى إن لم يكن هناك زلزال ، وهذه التعويذة لا تستخدمها إلا بأمري ، ولا تكون إلا لأمر عظيم، لذلك قررتُ نفى هذين الدخيلين عبر الثغرة، وسينفذ قراري هذا غدا العاشرة مساء في منطقة الأصنام وأرجو منكم الحضور لتشهدوا جزاء من أراد أن يتسلل إلى جزيرتكم، ويعكر صفوها ، سيتولى كبير القضاة التحقيق معها الليلة في حضوري وسوف تتم المحاكمة غدا العاشرة مساء علنا أمام الجميع وحرصا منى على الشفافية ومشاركتكم الحكم أرجو أن

تشهدوا يا أهل الجزيرة هذه المحاكمة .ثم أشار الملك بيده لكبير الجنود فأشار كبير الجنود بدوره إلى مجموعة من الجنود فاحضروا شخصين مكبلين بالسلاسل من أرجلهم وأيديهم خلف ظهورهم ويلتف حول عنق كل واحد منهم ثعبان عملاق لا يكف عن الفحيح ، يمكن لطفل ذي ثلاث سنوات متوسط الذكاء أن يعرف أن هذين المكبلين هما هنري وديفيد .

الفصل العاشر

(عم شفيق)

أنا عمكم شفيق يا أولاد ، نعم عمكم ، أعلم أنى لا أمت لأحدكم بصلة قرابة كي ينادى بـ عمى، لكن بحكم سنى يناديني أهل قريتي بعم شفيق، عمكم شفيق العجوز مكرمش الوجه أسمر البشرة منحنى القامة معتل الصحة ضعيف النظر، أبلغ من العمر سبعين عاما، تصوروا أنني عشت سبعين ربيعا، لم تكن حياتي حافلة بالأحداث كما توقعت، وبعد هذا العمر الطويل ما زلتُ أخاف الموت، ما أعجب الإنسان حقا ! لكن في الحقيقة لم يكن الموت هو أكثر ما أخافه ، فقد كنت أخاف من منطقة البئر المهجور، هذه المنطقة التي تفصل قريتي عن الجبل الغربي الآن، حكى لي جدى لأبى ذات ليلة أن جده أخبره أنهم كانوا يعيشون في منطقة البئر المهجور حين كان غير مهجور، قرية آمنة سعيدة كادحة تأكل من خير حقولها، حتى انقلب الأمن رعبا حين جرف سيل عارم من أعالي الجبل ، فغرقت قريتنا بالماء وجف الماء العذب من البئر ولم تعد الحياة كما كانت، أخبرني جدى أن جده كان يسمع أصواتا بعد منتصف الليل تأتى من البئر، وانتشر الخبر وهجر الناس منطقة البئر واتجهوا إلى الشرق مسافة خمسة وعشرين كيلو مترا وسكنوا

وزرعوا وعاشوا ومن وقتها ولم يجرأ إنسان على العودة للبئر، وكنت ابن عشر سنوات حين حضرت الحكومة ورجال الأمن ومعهم بعض المعدات وزحفوا غرب قريتنا في الأرض البور نحو منطقة البئر، وكنت أركض مع الأطفال خلف رجال البوليس لأرى ماذا سيفعلون، وحين اقتربوا من البئر وجدوا رجلا يخرج منه يرتدى ملابس غريبة لم أرَ شخصا من قبل يرتدى مثلها، لم يكن الرجل مخيفا بقدر ما كان مرهقا وغريبا وعجيبا كأنه أتى من الجحيم، ثم صرخ كبير رجال البوليس وأمرهم بصوت مضطرب بالانصراف، وقتها صدّقتْ الحكومة القصة بعدما كانت تظنها حدوته يحيكها أهل القرية، كبرتُ وعرفتُ القصة وحكيتها للجميع ولكن كان ينمو بداخلي شعور غريب يدعوني لأن أجرب ، وظللتُ كل هذه السنوات أقاوم بلا طائل هذا الشعور، كان بيتي الذى ورثته يقع غرب القرية على حدود منطقة البئر، بيت عتيق من الطين مكون من طابقين، وكنت أخاف أن اخرج منه ليلا إلا مع صحبة تشعرني بدفء الأنس، وذات مرة شعرت برياح تأتى من ناحية الغرب وكنت في الطابق العلوى وفتحت النافذة فجأة من شدة الرياح فنظرت ورأيت ثلاثة بقع سوداء تتحرك في بطء، أغلقت النافذة واختبأت تحت لحافي وأنا أتمتم بآيات الله، وظللت ارتعش حتى شروق الشمس، عزمت على بيع منزلي لاشترى بثمنه منزلا آخر وأترك حدود القرية الغربية ولم أجد من يشترى، كانت السلعة راكدة ، فتنازلت عن السعر الذى كنت أتمسك به وكان يأتي التجار من أهل القرية فاذا سمعوا بجملة الحدود الغربية

فروا هاربين، وتنازلتُ أكثر وعرضته بربع ثمنه ولكن بلا فائدة، وفى تلك الأثناء بينما أحكمت إغلاق النوافذ وباب البيت بمغلاق ومتراس ثقيل من حديد، سمعتُ طرقات على باب بيتي ، كنتُ في منتصف الليل ، فهرعتُ مذعورا إلى الباب وقلت :

- من ؟

فلم يرد أحد ، ووليت ظهري للباب ظانا أنى أتوهم ، فسمعت الطرقات ثانية، ففتحت الباب ممسكا بعصا غليظ من الخيزران فوجدت رجلا مهترئ الملابس يقف أمامي ويتكلم بلغة لا اعرفها ولم أسمعها من قبل، فصرخت وأغلقت الباب في وجهه، ووضعت المتراس الحديدي الثقيل خلف الباب وشعرت بدمي يتدفق في وجهي، وصعدت الطابق الثاني ، فتحت فرجة النافذة ونظرت بعيني فوجدت هذا الطارق يجرى متجها للغرب، وظللت أقرأ القرآن حتى الصباح، بعدها عزمت ألا أبيت ليلة واحدة في هذه المنطقة اللعينة، وحزمتُ كومة من القماش بعدما جمعت فيها شبشب وجلبابين وبعض الملابس الأخرى ، ولم أترك من ثيابي إلا جلبابا باليا ، وهبطت إلى القرية، دلّني أحد الرجال على إمام المسجد وكان شابا في الثلاثين، حكيت له ما يحدث معي ، فأمسك برأسي وأخذ يتلو القرآن ، ثم قال لي :

- سأبنى لك حجرتين في حقلي بجوار الساقية .

هممتُ أن أقبل يده فجذبها وقال :

- تبيت في بيتي الليلة ونبدأ البناء صباح باكر .

خرجنا من المسجد وكان قريبا من بيته وعلى باب بيته كان يلهو ابنه الصغير ابن الخمس سنوات سمعته يناديه بـ فوزي .

دخلت بيته وجلسنا في باحة البيت وأكرمني الشيخ ، وكانت له زوجة مليحة جاءت لنا بالطعام ، لم يكن هذا الشاب الكريم إلا الشيخ عبدالحميد .

بعد أسبوعين كان لي بيت صغير يقبع هناك وسط الحقول بجوار الساقية وبيوت أهل القرية ، منذ ذلك الموقف ولم نفترق يوما أنا والشيخ عبدالحميد، وصار لا يذكر اسمه إلا وذُكر بعده اسمي، وعلّمني الرجل الطيب الكثير بعد أن صار له صيت بين أهل القرية ، إنه يداوى بالقرآن دون أن يتقاضى مليما نظير ما يفعل، وأحببت فعل الخير ولازمته وزرعتُ أرضه ورعيت ماشيته ، كان ذلك منذ أكثر من ثلاثين عاما كنت أنا في الأربعين وهو في الثلاثين ، ورزقه الله بعد ذلك بـغلام وصبية هما علاء وسعاد ، وظللتُ كل هذه السنوات لم أتزوج ولم أحلم بالزواج ولم أحلم بالعودة لبيتي القديم، لكنى كنت كل شهر أذهب لأطمأن بأن أحدا لم يستولى عليه، شيئا واحدا دون غيره كنت أحلم به، أن أرى البئر المهجور عن قرب، وعدت نفسى ألف مرة أن أذهب إلى البئر وأخلفتُ كل تلك الوعود، وشاعت الأحاديث عن البئر وكثرت الحواديت والأساطير .

ذات يوم كان الشيخ عبدالحميد يصلى بنا صلاة الظهر في المسجد وبعد الصلاة وقبل أن نخرج استوقفنا الحاج مهران فجلسنا وقال :

- كنت أنقل بعض الخضروات إلى سوق المركز وعدتُ متأخرا ولم يكن طريقا أسلكه إلا طريق البئر المهجور، وفكرتُ أن أبيت في السوق أو أبحث عمن يستضيفني فلم أجد، فتوكلت على الله وركبت دابتي وسرت، وصلت منطقة البئر المهجور بعد حلول الظلام بساعات وبينما أنا سائر في الطريق المظلم وبدا البئر من بعيد رأيت رجلا يخرج من البئر وقد اقترب منى فقرأت المعوذتين وبعض آيات القرآن الكريم لكن الرجل اقترب واقترب، وسألني في لهفة عن وسيلة تقله لبلده ، لم يكن الرجل مخيفا قدر ما كان غريبا شاردا فتمتمت بآيات القران لعله ينصرف ، فعاد يسألني أسئلة غريبة مثل أين نحن وأريد وسيلة تقلني وساعدني ، فلوّحتُ بعصا في وجهه وأخرجتُ من جيبي مطواة ، ففر الرجل ناحية البئر وظللتُ أتقدم بدابتي نحو القرية مخلفا ورائي منطقة البئر المهجور دون أن ألتفت للوراء نظرة واحدة حتى وصلت القرية .

بعد أن أنهى الحاج مهران حكايته لم أتحدثُ وقتها بشيء لكنى نظرتُ للشيخ عبد الحميد نظرة يفهمها وقال :

- لا جديد يا حاج فالمكان مسكون والأرجح الابتعاد عنه .

قالها الشيخ عبدالحميد ولم يزد كلمة واحدة .

كل هذه الحواديت حركتْ الشيء القابع بداخلي ، ذلك الشعور الذى يشدني نحو البئر، حتى جاء اليوم الموعود وأوفيتُ بوعدي لنفسي وكان القمر جليا في السماء ووجدت نفسى أتجه قبل الغروب إلى منطقة البئر وقدّرتُ أن يحل على الظلام بعد ساعتين من السير، واخترت ليلة قمرية يبدو فيها القمر جليا في السماء ، وبدا البئر الكئيب الصامت من بعيد وسرت مرتعشا انظر حولي وخلفي ، وكلما تقدمت خطوة كلما اهتزت أوصالي وانتفض قلبي ، فكنت أشجع نفسي وأتلو آيات الله ، حتى وصلت .

بئر مهجور له سور دائري من الأحجار التي سقط بعضها وتهدم بعضها ، سور لم يتجاوز أشبار، اقتربتُ شيئا فشيئا وانا أتلو آيات الله وأنظر حولي وخلفي وإلى السماء كالملسوع، لمحتُ حبلين من الكتان يتدليان للأسفل وقد امتدّ حبل قصير يفصل بينهما كل ذراع ، كان الحبلان على شكل سلم ويمكن لأى شخص أن ينزل البئر أو يصعده بسهولة، اقتربت أكثر لأرى نهاية السلم واتكأت على سور البئر الحجري بيدي ومددت رأسي ونظرت، قاع البئر جاف ولم يكن بالعمق الذى يظنه الجميع ، مجرد بئر هادئ وديع يقبع في سلام ، وقبل أن أسحب رأسي للوراء أبصرت شيئا لامعا مصفرا، نعم كان يلمع في الضوء القمر الساطع ، هل أعود ؟ رجعت للخلف خطوة، بدأت في السير، وأغمضت عيني فلمع في مخيلتي الشيء المستقر بقاع البئر وقلت مشجعا نفسى :

- لماذا لا تجرب ؟! إنك لن تعود للبئر مرة أخرى، وهذه فرصة الأخيرة لترضى الشيء القابع بداخلك .

وعدت .

تمسكت بالحبل بعدما تركت عصاي بجانب السور وهبطتُ، هبطتُ وأنا أرتعش وكنت أرى رعشة الحبال بين يدى، فأغمضت عيني وواصلت الهبوط وفتحت عيني ونظرت للأعلى ، فبدت السماء والنجوم قبة هائلة عظيمة، هبطت وهبطت حتى استقرتْ قدمي اليمنى في قاع البئر، وما إن وطئت قدماي أرض القاع حتى سألت نفسى :

- ماذا لو انقطع الحبل ؟ ماذا لو جاء عفريت وأغلق البئر ؟

انتبهتُ من فوري حينما سقطتْ نظارتي وانحنيتُ ألتقطها فرأيت الشيء اللامع الأصفر ، وكنت قد نسيت أمره من هول الموقف ، التقطت نظارتي والشيء الأصفر اللامع وبدأت في الصعود ، وما إن خطوت خطوتين للأعلى حتى سمعت عواء كلب فأجفلت ، واهتز الحبل بين يدى وأحسست بأن مصيبة ستحدث، كان ذلك منذ أقل من عام، كنت في سن التاسعة والستين، رجل واهن ضعيف النظر منحى الظهر عالق في حبل البئر، لكنني تحاملت وعاد صوت عواء الكلب يتردد، هل هو كلب حقا ، أم ....

وطردتُ هذا الخاطر وعدت أتمتم بآيات الله وواصلت الصعود وداعب النسيم أنفى فعبّأت صدري العجوز بالهواء وخرجت، أمسكت بالعصا ورأيت كلبا يسير على بعد أمتار فكتمت أنفاسي وسرتُ تاركا البئر خلف ظهري وبعد ساعتين كنت في القرية .

كنت فخورا بنفسي وهدأ ذلك الشيء بداخلي وبِتُ ليلتي أتفحص تلك القلادة الصفراء التي تلمع تحت ضوء المصباح، كانت سلسلة تتوسطها قلادة غريبة الشكل منقوش عليها حروف أعلى وجه فتاة بلسان مشقوق، مشقوق كلسان الثعبان، لم أخبر الشيخ عبدالحميد في بداية الأمر، ورحت أبحث عمن يقرأ لي تلك الحروف المنقوشة ، وتذكرت فوزي ابن الشيخ عبدالحميد، لكنه ترك القرية، كنت أثق فيه حقا وأحب سخريته من الأشياء وأطمئن له في حفظ السر ، ولما غلبني النعاس توالت عليّ الكوابيس من كل صوبٍ وحدّب ، واستيقظت مرات ومرات في هذه الليلة الطويلة، وفى الصباح أقسمت ألا تبيت معي هذه القلادة، كان الشيخ عبدالحميد يحذرني من أي شيء يظهر عليه نقش غير مألوف أو كلمات غير مفيدة، فعزمت أن أقابل علاء، وذهبت في عصر يوم إلى الحقول وكان موعد حصاد القمح وجدتُ علاء فاقتربتُ منه وكنت أرتدى جلبابا رماديا وأخرجت القلادة بعد أن أخذت عليه العهود أن يظل هذا الأمر سرا بيننا .

عندما تحسس علاء القلادة شعرت بتغير ملامح وجهه وهزة في أطراف أنامله فطلبت منه تفسيرا ، فأخبرني أنها قلادة فرعونية تعود لعصر أحد الملوك الذى نسيت اسمه ، ولمّا لم تكن إجابة علاء كافية ولما رأيته من كوابيس في أيامى التالية قررتُ أن أخبر الشيخ عبد الحميد بأمر القلادة .

دخلت الحجرة المقدسة ، حجرة الشيخ عبد الحميد القبلية وأوصدت الباب وتحت ضوء المصباح الخافت أخذ يقلب القلادة بين يديه بعدما حكيتُ له كل ما حدث ، قال لي :
ـ تعود ربما لشياطين قبائل الهند ، لكن دعها معي سأقرأ عليها القرآن حتى نعرف حقيقتها .

الفصل الحادي عشر

(فوزي عبد الحميد)

حين انتهى الاحتفال بيوم الاختفاء في الساحة كنت مبلبل الفكر شارد كمن فقد ذاكرته ، وسرتُ في الشوارع خارجا من منطقة الساحة لا أشعر بشيء من حولي إلا عندما كنت أصطدم بالمارة فأنتبه ثم أشرد ثانية في خواطري ، وجدت نفسى أمام الحانة، وعندما اجتزتُ صالة الحانة كان عدد الجالسين قليل وقبل أن أصعد لغرفتي سألت الرجل السمين :

- أين جيفان ؟

رد السمين وهو مشغول في إلقاء توجيهات لصبى الحانة :

- بالخارج .

عرفت أنها لم تعد حتى الآن، صعدت الحجرة ورأيت متعلقات الرفيقين ، حقائبهما وملابسهما ، ووجدت نفسي أبكى ، كنت قد أحببت هذين الشابين فعلا وقلت لنفسي :

- لابد أنني في كابوس .

وواصلت البكاء ، ثم فتحتُ نافذة الحجرة ونظرتُ إلى الشارع خارج الحانة وكان صوت العائدين من منطقة الساحة مازال يتردد في الأجواء .

لا بد من إنقاذ هذين البائسين ، لكن كيف ؟ هل من طريقة لإنقاذهما ؟
هنا سمعتُ من يطرق الباب ولما فتحته كان الطارق جيفان .
قلت في حزن :
- أين كنتِ ؟ هل علمتِ ما جرى ؟
قالت في تعب :
- نعم ، كنت في الساحة .
ثم نظرتْ إلى عينيّ وقالتْ :
صديق مغفل ، كيف لا يعلم أن المقتنيات الحديثة تثير الشكوك !
قلت في غباء :
- كيف ؟
أجابت :
- الكاميرا يا حبوب ، ثم ساعة اليد ، الجندي لم يقبض عليهما بسبب الشجار لكن حين رأى الكاميرا، وساعة اليد شكّ في الأمر، حكاية القبض عليهما تترد على كل لسان الآن .
صمتتْ قليلا وهى ترتخى في جلستها :
- سمعتُ أنهم سيحاكمون الجندي الذى سمح لهما بالدخول .
قلت في رعب :
- تقصدين سمح لهم وليس لهما ، كنا معا نحن الثلاثة .
قالت غير مهتمة بما أقول :
- لا تقلق ، لا أظن أن الجندي سيتذكر وجهك .

قلت سائلا :

- **ولماذا تثير المقتنيات الحديثة شكوكهم ؟**

قلت ساخرة :

- **أيها الصغير، في قوانين الجزيرة غير مسموح للعائدين باصطحاب أي مقتنيات من عالمنا، هم هنا يعتقدون أن هذه المقتنيات ربما ساعدت على انهيار الطبيعة هنا.**

قلت في جهل :

- **لكن العائدين كانوا يحملون أمتعة معهم ، لماذا لم يفتشهم الجنود على البوابة ؟**

قالت :

- **أولا :لأن أمتعتهم كانت لا تحوى إلا الملابس وبعض الأدوات الشخصية وهى لا تؤثر على الطبيعة هنا ، ثانيا : كل العائدين يعرفون قانون الدخول ويعرفون عقاب من يخالف هذا القانون لذلك لا يشك الجنود في أن هناك عاقل سيخالفه.**

وهنا تذكرتُ لماذا كانتْ تخفي كاميرتها دائما ولماذا كانت تنظر حولها إن أرادتْ التقاط صور كأنها تخشى أن يراهم أحدهم.

سألتها :

- **وما عقاب من يخالف هذا القانون ؟**

قالت مجيبة :

- **الذبح علنا أو الحبس في حجرة التعذيب الثعبانية أو النفي .**

قلت متعجبا :

- حجرة التعذيب الثعبانية ؟!

قالت في مرح :

- نعم يا حبيبي ، هي حجرة زجاجية بها أقوى وأضخم الثعابين الجائعة ، يلقون فيها المذنب ويغلقونها فيموت المذنب مرتين مرة من الخوف ومرة وهى تلتهمه تلك الثعابين الجائعة.

ابتلعت ريقي وشعرتُ بالاشمئزاز وتقلصتْ معدتي التي دفعتني للتقيؤ ، ولما تغيرتْ ملامح وجهي لاحظتْ هي ذلك فأضافت :

- لا تقلق، سيكتفون بالنفي، هكذا أعلن الحاكم.

قلت :

- هل من طريقة لإنقاذهما ؟

قالت :

- نعم ، أن تكون من الرتبة (س) .

قلت :

- وهذا مستحيل طبعا .

قالت مداعبة :

- أنت ذكى يا روحي .

كنت أعلم أنها تسخر لكنى اعتدتُ على تعليقاتها المتهكمة ، فقلت :

- أريد أن أساعدهما ، اخبرني كيف أساعدهما .

قالت دون اكتراث :

- هون عليكَ يا قلبي ، هما مغفلان يستحقان ما ينتظرهما، بلد لا تعرف الساعة الرقمية ومازالتْ تستخدم ساعة

الرمل لتحديد الوقت ثم يظهر فيها من يحمل كاميرا وساعة يد حديثة يتجول في بساطة وحماقة ، ثم إن عقاب النفي ليس عقابا سيئا ، لكن السؤال المهم أين سيقذفهم البئر ؟

قلت مسرعا :

- أنتِ قلتِ أن ثمة ثغرة في دولة الهند وأخرى لا تعرفينها

قالت من فورها :

- هذا ما أعرفه ، لكن ربما هناك ثغرات أخرى .

مدتْ قدميها لمقعدٍ أمامها في تبسط وأضافتْ :

- قرأتُ في كتبنا الهندية القديمة أن الذى يعبر الثغرة إن تأخر في العبور فقد يصل في عصر من العصور القديمة

قلت :

- كيف ؟

قالت :

مدة عبور الثغرة خمسة دقائق إن تأخر العابر أكثر من ذلك سيجد نفسه في إحدى الدول من عالمنا لكن في عصر قديم ربما في عصر الديناصورات ربما في زمن الحرب العالمية الأولى وربما في المستقبل.

قلت :

- متى تنوين العودة ؟

أجابت ببساطة :

- عند حدوث أقرب زلزال ، أكون وقتها انتهيتْ من تأليف كتابي عن الجزيرة .

قلت ساخرا :

- **إنكِ تعلمين كلّ شيء عن الجزيرة وكان من السهل أن تؤلفي كتابك في بلدك ، فلماذا جئت إذن ؟**

قالت :

- **ليس من سمع كمن رأى ، ثم إن عالمنا لا يعترف بكل المعلومات التي أعرفها لانهم يعتبرونها مجرد أساطير ألفها مخبول هندي قديم ، لكنهم حين يرون أن الأسطورة حقيقة مدعمة الصور والفيديوهات سوف يصدقني العالم ، ربما أبدو لك مجنونة لكن تلك هي الحقيقة ، والأهم أريد أن أعرف هل أهل الجزيرة هم فعلا (الهنود الحمر) وتم طردهم من الأميركتين .**

قلت :

- **وماذا إن لم تستطيعي العودة ؟**

قالت في مرح :

- **الحياة هنا تروق لي على كل حال ، بلدة هادئة جميلة.**

صمتتْ قليلا ثم أضافتْ :

- **ثمة أساطير تقول أن الجزيرة كانت جزء من أرض أمريكا الشمالية ، وقد تجمع فيها الهنود بعد حروب الأمريكان فغضبت الأرض وانفصلتْ إلى المحيط الهادي مخبولة حقا هذه الفتاة ، هي تستمتع بوقتها فعلا لكن ما ذنبي أنا أعيش هنا في هذا العالم الغريب فربما كان مصيري الذبح أو حجرة الثعابين هذه ، يا لها من كارثة !**

مساء نفس اليوم التالي أخفيت مسدس هنري في جيبي ، كان قد تركه في حقيبته بالغرفة واتجهت من فورى إلى سجن الدخلاء، عرفت مكانه من جيفان التي أخبرتني أنني لن أستطيع إنقاذهما ، وسجن الدخلاء هو سجن شديد الحراسة كثير الجنود أعد خصيصا لسجن من اتهموا بتهمة التسلل، استأجرت عربة خشبية وطلبتُ من السائق أن ينزلني قبل السجن بشارعين بالقرب من منطقة السوق حتى لا أثير شكوكه ، نزلتُ من العربة ومشيت سيرا على الأقدام ، وبعد عبور الشارع الطويل الممتد رأيتُ السجن من بعيد ، بناية شاهقة الارتفاع محاطة بسور من الأحجار، سور مرتفع عريض مخيف، كان السجن بعيدا عن مناطق العمران بعيدا عن بيوت أهل الجزيرة، إن وجودي هنا سيثير الشكوك ، وربما قبض على أحد الجنود وتم نفيي معهم ، لكن لابد أن أفعل شيئا، ضميري يصرخ بداخلي ، لابد أن أفعل شيئا ، وتركهما ينفيان دون أي محاولة مني أعتبره خيانة لهما، يكفى أنهما لم يوشيا بي عن الجنود، دورتُ حول السجن مع السور المرتفع المخيف كنت أبحث عن باب أو ثغرة أو جزء غير مرتفع من السور أستطيع تسلقه لكن دون جدوى، اقتربتُ من السور شيئا فشيئا ، ثم سمعت وقع أقدام انتفضتُ وسمعت جندي يقول بصوت مرتفع :

- أنت ، ماذا تفعل هنا ؟

قلت في رعب وارتباك :

- سيدى ، أرسلتُ ابني الصغير للسوق وقد تأخر فجئتُ أبحث عنه .

لماذا قلت سوق بالتحديد لأني مررت على سوق للفواكه والخضروات بالقرب من منطقة السجن ، قال الجندي مشيرا بيده ناحية السوق :

- ابحثْ في هذه الناحية ، ولو رأيتك هنا ثانية سوف اعتقلك .

فررتُ من أمامه وعدتُ ناحية السوق ، كنت أنظر للناس الذين يستعدون للتجمع في منطقة الأصنام ، وقد نسيت أن أسأل جيفان عن مكانها، لكن لا بأس ، سأمشى كما يمشى الناس، فالجميع هنا لن يفوتوا فرصة حضور المحاكمة، هؤلاء القوم ينعمون بوقتهم حقا، جلستُ أمام حانه قريبة من السوق وظللت أفكر حتى اقتربت الساعة من العاشرة ، كنت قد قررت ألا أغادر منطقة السجن حتى أرى الجنود، وهم يخرجونهما لَعلّي وقتها أستطيع أن أفعل شيئا أو أن أحدثهما ، كنت التهم أذنيّ من شدة التوتر، ماذا أتى بي إلى هنا أصلا ؟ حاولت أن أهرب من همومي ومشاكلي في بلدي فماذا جنيت؟ جزيرة متحركة وقوانين غريبة، احتفالات ، اختفاء ، ذبح ، وسألت نفسى في خوف :

- كيف سأعود إلى بلدي؟

إما أن انتظر حدوث زلزال وقد يحدث بعد عام أو لا يحدث ، وإما أن يتم نفيي ، لماذا لا يكون هناك حلا سهلا وطريقة أخرى ، مرتْ أمامي عربة خشبية بها نساء ورجال ، ورأيت

بعض الباعة يتنقلون ببضائعهم وسمعتُ جندي ينادى في المارة قائلا :

- محاكمة الدخلاء بعد قليل ، نشرف بحضوركم في منطقة الأصنام .

بعد دقائق اقترب منى رجل ثمل وقال هو يترنح :

- كم الوقت معك أيها المواطن الصالح ؟

كدت أن أخرج ساعة يدي الرقمية ثم تنبهت (لا وجود للأشياء الحديثة)

فقلت من فورى :

- اعتقد أنها قاربت من العاشرة .

قال الرجل :

- إذن اقترب موعد المحاكمة .

قلت :

- نعم .

قال وقد مدّ يده لي بزجاجة الخمر :

قلت في غضب :

- لا أشرب الخمر .

قال الرجل ضاحكا وهو يهتز :

- نعم ذكرتني بنفسي ، كنت مثلك أحمق لا أشرب الخمر حتى حدث زلزال (ريتا) المدمر وفقدت زوجتي .

وبدا على وجه التأثر وأكمل :

- يا له من شعور ! فقدتها ، ابتلعها الزلزال ، ثم عادت البلاد مائة عام للوراء ، كأنها أعلنت الحداد عنها .

قلت :

- **كيف عادت البلاد للوراء ؟**

قال :

- **لم تعد للوراء سيرا على قدميها بالطبع .**

ثم ضحك مترنحا وقال :

- **أعرف أنها دعابة سمجة ، لكن قبل زلزال (ريتا) المدمر ، كنا في عام ٢٠١٥ ميلادية ، وبعد الزلزال ، رجعنا مائة عام أيها المواطن .**

هذا لم يخطر ببالي أبدا ، هل هذا تفسير أن الجزيرة ليس بها هواتف ولا مصاعد ولا سيارات حديثة ولا أجهزة تليفزيون ، لكن الرجل ثمل .

قلت ساخرا :

- **هل تقصد أننا نعيش في عام ألف وتسعمائة وخمسة عشر ؟**

أجاب الرجل بعد أن أفرغ في جوفه بعض الخمر، وهو يشمئز :

- **لقد فقدت زوجتي في زلزال (ريتا) المدمر.**

هنا لمحتُ عربات ملونة عليها أعلام حمراء عربات غير عربات الرتبة (ش) ، عربات عرفتُ أنها عسكرية ، وكانت واحدة منها صندوقها الخشبي مكشوف تحيطه أعمدة حديدة تحمل هنري وديفيد .

كانت العربة تسير ببطء تتقدمها عربات أخرى عسكرية والتف الناس حول صف العربات وهم يهتفون ويسيرون فرحين متجهين إلى منطقة الأصنام ، اقتربتُ من العربات ورأيتهما مكبلين من أرجلهم بسلال من حديد وكانت أيديهم مكبلة خلفهما بينما هما ينظران للأسفل ليتحاشيا نظرات الناس بعدما علما باقتراب نهايتهما ، اقتربتُ أكثر وناديتُ بصوت مسموع :

- هنري .... ديفيد .

لكن لم تصل كلماتي إليهما بسبب الهرج والمرج والازدحام حول عربتهما الذى يزداد شيئا فشيئا، ألقى بعض المتحمسين الحجارة على العربة فاخترق حجرا القضبان الحديدية عابرا نحو وجه ديفيد ، ورأيت وجه ديفيد المحتقن يسيل بالدماء، وأحسستُ بدمعة تنزل من عينيي فأخفيتها خوفا أن يراني أحد، وناديت مرة أخرى عليهما ولم يسمعاني وارتطم بي أحد الأشخاص فسقطتُ وخطتْ فوقى أحذية المارة، وعندما نهضتُ وجدتُ العربات قد ابتعدتْ عن ناظريّ ، فقلت بصوتٍ غير مسموح :

- سامحاني يا رفاق ، لقد حاولت .

وصلنا بعد قليل إلى منطقة الأصنام ، وهى أرض متسعة محاطة بالأصنام لا تزيد قامة كل صنم عن متر واحد ، وفى نهاية هذه الأرض كان صنما كبير أكبر من كل الأصنام فعرفت انه الصنم (يوبا) الذى كان اسمه مكتوبا في الورقة ، كان الصنم مكون من جسم إنسان عاري الجزع ورأسه رأس أفعى ، وتحت

الصنم مباشرة ثلاثة آبار تصطف بشكل منتظم، ولو وقفتَ مكان الصنم لرأيتَ أمامك مباشرة بئر وعلى يمينك بئر وعلى يسارك بئر ، وبجوار الصنم نُصبتْ منصة جلس عليها الحاكم وكبيرة السحرة وبعض المستشارين ، أما الجنود فكانوا على كل شبر من أرض المنطقة ، وتكرر مشهد الساحة وتعالتْ الهتافات ودُقتْ الطبول ، وهتف البعض يطالبون بذبح الدخيلين ، أشار الملك بيده فسكت الجميع ثم قال :

- لكم أن تفخروا بجيشكم وجنودكم الذين كشفوا أمر هذين الدخيلين فور تسللهما إلى جزيرتنا ، وأثناء حضوري تحقيق كبير المستشارين معهما اكتشفنا وجود أجهزة غريبة حديثة معها ، وما أثار دهشتنا هي الورقة التي عثرنا عليها معهما .

هنا فتشتُ في جيوبي عن الورقة التي أخذناها من جيفان ثم تذكرتُ أن ديفيد أخذها منى بعد دخولنا الجزيرة ، فقد كان يعتقد المسكين أن طريقة الخروج من هذه الجزيرة الملعونة هي نفس طريقة الدخول .

وسمعتُ الحاكم يُكمل ويقول :

- هذان الشابان ليسوا منا، إنهما من العالم الشرير، دخيلان متسللان ، وثمة خائن لبلادنا قد أعطاهما هذه الورقة التي دوّنَ فيها كلمات السر لعبور باب الجزيرة ، جارى البحث عن هذا الخائن وسوف يلقى مصيره فور اعتقاله ، تعلمون أن نفيهما الآن سيكون عبر الآبار، ولعدم وقوع زلزال فإن الآبار لا تعمل لكن بتعويذة

واحدة سوف تعمل الآبار وتُفتح الثغرة ويسافر هذان إلى الجحيم .

قال جملته الأخيرة مشيرا إلى السيدة شمس كبيرة السحرة التي وقفتُ بدورها وقالت :

- اقترحتُ على مولاي الملك ألا نلقي بهما في بئر واحدة حتى يتفرقا ويلقَ كل منهما مصير مختلف ووافقني الملك ، لذلك أطلب من كبير الجنود أن يجرهما إلى الآبار .

أشار كبير الجنود إلى جنوده ورأيتهم يوقفون هنري أمام البئر الأوسط الذي يقع أمام الصنم مباشرة بينما وقف ديفيد أمام البئر الأيسر .

وهنا أخرجتْ كبيرة السحرة كتاباً وأشعلتْ النيران في شعلة كانت بجوارها وراحتْ تتجول أمام الدخيلين وتعود إلى المنصة وهى تتمتم بأشياء غير مفهومة تقرأها من الكتاب ، كانت بشعة المنظر تكاد لا ترى ملامح وجهها واضحة إلا عينين شريرتين حمراوين وأنف مقوس ، تبدو كساحرات أفلام الخيال العلمي ، وبعد خمس دقائق رأيتُ كل بئر يخرج منه ثعبان ضخم بأجنحة ، وما إن ظهرت الثعابين حتى هلل الجميع وهتفوا ، وقتها عرفتُ أن كبيرة السحرة انتهتْ من تعويذتها وأن الآبار الآن تعمل ، سمعتُ كبيرة السحرة تصرخ بصوت انتصار :

- الثغرات فُتحتْ ، اقذفا بهما بعد أن تفكا قيودهما .

قام الجندي الذى يقف خلف هنري بفك قيوده بسرعة ثم ضربه بقدمه في ظهره فأسقطه في البئر، وما كاد أن ينتهى حتى

رأيت الجندي الذى يقف خلف ديفيد كرر ما فعله الجندي الأول فأسقط ديفيد في البئر .
كنت أرى المشهد مشوشا قليلا من بين دموعي التي لا تتوقف، وعلتْ الموسيقى ودُقتْ الطبول وارتفعت أصوات الناس يهنئون بعضهم البعض ، ولما شعرتُ بقدميّ لا تقويان على حملي وقلبي لا يكف عن القفز لخارج ضلوعي وأن لحظة سقوطي مغشيا على قادمة لا محالة تسللتُ منصرفا في صمت .

الفصل الثاني عشر

(هنري)

كنت مغفلا فعلا، نعم كنت مغفلا حينما خضتُ هذه المغامرة الكابوسية، ظننتُ أنها ستكون رحلة، مجرد رحلة استكشافية، ولم أعتقد أن الأمور ستسوء لهذا الحد، تذكرون حينما كنا أمام الدوامات، كنتُ في داخلي أتمنى أن نعود، شعرتُ وقتها بالخطر، وانتظرتُ أن يقترح أحدهما فكرة الانسحاب لكن هذا لم يحدث ، وهممت أن أقترح أنا هذا الاقتراح، لكن كبريائي منعني، ورغم اعتقالي أنا والبائس ديفيد فقد كنت أشعر أنى من تسبب في كل هذا، أنا صاحب الفكرة وأنا قائدها، وعلى القائد أن يتحمل مصير فرقته، كنا عائدين من منطقة سور الباب، وتفاجأت بديفيد ينفجر في وجهى وأذكر جملته حينما قال (أتظنها إجازة الويك اند).

كنت أشعر بداخلي أنه على حق، عندما اعتقلنا الجنود نظرت خلفي فرأيت فوزي جالسا تحت شجرة ينظر إلينا في ذهول، وركبنا العربة وانطلق بنا الجنود إلى المعتقل ، كان في منطقة السوق، وحينما ولجنا بالداخل أمر وسلمنا الجندي إلى كبير الجنود، نظر إلينا وأمر أن يُسجن كل منا في سجن منفرد، ووجدتُ نفسي في غرفة رطبة ضيقة مظلمة إلا من ضوء جاء

يتسلل في استحياء من طرقة مجاورة، ظللتُ أرتجف لمدة ساعتين حتى سمعت صوت باب الحجرة يُفتح، ودخل أحد الجند حاملا بين يديه حقيبة قماشية متوسطة الحجم، ظننتُ أنه الطعام، لكن الجندي فكّ الحقيبة، وألقى بها بجواري ونظر إلىّ نظرة ساخرة وقال :

- أتمنى أن تنعم بوقتك أيها الدخيل .

وأغلق الباب وانصرف .

وما إن اقتربتُ من الحقيبة حتى رأيتُ حركة بطيئة، وكأن شيئا بداخلها، ثم رأيت شيئا يتلوى بعدما خرج من الحقيبة، شيء بشع لزج يتلوى ويرمقني بنظرات كارهة، لم يكن عسيرا عليّ أن أعرف أنه ثعبان، انتفضتُ واقفا وصرخت وألصقت ظهري بالحائط، وكانت الحجرة ضيقة فعلمتُ أن محاولاتي في الهروب من هذا الشيء الشنيع هي نوع العبث، اقتربتُ منه وهويتُ بحذائي عليه، أصدر فحيحا وابتعد لكنه لم يمت، أسرعتُ نحوه وهويت عليه بحذائي وكانت ضربة نابعة من خوفي ورعبي لذلك قضيت عليه، وتمدد هذا الشيء المريع دون حراك ، أخذتُ نفسا عميقا وعدت أجلس ملصقا ظهري بالحائط ، فتحركت الحقيبة مرة أخرى ، لابد أن هؤلاء القوم يجيدون أداء ما يفعلون ، وكنت متأهبا ورفعتُ قدمي في الهواء منتظرا خروج الثعبان الثاني، لكن خطرت ببالي فكرة ، اقتربتُ من الحقيبة القماشية وأحكمتُ إغلاقها ورحتُ أقفز في الهواء وأهوى على الحقيبة بكلتا قدميّ ، فسمعت صوت الفحيح، لم

يكن فحيحا عاديا، كان فحيح ألم ، ولابد أنني استغرقتُ وقتا طويلا حتى همدتْ حركة الثعابين بداخل الحقيبة ، وخمنتُ أن عددهم يزيد عن ثلاثة ، وأعتقد أن هذا نفس ما جرى لديفيد .

بعد ساعتين سمعت وقع أقدام ، انتفضتْ شعيرات رأسي رعبا ، وفتح الجندي الباب وعصب غمامة على عينيّ واقتادني خلفه كمن يجر جروا، وبعد دقائق توقفنا، وأزال الغمامة من على وجهي ، فرأيت حشدا من السادة المتحضرين الأنيقين يجلسون ، عرفت أوسطهم، لابد أنه الملك ، نظر إليّ وقال :

- إن ما رأيتماه في السجن ليس أسوأ ما لدينا ، من أين أتيتما بهذه المقتنيات؟ وتذكرا فإن الحقيقة ستخفف العقاب، أعدكما بذلك .

قال ديفيد وقد شحب وجه وارتعشت شفتاه :

- سيدى هي مقتنيات شخصية، كاميرا وساعة يد .

قال الملك :

- لكنها لا تمت لعالمنا بشيء ، هل هي من العالم الشرير؟

قلت كذابا :

- نعم أحضرناها من العالم الشرير وظننا أن هذا لا يخالف القوانين .

قال الملك في ثقة :

- كونك لا تعرف القوانين يعنى أنك ليس من أبناء الجزيرة

قال ديفيد وهو مازال يرتعش :

- نسينا القوانين فقد جئنا عبر البحر، وقد ضعف ذاكرتنا وأصابني الدوار و..

قاطع الملك :

- حتى لو نسيتما القوانين، القانون السابع هنا ينص على أن جميع اختراعات العالم الشرير تُعطل ذاتيا فور دخولها الجزيرة ، غير أنني لا أصدق قصة الإبحار هذه

قلت :

- نحن من أبناء الجزيرة ورحلنا عنها قبل سنوات وعند العودة أصابنا الدوار ونسينا القوانين.

قال الملك في حزم :

- أنت تعلم أنك تكذب ، عثر الجندي معكما على ورقة مدون فيها كلمات السر لعبور لدخول الجزيرة ، مقتنيات حديثة لا تنتمى لعالمنا، لكل هذا وأكثر فأنتما تكذبان ، لكن لا بأس ، مبيت بعض ليالٍ مع الثعابين سينعش ذاكرتكما .

وهنا خرّ ديفيد على ركبتيه وقال كل شيء، كل شيء، لكنه لم يذكر حرفا عن فوزى أو عن جيفان .

قال الملك :

سنتشاور أنا والقضاة وكبار المستشارين وكبيرة السحرة السيدة شمس في أمركما لتنالا الجزاء العادل أيها الدخيلين .

وأشار إلى كبير الجنود الذى أمر بوضع الغمامة على أعيننا وعاد كل منا إلى سجنه الانفرادي .

في اليوم التالي وقبيل الساعة العاشرة مساء شعرت بمن يشدني شدا إلى خارج حجرة السجن وجذبني نحو طريقة ضيقة مظلمة وعبرنا صالة واسعة وصعدنا سلم طويل مرتفع إلى أن شممت رائحة النسيم ، رأيت عربة خشبية مكشوفة محاطة بقضبان حديدية يقف بها ديفيد مكبلا، قام جنديان بتكبيل قدميّ بسلاسل ثم جذب يديّ ، وربطهما خلف ظهري ، وألقى بي في العربة التي سارت بنا خلف عربات عسكرية أخرى لخارج السجن ، كان الزحام قليلا خارج السجن لكن ما إن دخلنا منطقة السوق حتى اشتدّ الزحام واستغرقنا نصف ساعة سيرا وسط هتافات وصفيق وعبارات تحث الجنود على ذبحنا، وعندما وقفتُ في الأرض المتسعة بجوار الأصنام رأيت نفس السادة المتحضرين الأنيقين لكن كانوا على المنصة، وانتفض قلبي عندما وقفتُ أمام بئر متسع ، قطره متران تقريبا ، لكن ما أثار رعبي أكثر هو خروج ثعبان بشكل مفاجئ من البئر، كنت أقف أمام البئر الأوسط وهو الذى يوازى الصنم الأكبر ، كنت أخطف النظر بطرف عيني إلى كبيرة السحرة، كانت دميمة قبيحة شنيعة، أنف مقوس قاسى، جبهة سمراء لامعة، وأسنان ناصعة البياض مرعبة، وكنت أنقل نظري إلى البئر وإلى الصنم الأكبر فيزداد رعبي ، حين انتهتْ كبيرة السحرة من تعويذتها وصفق الناس عرفت أنها النهاية وتذكرت والدي السيد المليارديرالصيني المتأنق، ماذا لو أدرتُ شركاته ورعيتُ أمواله بعد موته وتركت عالم المغامرات المجنون، وبينما أنا غارق في خواطري أحسست بدفعة في ظهري جعلتني أهوى

في البئر، أغمضتُ عينيّ واستسلمت حتى اصطدمت بقاع البئر الرملي الناعم وتحسست جسدي ذاهلا، معقولة، هل نجوت، أبهذه السهولة ؟!

ثم شعرت بالبئر ينغلق من الأعلى واختفتْ سماء الجزيرة وتلاشت أصوات الجمهور، وساد ظلام دامس، وفجأة انهار من تحتي قاع البئر ورأيت نفسى أجرى على أوتاد حديدية مدببة فتجرحتْ قدامى وكلما أبطأت زادت الجروح فأسرعت أكثر وأكثر، لم يستغرق الوقت دقائق حتى وجدت خط الأوتاد الذى أركض فوقه قد تفرع إلى خطين ،وترددت ، ووقفت لجزء من الثانية مفكرا، أي طريق أسلك؟ فاخترقتْ الأوتاد قدميّ ، فركضت في خط منهما، لم يكن لدى فرصة الاختيار، فقط ركضتُ حتى لا تخترق الأوتاد قدمي ، وفجأة انتهى خط الأوتاد فسقطتُ للأسفل وأغمضت عينيّ وأنا أحلق في فضاء فسيح ، ورأيت في هذا الفضاء القاتم المخيف وجوها شفافة لكنى أعرفها جيدا ، جيفان ، فوزى ، لورا الفتاة اليونانية الشقراء التي أحبها في ميامي ، أمي ، الشركة ، تكساس ، الدوامات ، السفينة ، وهنا ارتطم جسدي بالقاع وفقدت الوعي .

حين عاد لي وعيي وجدت نفسي ملقى على ظهري ، فتحتُ عيني وأول شيء فعلته أن نظرُت لقدميّ وتحسستهما بيديّ وأنا ملقى على ظهري ، لقد زالت الجروح كأنها لم تحدث

، قدماي سليمتان صحيحتان، نظرت بجواري ، جدران البئر ، بئر ؟!

هل ما زلت في البئر ، نظرت لأعلى فرأيت جدران البئر تمتد لمسافة ثلاث أمتار أو يزيد ثم السماء، نعم رأيت السماء والنجوم، بئر بارد قاتم رهيب، أنا ما زلت في البئر إذن، كلا، إن هذا البئر يختلف، والجو يختلف، الجو هنا بارد لاسع، ثم أبصرت فجأة حبلين يتدليان للأسفل بشكل رأسي يتوسطهما حبال أفقية قصيرة تربط بينهما ، حبلان أشبه بالسلم ، نهضت من فوري متعجبا، وجدتُ أن قوتي وصحتي لا بأس بهما، نفضت الغبار عن ملابسي وعن شعرى ووجهي وتمسكت بالحبال وصعدت، أرض شاسعة فارغة خالية من كل شيء والنجوم تومض وتترقرق، أين أنا ؟ أين أذهب؟ أوليت البئر ظهري واتجهتُ ناحية الشرق وانطلقت، بعد مسيرة نصف ساعة لم يقابلني أحد ، لم أرى إنسانا ، لم أسمع شيئا ، الجو مظلم لا يخلو من برودة سرت في أوصالي فزادت من رعبي، وبعد قليل لاحت لي أضواء وبيوت وحقول خضراء علمت أنها قرية قريبة، واصلت المسير متمسكا بفرصة النجاة ، نعم هذه قرية ، سأقابل أحدهم ليخبرني أين أنا وكيف أعود إلى تكساس، أظنني قريب منها ، لا ، لست قريبا ، أعتقد أنني في جنوب المكسيك أو ربما على حدود البرازيل من ناحية الشمال، لا بأس، ما هي إلا أيام وأكون في تكساس، ثم انتبهت من خواطري حين رأيت بيتا قريبا يقبع وحيدا حالما بعيد عن بيوت القرية، غير معقول، هذا البيت مشيد من شيء لا أعرفه ، هذه

ليست المكسيك، ثمة نافذة في الطابق الثاني مفتوحة، ينظر منها رجل يرتدى قميصا طويلا ممتدا حتى قدميه، وعلى رأسه قطعة قماشية كبيرة بيضاء، هنا أيقنتُ أنني لست في المكسيك ولا البرازيل ولا أمريكا ، يا للمصيبة .

ناديت عليه :

- هالو ... هل من مساعدة ؟

نظر إليّ الرجل مرعوبا فزعا ثم أغلق النافذة، فتقدمتُ نحو البيت، ووقفت أمام الباب وطرقت، خرج إليّ الرجل حاملا بيده عصا غليظة من الحديد ، كان مرعوبا مثلى، خائفا مثلى، مددت يدى نحوه بعدما أخرجت حفنة من الدولارات ، فنظر إليها طويلا كأنه يرى نقودا لأول مرة ولم يتحدث ولا نطق بكلمة ، رفع يده بالعصا عاليا ولوح في الهواء، فأدركت أنه مجنون، ولّيته ظهري، وركضتُ فسقطتْ منى الدولارات، كان الرجل عجوزا منهكا مذعورا فتباطأتْ خطاه، وسمعته يسعل ويضع يده على صدره فأسرعتُ حتى اختفيتُ عن ناظريه .

بعد ثلاث ساعات وجدت نفسى على محطة القطار، فتشتُ في جيبي عن أموال أخرى، حمدا لله، ركبت القطار المتجه شمالا وجلست بين الجالسين الذين كانوا ينظرون نحوى بفضول يتهامسون ويضحكون، ومن بين همساتهم تكررت كلمة (خواجة) ، استرخيتُ في جلستي على المقعد وأرحت ظهري للوراء ورحت في سبات عميق، لا أعرف كم ساعة نمت، لكنني استيقظت على يد تهزني وصوت يقول لي :

- لقد تعطل القطار يا خواجة ، نحن في الجيزة على كل حال، يمكنك النزول هنا .

قلت متعجبا :

- الجيزة ؟! أريد استئجار مكان للمبيت .

رد الرجل مبتسما من لهجتي قائلا :

- لا عليك ، الموقف قريب، واطلب من أي سائق تاكسي يقللك إلى المحروسة.

كان الزحام يملأ المكان ، سيارات ومارة وبائعين ومتجولين ، ورأيت رجلا قصيرا له كرش بارز يقف بجوار تاكسي اقترب مني مبتسما كأنه حصل على كنز وقال :

- نورتنا يا خواجة ـ أنا والتاكسي تحت أمرك.

كنتُ مرهقا متعبا وقد أصابني الدوار من كثرة السير على أقدامي فقلتُ من فوري :

- أريد مكان للمبيت، وفتشت في جيوبي وأردفت :

- لكن المال قليل ، فقدت مالي .

قال الرجل في يأس :

- خواجة فقير ، ما علينا يا خواجة ، سأقلك إلى البيت الذى أسكن فيه ، ثمة حجرة خالية مؤقتا يمكن استئجاراها .

توقف السائق بعد ساعتين أمام بناية في شارع ضيق يسمونه حارة ، وفتح لي الباب وسرت خلفه نحو باب البناية، ثم توقف

السائق فتوقفت خلفه وطرق الباب، فتحتْ له سيدة بيضاء ذات أنف مقوس تغطى شعرها، وقالت :

- تفضل ، هل معك ضيوف .

قال السائق مبتسما :

- إنه زبون يا خالتي نعيمة .

نظرت نحوى السيدة تتفحصني ، فأكمل السائق :

- أظنه أعزب ، الحجرة العلوية تكفى ، الخواجة سيدفع بالدولار أعتقد.

تعجبتُ حينما وضعتْ السيدة يدها داخل صدرها وأخرجت مفاتحا ودسته تحت أنف السائق قائلة :

- أرجو أن يكون ثريا ولا يقطع قلبي في دفع الإيجار .

قال السائق مبتسما :

- لا تقلقي ، أخبرتك أنه خواجة وقد أعطاني أربعة دولارات في التوصيلة .

وقبل أن نصعد السلم، رأيت فتاة شابة جميلة بوجه مستدير من خلف السيدة قالتْ الفتاة وقد بدتْ غمازتان فاتنتان على خديها :

- كله إلا السطوح يا أمي .

قالت السيدة في لومٍ وغضب :

- قلت لكِ لن يعود يا ابنتي ، لن يعود .

ثم أشارتْ إلى السائق وقالت :

- اصعدا أنتَ والخواجة ليستريح في حجرته .

في الطابق الخامس أولجت المفتاح في الباب ودخلت الغرفة، غرفة متوسطة الحجم ملحق بها حمام ومطبخ صغيرين ، سرير واحدة ، أريكة واحدة ، مقعدان خشبيان ، وكانت الأريكة تحت نافذة تطل على شارع ضيق، أزلت الستارة فدخل الهواء فحرك بعض الغبار، يبدو أن الغرفة مهجورة منذ شهور، نظرت إلى السرير وابتسمت، ثم القيت بجسدي ورحت في ثبات عميق .

في اليوم التالي نزلتُ أتجول في المكان وقد أبهرني الازدحام، والانسجام بين الناس واختلاف ملابسهم، ووقفت أمام مطعم وابتعت شطائر، حقا الطعام كان شهيا له طعم محبب غريب، وأنا عائد إلى البناية طرقت باب السيدة المتشككة ، ففتحتْ لي ولما رأتني غطتْ شعرها سريعا قائلة :

- تفضل يا خواجة .

دلفتُ إلى الداخل وأجلستني في صالة بها مقاعد وأريكتان ووضعتْ على منضدة متسعة كوبا من العصير، نظرتُ حولي فوجدتُ ستائر وصورة لرجل مثبته على أحد جدران الصالة فقلت :

- هل تعرفين أين تكساس ؟ أنا غريب ، أريد الذهاب إلى تكساس ستي .

زمّتْ السيدة شفتيها تعبيرا منها عن عدم الفهم فقلت :

- أمريكا ، لوس أنجلوس ، أوستن ، كيف أعود ؟

رفعتْ السيدة صوتها قائلة :

- منال ... بت يا منال ... تعالى شوفي الخواجة ماذا يريد ، لا أفهمه .

هنا دخلت الفتاة ، أنوثة ورقة وجمال ، وجه مستدير رقيق أبيض كبياض الثلج وقوام كالفراشة يميل إلى الرشاقة وشعر أسود داكن كعتمة الليل ، عينان كبيرتان مليئتان بالبراءة والحيوية .

جلست وقالت :

- نعم يا ماما .

قالت الأم وهى تنصرف :

- والله يا بنتي لا أفهم كلام الخواجة .

قلتُ للفتاة بعد أن تركتنا أمها :

- أريد الذهاب إلى تكساس ، أين نحن الآن ؟

قالت الفتاة :

- شبرا يا خواجة ، وتكساس في أمريكا ، الأسطى عمر يمكنه أن يقلك إلى المطار متى أردت .

قلت : نعم ، نعم ، هل المطار بعيد ؟

قالت :

- مطار القاهرة ، لا ، لا شيء بعيد مع المواصلات يا خواجة ، ثم إن الأسطى عمر سائق تاكسي ويعرف كل الأماكن .

مطار القاهرة !

هنا تذكرت فوزى، أنا في مصر ، القاهرة ، المحروسة ، الجيزة ، كيف غاب عنى هذا ؟! ترى أين فوزى الآن ؟
ولما طال شرودي نبهتني الفتاة قائلة :

- ما بك يا خواجة ؟

قلت :

- لا شيء ، أين الأسطى عمر الآن ، أريد أولا الذهاب إلى السفارة، فقدتُ جواز سفر و ...

قالت :

- سيكون هنا بعد الظهر، لا تقلق يا خواجة أنت في بلدك الثاني .

وفى صباح اليوم الثاني اصطحبني الأسطى عمر إلى السفارة وأخبرتهم انى جئت سياحة وفقدتُ مالي وجواز سفري ، وتواصل القنصل مع عمدة الولاية وحُلتْ المشكلة وأتممتُ إجراءات السفر ونقدتُ السيدة نعيمة كما عرفت اسمها من الأسطى عمر مالها ، وبعد خمسة أيام كنت الطائرة تهبط بي مطار (دالاس فورت ورث) بتكساس ، لكنني وانا أهبط أرض المطار سالت من عيني دمعة حارة حين تذكرت ديفيد وقلت في نفسى :

- ترى إلى أي بلد قذفك البئر يا ديفيد ؟ وهل استطعتَ عبور الثغرة أم انك في عداد الموتى؟

الفصل الثالث عشر

(فوزي عبد الحميد)

فور انتهاء الحكم على الدخيلين بالنفي توجهتُ من فوري إلى الحانة وأغلقت حجرتي وبدأت أتذكر الرحلة من بدايتها، وكيف وصل بي الحال لهذا السوء ، حينما أتذكر أنني حبيس في هذه الجزيرة أعضّ على أصبعي وأندم على كل ما فعلت ، ثم أعود وأقول إنه القدر ، وصوت بداخلي يهمس (عاطل عن العمل في حجرة على سطوح بناية خالتي نعيمة خير من حبيس في جزيرة ملعونة)

ثم تذكرت منال ، السلسلة ، قمت كالملسوع وفتحت حقيبتي وبحثت عنها ، كنت أخشى أن أكون قد فقدتها في الدوامات أو نسيتها في السفينة ، ثم عبثت يدى بشيء داخل جيب ضيق في الحقيبة ثم ...

إنها السلسلة، رحت أقلبها بين كفى ، وتراءت لي بوجهها المستدير تبتسم فتظهر على خديها غمازتان فاتنتان وهى تقول :

- سأنتظرك وأعلم انك ستعود .

ماذا لو علمتْ أنى حبيس في جزيرة تحيطها أشجار تسكنها ثعابين مسحورة، وسمعت طرقات على باب حجرتي فهرعت

إلى الحقيبة وأخفيت السلسلة، ربما هي الأخرى مقتنيات حديثة، يا لها من قوانين غريبة ! فتحت الباب فوجدت الصبى أحضر لي الطعام فقد كنت أخبرته أنى لن أتناول طعامي في صالة الحانة بعد عودتي ، في الحقيقة لم أكن رائق المزاج ولم تكن معدتي تشتهى شيئا ، فوضعت الطعام على منضدة صغيرة وغصت مرة أخرى في خواطري ، ظللت على هذه الحال أربعة أيام ، تفكير ، ندم ، ذكريات ، خواطر ، قلق ، رعب ، دهشة ، طعام قليل ، وقد نمت ذقني وأصابني الهزال .

وفى اليوم الخامس سمعت من يطرق باب حجرتي، فتحت الباب في ارتباك ثم رأيت جيفان تقف أمامي مبتسمة، لكنها ابتسامتها زالتْ حينما رأتْ وجهي وقد شحب وذقني وقد نمت وهزالي وقد زاد فقالت مسرعة :

- هون عليكَ أيها الحبوب ، ما زلت الدنيا بخير.

قلت بعد أن دخلتْ وارتمتْ على طرف سرير ومدتْ قدميها على مقعد :

- رأيتُ مصير رفيقيّ أمام عيني ، ولا أعلم ماذا سيكون مصيري .

قالت في مرح محاولة أن تخفف عني :

- أيها العصفور الصغير ، صديقاك ربما ينعمان بوقتها الآن ، الأمر بسيط ، سيقذفهما البئر إلى بلد ما في عالمنا .

قلت :

- هل إن ارتكبت جريمة سيعاقبونني بالنفي ؟

قالت وقد رفعت حاجبيها :

- جريمة ؟!

قلت وانا أنظر في عينيها :

- نعم جريمة ، سرقة ، أو محاولة هروب ، ربما وقتها يحكمون على بالنفي فأعود إلى بلادي .

قالت في لا مبالاة :

- وما يدريك أنهم سيحكمون عليك بالنفي ، إن صديقيك كانا محظوظين بهذا الحكم .

دققتُ النظر في وجهها ولا أعلم لماذا بدتْ لي ملامحها مألوفة ، سمراء ، أنف طويل ، قوام مفرود ، ثم تذكرت ، سوسن ، هل جيفان هي سوسن ؟

يا له من خاطر !

كيف لم ألحظ هذا الشبه الغريب الدقيق ؟

تبا لهواجسي .

قلت فجأة :

- هل أنتِ سوسن ؟

ارتبكتْ قليلا وأقسم أنها ارتبكتْ وقالتْ :

- سوسن ! سوسن من ؟

ثم زال روعها وقلّ ارتباكها قليلا وأردفت :

- آه أنت ماكر أيها الحبوب ، هل هي حبيبتك ، أظن أنها جميلة ، حفيدة الفراعنة تجمع بين الذكاء والجمال.

وهنا غيّرتُ مجرى الحديث واقتربتُ منها وأمسكت بيدها دون وعى

وقلت :

- جيفان ، أنتِ مثقفة ، أنتِ تعرفين الكثير عن هؤلاء القوم ، ساعديني ، أريد العودة .

ارتبكتْ قليلا وسحبتْ قدماها الممتد على المقعد وقالت :

- حبيبي كيف أساعدك ؟

قلت :

- لا أعرف ، لكن لابد أنك تعرفين .

قالت مفكرة بعد أن نهضتْ وأخذتْ تجول في الحجرة حولي بينما تحرك خصلات شعرها بأطراف أصابعها :

- القوانين واضحة، لا خروج من هنا إلا عبر البئر ، والآبار لا تعمل إلا بعد حدوث زلزال ، الزلزال يحدث مرة كل عام ، ولا أحد يستطيع أن يتنبأ بموعد حدوثه .

قلت :

- لكن هناك حالة استثنائية تعمل فيها الآبار .

قالت ومازالت تدور حول كمحقق بوليسي :

- التعويذة .

قلت :

- هل يمكننا معرفة التعويذة ؟

فكرتْ قليلا ثم قالتْ :

- لاحظتُ أن كبيرة السحرة تقرأ التعويذة من كتاب .

سألتها :

- وما معنى هذا ؟

قالت :

- إن لم يخب ظني فهي لا تحفظها ، لذلك لابد أن تقرأها من الكتاب .

قلت :

- ولماذا أنتِ واثقة من ذلك ؟

جلست أمامي على طرف السرير ومدت قدميها كعادتها في دلال وقالت :

- اسمعْ يا قلبي ، أنا ساحرة .

ارتفع حاجباي أنا هذه المرة وانزويتُ في جلستي وبدأتُ أتأكد من ظنوني ، لابد أنها سوسن وجاءتْ تكمل معي لعبتها الرهيبة وقلت مبهورا :

- ساحرة !

قالتْ بعد أن نظرتْ إلى حقائبي وأمتعة هنري وديفيد :

- تعلمتُ السحر وأنا في سن السابعة كان الأمر مجرد تسلية ، ساحر عجوز كان بالقرب من إسطبل الخيول الذى كنت أعيش فيه مع أسرتي علمني السحر، ولما أبديت تفوقا فيه ، أرسلني إلى أحد المعابد ، وهناك عرفت الكثير والكثير .

سألتها مبهور الأنفاس :

- ولماذا لم تخبري الجندي بأنك تجيدين السحر وتنالي وشم الرتبة (س) ؟

ابتسمت وقالت :

- يا قلبي لا تكن ساذجا، السحر هنا في الجزيرة يفوق السحر الذى تعلمته في بلادي ، لا يستطيع أحد في

بلادي أن يسحر ملايين الثعابين لحراسة سور الجزيرة ، وسأثبت قريبا أن السحر هو سبب انتقال الجزيرة من مكان إلى مكان ، تصور أن تعويذة تنقلك في خمسة دقائق من الأطراف الغربية للمحيط الهادي إلى أستراليا شرقا أو أوربا ، هؤلاء القوم ليسوا سحرة فقط بل شياطين .

قلت :

- هل تعنين أنهم شياطين بالمعنى الحرفي ؟

قالت في دلال :

- كلا ، أقصد المعنى المجازي ، أنت مصري والعرب خير من يعرفون المجاز .

نهضتُ أفكر بينما أتنقل ماشيا في الغرفة كأنني أصابتني العدوى وقلت :

- لو سرقنا كتاب كبيرة السحرة ، هل تستطيعين إجراء الطقوس ؟

قالت :

- أي طقوس ؟

قلت :

طقوس الثغرة ، تقرئين التعويذة بينما أقفز أنا في البئر .

قالت :

- أنت أحمق يا حياتي .

قلت ساخرا :

- قولي شيئا جديدا .

قالت :

- عليّ الانصراف .

نهضتْ واتجهتْ إلى الباب ثم استدارتْ قائلة :

- عليكِ أن تختفي عن الأعين، هناك رجل عجوز وشى بكم عند الجنود وقال إنه رآكم في الصف وأعتقدَ أنكم فاقدي الذاكرة ، وهو الآن معتقل داخل السجن .

ثم أردفت :

- يهمني أن تظل على قيد الحياة .

قالت جملتها الأخيرة وعيونها تفيض بغرام واضح .

ثم انصرفتْ .

أنا في حاجة إلى ترتيب أفكاري :

- أنا في جزيرة ملعونة مسحورة متحركة .
- الجزيرة تعيش في عام الف وتسعمائة وخمسة عشر.
- لا أعرف أحدا في الجزيرة سوى جيفان بعد فقدان هنري وديفيد .
- طريقة الخروج إما أن أنتظر حدوث زلزال ولا أعلم متى يحدث زلزال .
- ثمة طريقة أخرى لمغادرة الجزيرة وهى أن تقرأ كبيرة السحرة التعويذة ليعمل البئر، وتنقلني الثغرة إلى عالمي

بدأت أفكر مقلبا في خواطري ، إن أسهل الطرق هي التعويذة ، وربما ليست أسهل الطرق، فكيف أحصل على الكتاب الذى تملكه كبيرة السحرة، هل جيفان تستطيع ؟!

جيفان أخبرتني أنها تعرف السحر، لكنه مجرد سحر يبهر الأطفال ويضحك الجمهور ، لكن ماذا لو انتقلت جيفان من الرتبة (ش) إلى الرتبة (س) ، وقتها تستطيع أن تدخل قصر كبيرة السحرة، وربما تجد كتاب التعويذات وحفظ التعويذة أو سرقة الكتاب ، إذن جيفان هي مفتاح خروجي من الجزيرة ، هل توافق ؟!

لابد من إقناعها ، هي أخبرتني من قبل أنه يجوز أن ينتقل أصحاب رتبة معينة إلى رتبة ما ، لكن هل لذلك شروط ، لابد من إقناع جيفان مهما كلفني الأمر .

مرت خمسة أيام وأنا غارق في أفكاري ولم تظهر جيفان ، كنت في كل يوم أتجول شوارع الجزيرة باحثا عنها وسألت عنها في الحانات وتصفحتُ وجوه الفتيات دون جدوى ، وفى اليوم السادس دلّني أحد الأطفال أن سيدة تحمل نفس المواصفات تسكن بيتا في منطقة الأصنام ، توجهتُ مسرعا إلى البيت المقصود ، كان بيتا من طابق واحد يحوطه سور من الأحجار وتبدو الأشجار عالية داخل البيت ، كان باب السور مفتوحا، سرت للداخل متوجسا حتى وصلت باب الدار، ناديت وطرقت الباب، ومع الطرقات انفرج الباب ثم دخلت ببطء ، حجرة واسعة بها نافذة تطل على حديقة خلفية وسرير ومنضدتان وأريكة ومقاعد خشبية عرفت أنها حجرة المعيشة ، فجأة لمحتُ بومة تقف أمام مرآه ، نعم بومة بيضاء اللون كبيرة الحجم، كانت الحجرة واسعة وقليلة الأثاث، سرتُ نحو البومة فنظرتْ نحوي بعينين حادتين فأجفلت، لا أعلم لماذا

سرتْ في جسدي قشعريرة ، كانت النافذة مفتوحة ، فأشرتُ بكلتا يدي لأطرد تلك البومة ، ففردتْ جناحيها واستطال جسدها شيئا فشيئا حتى تحولت إلى إنسان ، إنسان يحمل وجه أنثوى أسمر فاتن ، كان وجه جيفان ، قفزتُ مترين في الهواء وكدت أن أسقط وسمعتها تقول :

- يا حبوب ، لا تخفْ ، مجرد حركة سحرية ساذجة .

قلت في خوف وانبهار :

- إذن أنت ساحرة ؟

قالت :

- أخبرتك انه مجرد سحر ، لست مثل سحرة الجزيرة .

ثم جلستْ على مقعد خشبي وطلبت منى الجلوس .

قلت :

- جيفان ، أنتِ من عالمي ، لا أعلم سر شغفك بالبقاء في الجزيرة لكن هذا شأنك ، أنا أريد العودة ، العودة إلى عالمي ، عملي ، أهلي ، حياتي ، سعادتي .

قالت في لا مبالاة :

- كيف ؟

قلت مسرعا :

- لن انتظر هنا حتى يُكتشف أمري وأذبح أو تلتهمني ثعابينهم ، لو صرتِ من الطبقة (س) لحُلتْ المشكلة .

قالت وقد مدت قدميها إلى مقعد أمامها كعادتها :

- لا أعرف ما ترمى إليه .

قلت موضحا :

- عندما تنتقلي إلى الرتبة (س) يمكنك دخول قصر كبيرة السحرة، ومن ثم الحصول على كتاب التعويذات أو حفظ التعويذة و...

قاطعتني :

- ثم اقرأ عليك التعويذة ليعمل البئر وتُفتح الثغرة وتقفز داخل البئر .

قلت في لهفة :

- نعم ، هو كذلك .

صمتت قليلا ثم قالت :

- لا تكن طفلا ، الأمر ليس بهذه السهولة، وحتى إن كان الأمر سهلا ، لماذا تعتقد أنني سأوافق ؟

قلت متوسلا :

- لأنك من عالمي ، ولأنك لا تقبلين أن تتخاذلي عن مساعدة شخص قد يكون مصيره الذبح ، إن رفضتي مد يد العون لي ، هل يسرك رؤيتي اذبح في ساحة الجزيرة ؟

قالت في يأس :

- أووه يا حبوب ، أنت لا تعلم شيئا .

قلت :

- ماذا تقصدين ؟

قالت وهى تهز قدميها :

- كي انتقل إلى الرتبة (س) لابد أن أثبت لمستشارة الملك أنني من مواليد الجزيرة ، ولدت على أرضها .

قلت مفكرا :

- وان نجحتِ في ذلك ؟

قالت :

- إن نجحتُ فسوف يحدد لي مستشار الملك مقابلة مع كبيرة السحرة لتجري لي اختبار في السحر ، إن اجتزته صرتُ من طلاب مدرسة السحر بالقصر ، لكن الأمر صعب للغاية .

قلت :

- أنت لا بأس بكِ في السحر ستنجحين .

قالت :

- وكيف أثبت أنني من مواليد الجزيرة ؟

ولمّا قرأتُ الصمت والحيرة والحزن في وجهي تركتني وتوجهتْ إلى غرفة مجاورة وعادت بعد قليل تحمل مشروبا وقدمته لي ، شكرتها ورشفت رشفة وقلت :

- أعتقد أن هناك فتيات غادرن الجزيرة ولم يعدن، تستطيعين انتحال شخصية واحدة منهن.

قالت في مرح :

- هذا ليس كافٍ يا نن العين .

قلت :

- لماذا ؟

قالت :

- لا أملك أوراقا تثبت ذلك، وفى حالة عدم وجود أوراق لابد من إحضار ضامن معه أوراق يثبت صحة كلامي ، ضامن يمتُ لي بصلة قرابة من الدرجة الأولى ، مثل أخي ، أبي ، أمي .

ثم نظرتْ إلى النافذة شاردة وعادتْ تقول :

- اسمعني ، أعرف سيدة كانت تنتظر عودة ابنتها يوم أن دخلنا الجزيرة ، يمكننا أن نغريها بالمال لتقدم لنا هذه الخدمة .

قلت وقد دقّ قلبي من الانفعال :

- هل تثقين بها ؟

أجابت في يأس :

- كلا ، فلم أقابلها إلا مرة يوم أن دخلنا الجزيرة ، كانت تبكى ولما اقتربت منها أخبرتني أن لها ابنة في مثل عمرى لم تعد منذ سبعة أعوام وهى تنتظر دون يأس عودتها كل هذه الأعوام .

قلت :

- هل تعرفين أين تقيم ؟

قالت :

- اعتقد ذلك ، نسأل خلف منطقة الغابات في أكواخ الفقراء .

بعد يومين كانت عربة خشبية تقلنا إلى منطقة الغابات ، عربة خشبية يجرها حصان هزيل اتجهتْ بنا جنوبا ، وكنت

أعرف الطريق ، فهو نفس الطريق الذى يقلنا إلى منطقة البوابة ، وبدتْ لنا منطقة الغابات على الجانب الأيمن من الطريق ، كانت الأشجار متشابكة شاهقة كأنك ترى جنة صغيرة ، وبينما نسير جنوبا في الطريق الرئيس المؤدى للبوابة انحرف بنا السائق يمينا إلى طريق حجري ضيق وكان المنظر فاتنا حقا ، طريق تصطف على جانبيه الأشجار بينما تتشابك بالأعلى ، فترى سماء مكونة من أغصان الأشجار ، وقد راقت لي هذه اللوحة الفنية وصرفتني قليلا عن هواجسي ومخاوفي ، وتذكرت ما يردده أهل الجزيرة من أن عالمنا تلوث بينما جزيرتهم حافظتْ على ما منّه الله عليهم من طبيعة وهواء، كنت أؤمن بداخلي أن ذلك لا يخلو من المنطق ، فهم بطريقة أو بأخرى على حق ، نحن من تصارعنا من أجل ، من اجل ماذا ؟!

لا أعلم ، أيقظني من شرودي منظر البيوت والأكواخ التي بدت من بعيد في منطقة متسعة ، أكواخ وبيوت ترتص بشكل عشوائي تفهم من النظرة الأولى أن أهلها فقراء ، توقفتْ بنا العربة في أحد الشوارع ونظر إلينا السائق في شك قائلا :

- وصلنا .

وما إن ابتعد السائق نظرتُ إلى جيفان التي راحت تنظّم شعرها الذي بعثره الهواء وقالت :

- اسمها أم لينا ، تعمل في حمل الأحطاب .

قلت بينما نحن نسير بين الأكواخ والبيوت :

- أين تقيم ؟

قالت في مرح :

- أعلم أنها تقيم في منطقة الغابة .

قلت ساخرا :

- تبهريني دائما بمعلوماتك .

قالت :

- من الأفضل أن تخرس يا حبيب القلب وتبحث معي عن تجار الأخشاب .

عبرنا منطقة الأكواخ والبيوت سائلين عن سوق الأخشاب فدلتنا عليه صبية كانت تحمل قطعة خشب تفوقها طولا عن السوق وانحرفنا في سيرنا جنبا في حارة ضيقة حتى وصلنا إلى السوق، رائحة الفقر تفوح من كل شيء ، الوجوه المريضة الفقيرة الكادحة والظهور المقوسة والأقدام المشققة ولكن ما أثار حنقي انى رأيت أحد الجنود يضرب بالسياط رجلا كهلا سقطت منه كومة من الأخشاب كان يحملها فوق ظهره، كان الرجل يتألم ويصرخ ويستغيث طالبا من الجندي الرحمة ، مالتْ نحوى جيفان وقالت في تأثر :

- أعتقد أنهم السجناء ، هنا يأتون بمن حكم عليهم بالأعمال الشاقة .

وقبل أن أتحدث مرّ أمامنا أحد التجار فسألته جيفان عن أم لينا فصمتَ وحكّ رأسه الأصلع وقال :

- أم لينا ؟! لا أعرف واحدة بهذا الاسم هنا .

قالت جيفان :

- لها ابنه غادرت الجزيرة منذ سبع سنوات .

قال الرجل :

- آها ، تقصدين السيدة قمر ؟

هممت أن أقول شيئا لكن جيفان سبقتني قائلا :

- أعتقد أنها هي .

أشار لنا التاجر إلى عربات كثيرة تقف بعيدا عليها أكوام من الأخشاب

وقال :

- هناك ، بين عمال حمل الأخشاب .

كانت سيدة عجوز تجاوزت الستين لكأنها تحتفظ ببقايا جمال قديم استعمره الزمن، اقتربنا منها فأجفلتْ وكادت حزمة الأخشاب تسقط من فوق رأسها فأسرعتْ جيفان قائلة :

- اهدئي سيدة قمر .

قالت السيدة في زعر :

- هل تعرفينني ؟

أجابت جيفان :

- ألا تذكريني ، أنا من قابلتك حينما انتظرتِ ابنتك لينا طويلا عند البوابة .

قالت السيدة وهي تتلفت حولها :

- وماذا تريدان ؟

قلت :

- يمكننا التحدث في مكان آخر .

قالت السيدة :

- ومن يدفع لي راتب اليوم ؟

قالت جيفان مشيرة نحوى :

- صديقي الثرى سيتكفل بكل شيء .

ألقتْ السيدة حزمة الأخشاب إلى الأرض ، فصاح التاجر السمين من بعيد قائلا :

- أيتها الكسولة لن تنالي أجرا اليوم .

تجاهلته السيدة قمر وقالت وهى تشدنا بعيدا قائلة :

- هيا بنا .

في إحدى الحانات الفقيرة جلسنا حول مائدة مستديرة وكانت السيدة قمر تنظر إلى الدجاجة واللحوم التي أنزلها لنا نادل الحانة في جشع فقلتُ في عطف مشيرا إلى الطعام :

- كله لكِ ، وما يزيد يمكنك الاحتفاظ به .

نظرتْ إلينا السيدة في خوف، فقالت جيفان :

- ومائة دولار أيضا من صديقي الثري.

صمتت السيدة وهى تحاول إخفاء لعابها كأنها تطلب توضيحا ، فقالت جيفان :

- مقابل خدمة .

قالت السيدة في غباء :

- خدمة ؟! هل أنتما تاجران تريدان مني حمل أخشابكما .

قالت جيفان :

- الأمر أيسر من ذلك .

لم تمد السيدة يدها إلى الطعام كأنها تريد أن تطمئن لنوع الخدمة أولا فقلت :

- الطعام خارج الصفقة، تناولي طعامك .

زال الخوف من على وجهها وبدأتْ تلتهم في جشع ، قالت جيفان :

- أنت تمتلكين أوراق رسمية تثبت هويتك ؟

قالت وهى تقضم قطعة من اللحم :

- نعم .

أكملت جيفان :

- أنتِ أم لينا ، وأنا لينا ، هذا ما نريد إثباته أمام كبير المستشارين .

توقفتْ السيدة عن تناول الطعام وتجمدت ملامحها ، فقلت :

- أخبرتك أن الطعام خارج الصفقة.

قالت السيدة :

- أنا لا أفهم حرفا .

قلت موضحا :

- الأمر بسيط ، مائة دولار وتقولين أمام كبير المستشارين أن صديقتي هي ابنتك لينا .

صمتت قليلا لكنها لم تتوقف عن تناول الطعام هذه المرة ثم قالت :

- ولماذا ؟

قالت جيفان :

- هذا ليس من شأنك.

قالت السيدة :

- **مائة دولا مقابل الخدمة ، ومائة أخرى مقابل أنه ليس من شأني أن أعرف ما تنويان القيام به ، إذن المجموع ثلاثمائة دولار.**

قالت جيفان :

- **ومين أتت المائة الثالثة ؟**

أجابت السيدة قمر في برود :

- **أجر عدم وشايتي بأنكما متسللان غريبان لا تحملان أوراقا.**

الفصل الرابع عشر

(جيفان)

لمحتُ الارتباك على ملامح فوزي حين أخبرتنا السيدة أم لينا أنها تريد مائة دولار إضافية مقابل سكوتها، لكنني كنتُ بيني وبين نفسى أعلم أنها ستصمت ، سيدة عجوز مثلها مكلومة في ابنتها ولا تحصل على قوت يومها إلا إذا حملت أطنانا من الأخشاب على ظهرها لابد أنها تحتاج إلى المال .

وبعد ثلاثة أيام كنت أتوجه معها إلى قصر كبير المستشارين، كان العدد ضئيلا، جلست معها في باحة الانتظار على مقعدين، وأمامنا شاب وفتاة صغيرة بجوار أمها وثلاث صبية في انتظار السماح لنا بدخول حجرة الإدارة، والطفلة التي كانت بجوار أمها في سن العاشرة تمسك بيدها بعصا صغيرة ملونة تلّوح بها في الهواء كمحاولة منها لجذب الانتباه أو محاولة أن تبدو كساحر مخضرم ، فابتسمتُ ورأيتُ الجندي يشير للفتاة بعد أن نادى اسمها فجذبتها والدتها من يدها ودخلا الحجرة ، كنت واثقة من نفسى لأنى تمرنتُ على أداء بعض الحيل السحرية التي من شأنها تجعلني اجتاز أي امتحان ، وكنت على يقين أني سأنجح لكن ما يقلقني حقا هو أن يشك

كبير المستشارين في أمري أو أن تتلعثم السيدة أم لينا أمامه فيأمر بسجننا، وسألت نفسى لماذا أورط نفسى في هذه المغامرة من الأساس ؟! أقصد أين كان عقلي حين سمحت لنفسي أن أعرّضها للسجن؟ وربما الذبح، لكنى تعودت ألا أرد شخصا أستطيع إنقاذه، هذا الشاب تم توريطه ولا حيلة له في مغادرة الجزيرة سوى هذه الحيلة، ماذا لو فشلنا، الإجابة سهلة طبعا سأذبح بينما يُحكم على فوزي بالبقاء هنا طيلة حياته، في الحقيقة كنت أشفق عليه فهو بدا لي قليل الحيلة منذ أن عرفته، أستطيع أن أتحول إلى بومة إن ساءت الأمور، وبدأت أتصور كيف سيكشف كبير المستشارين أمرنا، تتلعثم السيدة فينظر كبير المستشارين لي في ريبة، ويقول :

- متسللة كاذبة تحاول خداعي .

ثم يشير للجنود فيلتفوا حولنا ، ثم أتحول إلى بومة وأطير هاربة خارج القصر وأعود إلى بشريتي وهى حيلة ساذجة اذا ما قُورنت بتعازيم السيدة شمس، أفقتُ من هذا الفأل السيء، وعدت أشجع نفسى، ستنطلي الحيلة على كبير المستشارين وسيسمح لي بالانتقال من الرتبة (ش) إلى الرتبة (س)، وقتها يمكنني دخول القصر، القصر المقدس، قصر السيدة شمس كبيرة السحرة وأتعلم من علمها سيكون بإمكاني الاطلاع على كتاب التعويذات، تعويذة البئر والثغرة ، سأحفظ التعويذة قطعا أو سأسرق الكتاب، فمن يمتلك هذا الكتاب يصير أقوى من الملك نفسه ويتحكم في مستقبل الجزيرة ، أعلم أن سر إجلال الملك للرتبة (س) لأنهم من بنوا سور

الأشجار المنيع وسحروا الثعابين، هم إذن سلاح لا يمكن إغفاله في تثبت حكم الملك حاشيته، وصحوت من أفكاري على صوت أحد الجنود ينادي باسم أم لينا فانتبهت من غفلتي وتقدمتْ السيدة تسبقني نحو باب الغرفة ، كانت الغرفة عسكرية في كل شيء في الأثاث واللون والرائحة، يجلس كبير المستشارين ضخم الجثة أبيض الوجه كقطعة من الثلج خلف منصة صغيرة بحجم المكتب ، وترتص أمامه كتب وأقلام خشبية وعلب مملوءة بالحبر الملون ، وتظهر فوق رأسه مباشرة صورة مثبتة على الحائط للملك وهو يمسك بثعبان ضخم في يده كأنه يداعبه ، وعلى يمين كبير المستشارين جندي وعلى يساره جندي ، يمسك كل منهما بسيف كأنها يتأهبان للانقضاض على عدو .

أشار كبير المستشارين إلى السيدة دون أن يتحدث فقالت في ثبات :

- سيدى ، هذه ابنتي الوحيدة لينا .

قالتها وهى تشير نحوى ثم أكملت في ثبات تُحسد عليه :

- غادرتْ لينا الجزيرة منذ سبع سنوات لكن رحلتها لم تكن سارة في عالم الأشرار، فذاقت وبال ظلمهم وتنمرهم ، وقتها علمتْ كم كانت تحيا هنا في نعيم وأمان وعدل وكرهت عالم الأشرار ، لكنها عادت خاوية بعد أن فقدت أوراق هويتها وحين وصلتْ للجزيرة أصرتْ أن يكون لها دورا في حماية الجزيرة وأقسمتْ أن تكون ساحرة في خدمة ملك الجزيرة وكبير

المستشارين وأهلها، وهى ذكية حاضرة الذهن قاسية القلب يجرى في دمها إكسير الشباب والحماس وقد شجعتها لتحقيق رغبتها إيمانا منا بواجبنا نحو ملكنا وجزيرتنا و...

أشار كبير المستشارين بيده الغليظة كأنه اكتفى بما سمع، فصمتت السيدة وأشار نحوي دون أن يتكلم بينما يقلب بأصابعه أوراق هوية السيدة أم لينا فقلتُ من فوري :

- سيدى لم أعلم مدى ما نعيش فيه من قوة وأمان وعدل إلا حين رحلت إلى عالم الأشرار، وعشتُ بينهم سبع سنوات وأردت فقط أن أرد بعض الجميل وقد تعلمتُ بعض الحيل السحرية استعدادا للامتحان و..

أشار بيده كي أصمت ، فصمت ، ومازال يتفحص الأوراق ، وكنت أظن أن سيدى هو من يجرى لي امتحان السحر سريعا قبل أن يحيلنا إلى كبيرة السحرة، لكن هذا لم يحدث لأنه قام بغمس قلم خشبي في علية حبر وكتب شيئا وقدم لنا الأوراق دون أن يتكلم وحين نظرت في الأوراق وجدته كتب جملة قصيرة اهتز لها قلبي طربا وكان ما كتبه :

(يُسمح لها بالانتقال من الرتبة ش إلى الرتبة س حال موافقة السيدة شمس)

ثم خرجنا من الغرفة إلى بهو الانتظار فقادنا أحد الجنود إلى غرفة أخرى بها ضابط وسيم قسيم قاسى الملامح يجلس خلف مكتب خشبي في حجرة ضيقة، قدمتُ له الأوراق فنظر إلى

السيدة أم لينا نظرة سريعة لكنه أطال النظر لي فارتبكت قليلا ثم دون شيئا على الأوراق وقال :

- يمكنك مقابلة السيدة شمس يوم السبت بعد شروق الشمس .

وأعاد لنا الأوراق وغادرنا .

كان فوزي في انتظارنا في الشارع وسط الازدحام حتى إذا ما رآنا هرع إلينا في لهفة ، فقدمت له الأوراق فانفرجت أساريره وأخرج من جيبه مائة دولار وقال للسيدة أم لينا :

- هذه المائة الثانية وبعد اجتياز اختبار السحر تحصلين على المائة الثالثة .

لكن السيدة اعترضت وأصرت على أن تحصل على المائة دولار الإضافية الآن ، فأومأت برأسي لفوزي فأنقدها المائة الإضافية وأشار لعربة خشبية ركبت فيها السيدة ودسّ في يد السائق دولارا وأمره بتوصيل السيدة إلى منطقة خلف الغابات، وركبنا نحن عربة أخرى وتوجهنا حيث أقيم .

حين دخلنا البيت كانت الساعة الرابعة بعد الظهر وكانت الفرحة بادية على وجه فوزي وتقدم نحوى وأمسك بيدي وضغط عليها فارتجفتْ أوصالي ودنا منى قائلا :

- لن أنسى هذه الخدمة ما حييت .

كان على وشك أن يقبلني من فرط سعادته ، تسارعتْ دقات قلبي وأحسست بضعفي فجذبتُ يدي من يده وقلت سريعا :

- لا عليك يا حبوب .

قال وهو يجلس على مقعد خشبي :

- هل مقابلة السيدة شمس صعبة ؟

قلت وانا أخلع حذائي :

- لا أعتقد، الصعوبة كانت في مقابلة كبير المستشارين أما مقابلة السيدة شمس فلا خطر فيها.

ولما رأيت الغباء مرسوما على وجهه الأسمر قلت :

- على أسوأ الظروف إن رسبت في امتحان السحر فلن أسجن أو اذبح ولن يُفتضح أمرك ولن يمس السيدة أم لينا سوء .

قال وهو ينظر إلى حذائي الملقى بعيدا :

- وكم نسبة اجتيازك للامتحان ؟

قلت وأنا أنهض لأتوجه إلى المطبخ :

- لا أعرف ، لكن لا تقلق يا حبوب سأنجح .

كنت جائعة فوضعت بقايا طعام على النار وأحضرت ثمرتين من المانجو ، وثمار وفواكه وخضروات الجزيرة تختلف عن بلادنا، فأنا التي نشأت في الهند بلد الزراعة والحقول لم أرى أبدا في بلادي أي فواكه أو خضروات تشبه ما في الجزيرة، الفواكه هنا طازجة كبيرة شهية كفيلة أن تزيل عنك أي جوع من مجرد رائحتها .

عدتُ حيثُ يجلس فوزي وقدمت له ثمرة فأخذها وقال :

- هل يمكنك حفظ التعويذة أو سرقة كتاب التعويذات ؟

قلت :

- أنت تسبق الأحداث، الأمور لا تسير بهذه السهولة، وأنا أضمن نجاحي في الامتحان وحتى إن حفظت التعويذة أو سرقت الكتاب فإن ما يرعبني حقا هو كيف سندخل منطقة الأصنام والآبار ، فهي محاطة بجنود الحراسة ليل نهار .

قال وهو ينظر في عينيّ :

- هذه فرصتي الوحيدة ولن أفرط فيها .

ثم صمت وتوقف عن قضم ثمرة المانجو وقال :

- إلا اذا تخليتي عن مساعدتي .

وقلت وأنا أمدد كلتا قدمي على مقعد مقابل :

- أتعلم لماذا أريد مساعدتك ؟

قال في غباء مطبق :

- لماذا ؟

قلت كاذبة :

- لأنك قدمتي لي مساعدة ، فحين أملك الكتاب سوف أصير سيدة الجزيرة وهذا لم يخطر ببالي يوما، لكن بامتلاكي الكتاب يمكنني التخلص من السيدة شمس ، سأغير وجه الحياة على هذه الجزيرة الملعونة .

قال ومازال على وجهه الغباء :

- كيف ؟

قلت موضحة :

- إن هذه الجزيرة في ظاهرها القوة والعدل وفى باطنها الضعف والظلم، أرأيت كيف يعيش الفقراء في منطقة الأكواخ خلف الغابات، وهل خُلق الناس ليصيروا عبيدا على أيديهم أوشمة كالعبيد.

لا أعرف كيف كنتُ أبدو وأنا أقول هذه الكلمات لكني نظرت إليه فوجدته مأخوذا من التأثر ثم قال :

- أعتقد ثمة سبب آخر يدفعك دفعا لمساعدتي .

ارتبكتُ حقا ، هل يبدو على وجهى ما أخفيه حقا ، أنا لا أريده أن يعرف

ثم سمعته يقول :

- كثيرا ما تفضحنا عيوننا .

قلتُ وقد تسارعتُ دقات قلبي :

- لماذا تظن أن هناك سببا آخر ؟

وهنا شممتُ رائحة طعام يحترق فقمتُ مفزوعة ناحية المطبخ .

بعد يومين عند شروق الشمس كنت أتوجه مع فوزي إلى قصر كبيرة السحرة، تركني فوزي بالقرب من القصر لأنه غير مسموح لأحد بالعبور، أوقفني أحد الجنود فأحاطت بي مجموعة أخرى من الجنود فأبرزتُ لهم الأوراق ، تفحصها أحدهم ثم سمح لي بالدخول، لا أنكر أن للقصر رهبة وهيبة لأنني ارتجفت وأنا أعبر باب السور وبدا لي القصر مهيبا وذكرني بقصور السحرة في أفلام الخيال العلمي، مبنى شاهق الارتفاع ملون الجدران له نوافذ وشرفات يصعب معرفة عددها

،وبالأعلى على الواجهة رأيت مجسما بالأحجار يرمز لثعبان ضخم مرعب، وخلف ذلك المبنى المهيب مبنى آخر متسع على شكل مستطيل ، عرفت من نظرتي الأولى أنه مدرسة تعليم السحر، صعدت ثلاث درجات ثم مشيت في طرقة طويلة، رأيت في نهايتها بومة أشارت لي بجناحها حين رأتني، أشارت لي ناحية أحد المقاعد فجلست، ولم أرتبك طبعا وتوقعت هذا ، ولم تطل جلستي وسمعت البومة تقول بصوت إنسان :

- هيا .

قالتها وهى تشير ناحية الباب الخشبي المطرز بالحُلي والألوان ، وقفت أمام الباب فانفتح من تِلقاء نفسه ، وحين دخلت انغلق الباب، ووجدت نفسى في حجرة متسعة، متسعة جدا ، مليئة بالأثاث والأقمشة المنسدلة على المناضد ، وستائر وشموع وخزائن كتب ، ورأيت كبيرة السحرة تجلس على مقعد مطرز بثعابين أو خُيل لي ذلك، توقفت مبهورة فأشارتْ لي الساحرة أن اقترب فاقتربت وأشارت لي أن أجلس فجلست ، ثم تحركتْ الأوراق من يدى وطارتْ في الهواء وأخذت تتقلب أمام عينيّ كبيرة السحرة .

كان وجه السيدة شمس لا يستقر على ملامح معينة، الحواجب تظهر وتختفى، عيونها تتسع وتضيق، شعرها يتحرك كمخالب، والأوراق تتقلب أمامها في الهواء ورقة تلو الأخرى ، وبعد لحظات طُويت الأوراق وهوت إلى سطح المنضدة أمامي ، ومدت لي سيدتي يدها تصافحني فمددت يدي لأجد أنني أقبض على يد أرنب ، نعم تحولت يد سيدتي ليد أرنب، لم أرتبك وقد

أدهشها ذلك قليلا ، فقالت لي بينما يتحول وجها إلى وجه شيطان بقرون أعلى الرأس :

- ألا تخافين ؟

أجبت في ثبات بعد أن حولتُ رأسي لرأس أرنب محاولةً مني أن أبدو أمامها مشروع ساحرة مبتدئة واحتفظت بجمسي كما هو :

- لا أخافك سيدتي لكنى أحترمك وأوقرك وأعرف قدرك .

عاد وجهها لطبيعة البشر وقالت وهى تبتسم :

- كان مجرد اختبار، يعجبني ذكاؤك يا فتاة ، سوف تزيل وصيفتي وشم يدك ليحل مكانه وشم الرتبة (س)، وسوف تلتحقين بالصف النهائي مباشرة دون دراسة مقررات الصفوف الأولى .

دقّ قلبي فرحا وشكرتها في أدب فقالت لي :

- هل يمكنك الحضور يوميا بعد شروق الشمس أم ترغبين في الإقامة هنا ؟

قلت مسرعة :

- كم يسرني أن أمكث هنا لأدرس صباحا وأكون في خدمتك بقية اليوم .

هذا ما خططت له ، الإقامة في القصر لأكون بالقرب منها ومعرفة سر هذا القصر ، فلربما وثقتْ في وجعلتني مقربة منها ، سمعتها تقول :

- من الغد يمكنك إحضار أغراضك والإقامة في جناح الطالبات .

أومأت برأسي موافقة فقالت بعد أن استطال أنفها نصف متر :

- اليوم هو يوم الاستكشاف، سترافقك وصيفتي للتعرف على زميلات الصف، ومعرفة غرف الطالبات والفصول وأدوات السحر .

مرّ شهر تقريبا بعدما تغير وشم يدى ونلتُ وشما ينتمي للرتبة (س) وخلال هذا الشهر كنت أدرس السحر صباحا من شروق الشمس حتى الظهيرة ، ثم تصحبنا سيدتي إلى منطقة الوادي وهى منطقة شاسعة نقضى فيها ساعتين نتدرب عمليا على ما تعلمناه من السحر، وكنت أبدي تفوقا أثار إعجاب سيدتي شمس وحسد زميلاتي، كثيرا ما كنت أتودد للسيدة وأقوم بخدمتها حتى وإن لم تطلب ذلك ، فتبتسم لي وتخفي حواجبها وتقول :

- أنتِ فتاة من طراز نادر ، ذلك الطراز الذي يحب السحر من أجل السحر .

نظرتُ في عينيها اللتين صارتا عيني بقرة وقلت في احترام جم :

- لطالما حلمتُ أن أكون بالقرب منك وفى خدمتك يا سيدتي .

هنا استرختْ سيدتي في جلستها وكشفتْ عن ساقها فرأيت جرحا مقززا يتسع ويضيق ويكاد الصديد يقطر منه، غالبتُ اشمئزازي واقتربت منها، وجلستُ على الأرض بجوار قدمها المجروحة ورحت أدلك ذلك الجرح الغريب، فلم تتكلم وشعرت بيدها تمسح على رأسي في حنان، ووددتُ أن أسأل عن سبب جرحها لكنى لم أجرؤ، وكأنها عرفتْ ما يجول بخاطري فقالت :

ـ كنت في عالم الأشرار وأصبت بهذا الجرح الذى لم تفلح فيه حيل السحر ولا الأطباء ، لعلها لعنة العالم الشرير .

قلت مسرعة :

أعرف عشبا هنديا كانت قبائل الهند القديمة تداوى به الجراح .

قالت سائلة :

- كيف عرفتِ ؟

قلت في هدوء :

- عشتُ سنوات في دولة الهند حين سافرت إلى العالم الشرير وتعلمت منهم أشياء ، ثم استأذنتُ منها وغادرتُ إلى حجرتي وعدتُ بالعشب الأخضر الداكن اللزج وبدأت أمسح جرح سيدتي وأنا أضع القطرات عليه ، فتألمتْ قليلا ثم سرعان ما شعرتْ بالراحة وابتسمتْ .

في الحقيقة كان هذا العشب يُستخدم كمخدر مؤقت للجروح وكسور العظام ، وهو عشب لا طائل منه سوى تسكين الألم لساعات قليلة .

عندما أحضرت لها العشب المسكن لم يكن ثمة تخطيط منى لشيء لكن ذلك الفعل كان مفتاحي للوصول إلى كتاب التعازيم ، فلم يمضِ أسبوع حتى طرقتُ كبيرة الوصيفات باب حجرتي وطلبت منى المثول أمام سيدتي شمس ، فأسرعت بثياب نومى ودلفت حجرة نومها، هي المرة الأولى التي أدخل فيها حجرة العجائب هذه، رأيت سيدتي ترقد على سرير متسع عليه مفرش مزركش وتحوطه هاله من الحرير الناعم بينما على الجانب الأيمن تتراص رفوف خشبية ملونة من الأرض حتى سقف الغرفة ، تكاد لا ترى الرفوف الخشبية من كثرة ما تحمله من كتب عتيقة، تسارعت أنفاسي حين رأيت تلك الكتب المهترئة كبيرة الحجم كثيرة الصفحات وبدون عناء علمت أن من بينها كتاب التعازيم .

أشارتْ سيدتي نحو قدمها فأسرعتُ وأحضرتُ العشب الأخضر المسكن ورحت أضع القطرات على الجرح وأدلك بأناملي في حنان، ثم نظرتُ إليها فرأيتها تسافر في نوم عميق ، ارتعدتْ فرائصي ونهضت ، هل حانت اللحظة ؟ هل أبحث عن الكتاب الآن ؟
أسرعت بخفة ناحية الرفوف ورحت أحرك الكتب باحثة عن الكتاب المقصود، كانت عناوين الكتب :

- تعليم السحر للمبتدئين .
- السحر لطلاب المرحلة الأولى .
- حيل جديدة .

- العصا الكنسية .
- ترويض ثعبان كوبرا .

وفجأة سمعت صوتا رنانا قويا يقول :

- ماذا تفعلين ؟

الفصل الخامس عشر

(جيفان)

حين غابتْ سيدتي في نوم عميق وقفت أمام الرفوف ورحت أحرك الكتب باحثة عن الكتاب وفجأة سمعت صوتا رنانا قويا يقول :

- ماذا تفعلين ؟

هبط قلبي بين قدمي واستدرتْ لأجد سيدتي شمس أفاقت من نومها تحدق في وجهى فقلت مرتبكة :

- سيدتي حدثتني نفسى أن أسهر بجوار قدميك للصباح، وحين وجدتك في نوم عميق رأيت أن أسلي نفسى بالقراءة.

قالت بعد أن عادت للوراء واستلقت على سريرها :

- فتاة طيبة ، لا داع للسهر ، يمكنك الرحيل الأن .

عدتُ أعرض عليها خدماتي لكنها أبت ، وطلبت أن أخلد للنوم لأن درسا عمليا ينتظرني صباحا بعد شروق الشمس .

وبعد أسبوع ذات ليلة كنت ساهرة أدلك قدم سيدتي بعد أن أدمنتْ ذلك العشب الأخضر، والنسيم وقتها كان يحرك ستائر

الحجرة والمصابيح الزيتية تتمايل بفعل النسيم فتخلف الظلال أشباحا تتأرجح في أرض وسقف الغرفة ، قلت :

- سيدتي متى تقومين بتدريس كتاب التعزيم لنا ؟

قالت وهى تبتسم :

- يا صغيرتي هذا الكتاب ليس من المقرر دراسته ، وساد صمت بيننا وشجعت نفسى قائلة :

- هل ذلك بسبب صعوبة تعازيمه ؟

قالت :

- هذه التعازيم هي سر بقاء الجزيرة ، وسر قوتها وتعازيم البئر والثغرة والسيطرة على ثعابين الحراسة التي تسكن سور الأشجار، وثعابين الحجرة التعذيب الثعبانية .

سألتها وأنا أصطنع الغباء :

- طبعا سيدتي كبيرة السحرة ذات المقام الرفيع تحفظ كل هذه التعازيم .

قالت :

- إنها لا تُحفظ .

ثم صمتتْ ورأتْ الغباء يقطر من عيني فقالت :

- هذا الكتاب بالذات لا يُحفظ، فالذي قام بتأليف هذا الكتاب أجرى عليه تعزيمه عدم الحفظ ، فمن أراد التعازيم عليه أن يُحافظ على الكتاب، فقبل خمسة قرون وضع المؤلف هذه التعزيمة بعد أن فرغ من تأليف الكتاب .

قلت في غباء حقيقي هذه المرة :

- سيدتي ... لا أفهم .

حركتْ قدمها المجروحة وقالت :

- هذه التعازيم للقراءة فقط ، إن حاولتِ حفظها فستطير من عقلك وذاكرتك بعد ثلاث ثوان ، وهذا هو سر قوتها، تخيلي أن عددا كبيرا من الناس يحفظونها، وقتها يستخدمها كل مَنْ يحفظها في صالحه، ولا طريقة لمعرفة التعازيم إلا الاحتفاظ بالكتاب ، وهو النسخة الوحيدة التي نتوارثها منذ خمسة قرون .

قلت في مكر :

- لكن أعتقد أن الأمر لا يصعب على سيدتي كبيرة السحرة وتستطيعين حفظ أي تعويذة إن أردت .

أشارتْ ناحية أحد الأدراج وهى تبتسم فانفتح الدرج من تِلقاء نفسه ، ورأيت الكتاب يطير في الهواء ويستقر أمام وجهى وسمعتها تقول :

- هيّا .

فمددتُ يدي وأمسكت بالكتاب، الآن الكتاب بين يديّ، لمعتُ عيناي وشعرت أنني في حلم ، كتاب عتيق ثقيل غلافه من جلد الحيوانات يغلب عليه اللون الأزرق وقد نقش على غلافه عنوان قصير اهتزّ له قلبي وأنا اقرأ اسم الكتاب بصوت مسموع (كتاب التعازيم السرية) .

سمعت سيدتي تقول :

- أمامك خمسة دقائق ، افتحي أي صفحة وحاولي حفظ سطرٍ واحد .

ارتعشتُ وفَتحت الكتاب فظهرتْ أمامي صفحة رقم سبعة عشر ، وبدأت اقرأ أول سطر في تلك الصفحة ، ورحت أخزّن في ذاكرتي وأكرر بصوت عالٍ مرة وصوت منخفض مرة ، وبعد خمسة دقائق قالت سيدتي :

- أغلقي الكتاب يا لينا وضعيه مكانه .

ففعلت ما أمرت به سيدتي ، ثم قالت لي :

- ها ، ماذا حفظتِ ؟

هممت أن أتكلم فضاعت المفردات وتبخرت الكلمات من عقلي وتلعثم لساني ولم أستطع أن أتذكر السطر الذى حفظته وسمعت نفسى أتكلم بكلام غير مفهوم على غرار ك

- م انااا س و

هنا سمعت سيدتي تضحك وهى تستمتع بما ترى وقالت في شفقة :

- يمكنك الآن الخلود للنوم يا صغيرتي .

استأذنتُ من سيدتي للخروج من القصر لمدة ثلاث ساعات فأذنت لي بعد أن أخبرتها انى أريد الاطمئنان على أمي، واتجهتُ مسرعة إلى فوزي، طرقت باب حجرته ، وبدا شاحب الوجه من فرط التفكير، وتهلل وجهه وصافحني ضاغطا على يدى فارتبكت ، ودلفت لداخل الغرفة وخلعت حذائي والقيت به

بعيدا ومددت قدمي إلى مقعد خشبي بعد أن جلست على طرف السرير وقلت :

- اسمع يا حبوب ، لقد عثرتُ على الكتاب، ولا يمكن حفظ ما به من تعويذات ، الأمور معقدة أكثر مما توقعت، ولا حل إلا سرقة الكتاب .

كان فوزي يريد أن يستوقفني ويسأل أسئلته البلهاء وكنت أعلم أن بداخله الكثير من الاستفهامات لكنني أكملت :

- سأصنع حيلة لسرقة الكتاب، سوف أخبر سيدتي كذبا أنه لابد أن تنام ونافذة غرفتها مفتوحة حتى يُشفى جرحها، فلابد من تجدد الهواء في غرفتها حتى يطول مفعول العشب الأخضر، وسأتحول في نفس الليلة إلى بومة وأدخل حجرتها عبر النافذة المفتوحة وأسرق الكتاب لأطير به تجاه منطقة الآبار والأصنام .

ثم نظرتُ إلى عينيّ فوزي وقلت وأنا أضغط على كلماتي :

- وقتها تكون يا حبوب في انتظاري بجوار البئر الأوسط ، سأقرأ التعزيمة لتعمل الثغرة وأعيد الكتاب لغرفة سيدتي

كاد فوزي أن يتكلم لكنى أشرت إليه أن يخرس وقلت :

- المشكلة أن دخولك منطقة الآبار والأصنام هو نوع من المستحيل ، أنتَ تعلم كمية الجنود الأشداء الأقوياء الذين يحيطون بالسور لحماية الآبار والصنم .

هنا نفذ صبره وأراد أن يقاطعني لكنى أجهزت عليه قائلة :

- لا تقلق يا نن العين ، لقد علمتُ من وصيفة السيدة شمس أن القصر يستعد لمحاكمة شخص ما استطاع التسلل إلى الجزيرة، ستكون المحاكمة بعد أسبوع من الأن ، وعندئذ سيقوم كبير الجنود باستدعاء جنود منطقة الآبار والأصنام إلا جنديا واحدا .

ثم ملتُ نحو فوزي الذي بدا يرتعش كورقة شجر في يوم عاصف وقلت :

- يمكنك مراوغة الجندي والدخول ، ستجدني بجوار الأصنام أمام البئر الأوسط .

ابتلع ريقه واهتزتْ يداه وهو يجفف عرقا وهميا ، فقلتُ :

- لا مجال للفشل، نصف ساعة فقط ويتم الأمر ، وأي خطأ سوف يعرضنا معا للذبح وان كنت أتوقع أننا سننال عقاب أكبر من الذبح .

هنا شعرت أنه بدأ يفهم غير أنه سألني سؤالا أحمقا وقال :

- من ذلك المتسلل الدخيل ؟

قلت بدون اكتراث :

- يا له من سؤال ! هذا لا يهم ، ما دخلنا بالمتسلل ، إن ما يهمنا أنها فرصة ، فرصة انشغال الجنود وكبيرة السحر بالمحاكمة .

قال :

- كيف إذن أراوغ الجندي ؟

قلت وأنا أنهض وأعدّل من وضع شعرى الذى تناثر :

- يمكنك قتله إن فشلت في مراوغته .

قال مفزوعا :

- قتله ؟!

قلت وأنا أنظر في مرآة صغيرة أخرجتها من حقيبتي :

- أنتَ تمتلك مسدسا ، ستكون فرصتك الأخيرة والوحيدة .

صمتَ ولما طال صمته قلت :

- ربما لا أستطيع الخروج من القصر مرة أخرى قبل يوم المحاكمة ، نلتقي يوم المحاكمة ، السبت القادم في الساحة ونبدأ في تنفيذ خطتنا .

أخفيت مرآتي بحقيبتي الصغيرة واتجهت ناحية الباب لأنصرف ثم استدرتُ نحوه قائلة :

- تذكر يا قلبي، عندما أتحول إلى بومة سأعود إلى بشرية بعد ساعتين، تعلم أنها حيلة ساذجة ولابد من استغلال الوقت .

أومأ برأسه موافقا واقترب منى ووضع كلتا يديه على كتفيّ فارتعشت ثم قال :

- لن أنسَ لكِ هذه الخدمة ما حييت يا جيفان .

كان فوزي أحمقا لا يعلم حتى الآن أنني وقعت في حبه للأسف، لماذا للأسف، لأنني لا أتخيل حياتي بدونه على هذه الجزيرة، وفكرت بيني وبين نفسى أكثر من مرة أن أغادر معه إلى بلده، هنا شعرت به مازال يضغط على كلتا كتفيّ ، فدقّ قلبي سريعا وصحوت من غفلتي وارتبكت لكنى استجمعت قواي وقلت :

- إلى اللقاء .

ثم غادرت .

بعد ثلاثة أيام كنت قد أقنعت سيدتي أن تترك نافذة غرفتها مفتوحة قليلا ليطول مفعول العشب الأخضر بفعل الهواء المتجدد داخل الغرفة ، وقد استراحت لذلك ووافقت .
كنت في هذه الأيام أستيقظ كل يوم قبل شروق الشمس أهرع إلى غرفة نوم سيدتي لأيقظها وأحضر لها ثياب العمل ، فترتدي ملابسها بينما أقدم لها طعامها فتتناول إفطارها وأنا أدلك قدمها وما أن انتهي حتى أحمل أدوات السحر الخاصة بها وحقيبتها وكتب الدرس ونتجه إلى فصول الدرس، نعود بعد الظهيرة وأنا أحمل كتبها وأغراض الدراسة إلى غرفتها وتذهب هي إلى قصر الملك وأعود أنا إلى سكن الطالبات وأنتظرها عند غروب الشمس وهى عائدة من قصر الملك مرهقة فافتح لها باب عربتها الخاصة وأدلف معها لحجرة نومها أدلك لها قدمها ، وافتح نافذة الغرفة ونتسامر حتى تأمرني بالانصراف ، وهكذا انقضت الأيام حتى جاء يوم المحاكمة .

في عصر يوم المحاكمة استعدتْ سيدتي بارتداء ملابس المناسبات الرسمية وساعدتها في ذلك ،وطلبتُ منها تدليك قدمها فوافقت ، ولم أنس أن أترك نافذة الحجرة مفتوحة، وقبل أن تغادر ذهب بصرى مكان كتاب التعازيم وأغلقت باب الحجرة، وبينما أهبط خلفها درج السلم طلبت منها الأذن في المبيت عند والدتي بعد انتهاء المحاكمة فوافقت .

هرعت مسرعة إلى الحانة فوجدت فوزي متأهلا للذهاب إلى ساحة المحاكمة وأخبرته بما حدث وسرنا معا إلى الساحة، الازدحام يكسو كل شيء ، الرجال والنساء والأطفال يمشون في صفوف غير منتظمة نحو الساحة ومنهم من يرتدى تلك القبعات المصنوعة من القش ومنهم من هو عاري الرأس ، متنوعين الملابس والألوان لكنهم سعداء فرحين بقوة ملكهم يهللون ويصفقون ويغنون ويضحكون ويتكلمون عن محاكمة الدخيل المتسلل ، وصلت إلى الساحة ورأيت الملك على يمينه كبير المستشارين وكبير الجنود وعلى يساره سيدتي شمس فملت إلى فوزى وقلت :

- يأتون بعد قليل بالمتسلل ، وما إن تبدأ المحاكمة حتى نتسلل تاركين الساحة

، قال في ذكاء وحماس :

- أنا أحفظ الخطة ، ما إن تبدأ المحاكمة سأتجه إلى منطقة الآبار والأصنام ، سأراوغ الجندي .

قلت :

- ستجدني بانتظارك عند الصنم الأكبر .

وحين لمحتُ قلقا على ملامحه وضعت يدي على يده وضغطتُ عليها وقلت مشجعة :

- لا تقلق ، ستنجح الخطة لكن لا تترد في قتل الجندي إن فشلتَ في مراوغته ..

سمعنا الأصوات ترتفع والطبول تُدق فجأة ، فنظرنا إلى المنصة فوجدنا أن الجنود قد أتوا بالمتسلل الذي كان مغطى الرأس والوجه داخل عربة خشبية محاطة بقفص من الحديد كأنه سجن متنقل ، وصمت الجميع وتوقفت الطبول حين أشار الملك بيده ونهض قائلا :

- كان لزاما علينا أن نحمى الجزيرة من كل متسلل دخيل جاسوس، وقد أمرتُ بنفسي بملاحقة هؤلاء الأشرار في كل زمان ، وقد رفع لي كبير جنودي تقريرا يفيد بأن جنود حراسة الآبار سمعوا ذات ليلة صوت رجل يأن بالقرب من البئر، وحين توجهوا للبئر وجدوا ذلك الغريب المتسلل ملقى بداخل البئر وقد خارت قواه بعدما نجح في عبور الثغرة ليتجسس على جزيرتنا ، وقريبا سنعلم من وراءه من عالم الأشرار.

صفق الجميع ودُقتْ الطبول وعَلتْ الأصوات ورُفعتْ الأعلام فأشار الملك ليكمل فصمت الجميع وقال الملك :

- وحرصا منا على الشفافية ومشاركة الشعب ما يدور بين أروقة القصر أمرتُ أن تكون المحاكمة والاستجواب أمام الجميع ، وأشار بيده نحو كبير الجنود الذى أمر أحد ضباطه بنزع غطاء وجه ورأس المتسلل .

كان فوزي بجانبي وكان قلبي يدق بسرعة وحين نزع كبير الضباط غطاء وجه المتسلل رأيته بشكل واضح ، كان وجه لشاب أسمر نحيل فارع الطول، وشعرت أن اللحظة الحاسمة قد

حانت، نتسلل لنبدأ في تنفيذ خطتنا، ضغطتُ على يد فوزي ليتبعني ونخرج من الساحة لكنني رأيت الذهول على وجه فوزي وقد تسمر مكانه كوتد، فضغطتُ على يده مرة أخرى وهززت كتفه ، فسمعت شهقة عالية وصرخة مكتومة خرجت متهدجة من بين شفتيه المرتعشتين وهو ينظر إلى المتسلل الحبيس وسمعته يقول في هيستريا وهو يشير بيده نحو المتسلل الحبيس :

- إنه علاء شقيقي .

الفصل السادس عشر

(علاء عبدالحميد)

كنت لا أصدق ما يرويه عم شفيق على مسامعي عن البئر والقلادة والغرباء الذين يترددون على البئر بعد منتصف الليل ، وأخبرني ذات مرة أنه قضى أسبوعا في بيته القديم غرب القرية المطل على الأرض البور ناحية البئر ، وقد جاء أحد الغرباء ونادى عليه حين رآه من النافذة ، ناداه بلهجة لا تشبه لهجتنا، ولمّا لم يعره عم شفيق اهتماما ذهب الغريب إلى باب البيت وأخذ يحطمه بطرقاته المستغيثة ، فنزل عم شفيق مفزوعا وفى يده قطعة من حديد، لكنه رأى أن الشبح مفزوعا هو الآخر ، ثم تحدث الشبح بعد أن أخرج من ملابسة أوراقا تشبه النقود وقدمها لعم شفيق، لكن العم شفيق قرر أن يطارده ففر الرجل مذعورا وكاد أن يسقط حتى أن الأوراق قد سقطت منها، احتفظ عم شفيق بالأوراق التي سقطت من هذا الشبح، الذي فر هاربا عبر طريق السكة الحديدية .

كنت أستمع إلى تلك القصص في لا مبالاة رغم أنى رأيت تلك الأوراق التي احتفظ بها عم شفيق، كانت ثلاثة عشر دولارا .

جاءني عم شفيق ذات ليلة ومعه القلادة ثم أخبرني أن القلادة سوف تتحدث وتريد أن تبلغنا رسالة، طبعا لم أصدق ما قاله فطلب منى أن أبيت معه في بيته الغربي ووجدت ذلك مسليا فذهبت .

بينما نجلس في الطابق الثاني بالبيت الغربي قال عم شفيق مبهور الأنفاس :

- ما هي إلا ساعات حتى تتكلم القلادة .

كنت أجلس على مقعد بينما هو يفترش الأرض واضعا القلادة على قطعة خشبية صغيرة أمامه ، وكانت القلادة تلمع في ضوء المصباح الخافت ، قلت ساخرا :

- مر الوقت ولم تتحدث قلادتك يا عم شفيق .

قال مسرعا :

- تمهلْ يا بني ، عندما ينتصف الليل ستتحدث، وقد حدث ذلك معي مرات ومرات، نعم لابد من منتصف الليل .

أخذتُ أطقطق أصابعي مللا حتى أخذنا الوقت ورأيت عم شفيق ينهض ويفتح النافذة الغربية المطلة على البئر البعيد جدا ، فتسلل نسيم بارد للغرفة وتسلل ما تبقى ما ضوء القمر عبر النافذة وما إن عاد عم شفيق وجلس بجوار القلادة حتى رأيتها تهتز وقد برز الوجه الأنثوي المنقوش عليها وقال بصوت واثق بطيء كصوت جاء من الجحيم :

- أعد القلادة إلى البئر المهجور، أعد القلادة إلى البئر المهجور وإلا ستتحقق أسوأ كوابيسك، أعد القلادة إلى البئر المهجور في أسرع وقت .

ثم عاد الوجه الأنثوي المنقوش على القلادة إلى موضعها، وقتها كانت أسناني تصطك من الرعب ورأيت يدى ترتعش وهممت أن أتكلم لكنى صمتُ حين رأيت المصباح الزيتي قد طار في الهواء نحو ستارة النافذة وانتشرت النيران في أرجاء الغرفة ، فجذب عم شفيق القلادة في يده وأسرع ناحية السلم الخشبي فهرعت خلفه في خوف وكدت أن أتعثر فسمعت عم شفيق يقول :

- لا تقلق ، سيهدأ كل شيء .

نزلنا الدرج إلى الطابق الأرضي وطلبتُ من عم شفيق مغادرة البيت فقال وهو يلهث :

- ستخمد النيران ويعود كل شيء كما كان .

بدا لي ذلك غريبا فأحضر لي عم شفيق كوبا من الماء وطلبت منه إعداد كوب شاي، وبعد انتهائنا من الشاي أخبرني عم شفيق أن نصعد للطابق الثاني لأتأكد أن كل شيء عاد كما كان .

صعدنا فوجدتُ الفراش كما هو والستائر كما هي كأن النيران لم تندلع فجلس وسمعته يقول :

- لابد إذن من إعادة القلادة الملعونة إلى البئر.

واتفقنا على ذلك .

ولكن أخبرني أنه لابد من انتظار ليلة قمرية نظرت إلى التقويم على هاتفي ثم قلت :

- الخميس القادم .

نظر نحوى عم شفيق قائلا :

- يا بنى أنا واهن ضعيف، قصير النظر سأكون رفيقا لك لا غير.

نظرت إليه دون أن أتكلم ، فقال :

- لن أستطيع هبوط البئر، سأرافقك وأنتظرك بالأعلى، وما عليك سوى وضع القلادة في منتصف قاع البئر بحيث يكون الوجه المنقوش يطل ناحية القمر .

في إحدى الليالي القمرية كان الجو معتدلا والقرية ساكتة عند منتصف الليل، توغلنا أنا وعم شفيق داخل الأرض البور يحملنا حمار هزيل استعاره عم شفيق من أحد أصحابه بالقرية ، كنت خلفه أنظر بين الحين والآخر للوراء فتبدو لي بيوت القرية ساكنة سخيفة كشواهد القبور، كنا نبتعد عن البيوت فتتآكل وتتضاءل لتصير ماضيا أو وهما ، الأرض البور متسعة حولنا لا زرع فيها ولا أنيس ولا جليس، وكان عم شفيق يردد كأنه يراجع مقرر دراسي قبل الامتحان :

- ثمة سلم من الحبال يقلك لقاع البئر، تضع القلادة في القاع بحيث يكون الوجه الأنثوي مطلا للقمر .

أعتقد أنها المرة المليون التي يقول فيها كلامه هذا، بل كان يكرره كلما تقدمنا في المسير، كانت برودة الجو تلسع ظهورنا وزاغت عيناي حين رأيت من فوق كتفه منظر البئر الكابوسي يبدو من بعيد، توقف الحمار بنا على بعد أمتار، لم يكن توقفا عاديا لكنه تسمر في مكانه كمن رأى شبحا وفشلت

محاولات عم شفيق في جعله يتقدم بنا خطورة واحدة للأمام، أشرتُ لعم شفيق أنه لا داع وترجلنا عن الحمار الذي حرك أذنيه ناحية البئر في توجس، بدتْ لي المسافة عشرين مترا وتقدمتُ حاملا مصباحا زيتيا ومن خلفي عم شفيق ، ومع كل خطوة كنت أشعر بقلبي يتحرك مع قدمي ، ابتلعت ريقي، ونظرت للخلف فوجدت الحمار استدار وسار ببطء ناحية القرية فنظرت لعم شفيق فوجدت كل شيء فيه يرتعش وسمعته يتمتم بآيات الله والزبد يتكاثف على جانبي فمه كرغوة صابون، واصلت المسير حتى وجدنا أنفسنا أمام البئر ، أخذ منى عم شفيق المصباح وأخذ يدور حول البئر ببطء وفزع وقال بصوت أخافني :

- لقد حانت اللحظة يا علاء .

كانت هذه الجملة جديرة بموتى إكلينيكيا لولا أن سمعته يقول مطمئنا :

- ستنجح يا بنى .

اقتربتُ من سور البئر الذى لا يزيد عن أشبار ونظرت لأسفله ، لم يكن عميقا ولا مخيفا كما صورته حكايات أهل قريتي ، مجرد بئر ساذج مسكين وحيد .

قلت :

- عم شفيق ، يمكنك النزول أولا ، فأنت خضت هذه التجربة من قبل .

قال في فزع كالملسوع :

- لا ... هذا لم يكن اتفاقنا، لا تكن جبانا .

قلت ساخرا :

- ما شاء الله على شجاعتك يا عم شفيق .

عاد يحثني قائلا:

- أنتَ شاب ، حماس وقوة وشجاعة ، أما أنا ضعيف و...

قاطعته قائلا :

- لا بأس

ثم جذبت منه المصباح وتوكلت على الله وبدأت أتشبث بالسلم المصنوع من الحبال ومددت قدمي للأسفل ، وما أن هبطت مترا حتى سمعت عم شفيق يصرخ بملأ فمه :

- انتظر .

هنا زلّت قدماي فسقطت للأسفل، أنا الآن استقر في قاع البئر بعد أن تحولت إلى كومة من عجين ، ثم سمعته يقول :

- انتظر يا بني ، لقد نسيت القلادة .

كنت أراه بالأعلى يلّوح بالقلادة التي مازالت معه .

يا لنا من أحمقين مذعورين !

وقبل أن أطلب منه إلقاء القلادة رأيت البئر ينغلق من الأعلى حتى اختفتْ السماء والنجوم وساد الظلام الدامس من حولي ووجدت نفسى أركض في طريق ضيق مدبب بالأوتاد الخشبية ، لا مجال للإبطاء ، إن تباطأتْ خطاي ستخترق الأوتاد قدميّ ، أنا مضطر للركض بسرعة، أركض وأركض وأركض ، وتعالت أنفاسي وسمعت أصواتا بدت مألوفة لي :

- أنت شاب يا علاء وأنا عجوز.

- هذا لم يكن اتفاقنا.

- ستخمد النيران يا علاء .
- يا عبيط ، سينتهي الصداع للأبد .

كنتُ أسمع هذه الأصوات وأرى أمامي وجه أبى تارة، ووجه فوزي تارة ومازال صوت عم شفيق يصم أذني :

- ستنجح يا علاء .

هنا وجدت الطريق المدبب بالأوتاد انقسم إلى طريقين ، لا مجال للإبطاء ولا التفكير، أيهما أقرب سأسلكه ، ملتُ ناحية اليمين وسلكت الطريق الذى امتد بي دقائق شعرت أنها دهرا ، ثم شعرتُ بالدوار يحتل رأسي وغبت عن الوعى .

حين عاد لي رشدي وجدت البئر عاد كما كان ورأيت السماء والنجوم وبحثت ببصرى عن عم شفيق كي يرمى القلادة وأنتهي من هذه المهمة الكابوسية ، لكن ما أدهشني أن السلم المصنوع من الحبال لم ينقطع ومازال كما هو، نهضتُ فأحسست أنى بصحة جيدة لوهلة ، لكن شعرت بألم شديد في قدميّ وعظام ظهري، تحاملتُ وتشبثت بالحبال وصعدت ، وكنت أنوي أن أنال من عم شفيق وأحمّله مسئولية كل ما حدث، لكن كان ما رأيته شنيعا، رأيت صنما كبيرا ضخما أمام البئر، نظرتُ حولي فأبصرت بئرين آخرين ، علمت انى أمام البئر الأوسط ، عندما ألقيت بصرى بعيدا رأيت أنني في ساحة واسعة محاطة بسور قوى بعيد كأنني في ملعب ستاد القاهرة، بدأت أتألم بصوت مسموع وناديت عم شفيق، وبعد دقائق من صراخي واستغاثتي رأيت جنديا يقترب منى، كان يرتدى ملابس

غريبة ذكرتني بملابس الجنود في العصور الوسطى، من أين جاء هذا الجندي ؟ وهل قُتل عم شفيق ؟
أخذ الجندي يقترب وهو يلّوح بسيفه في وجهي ، ولمّا لم يجد منى أدنى مقاومة سمعته ينادى على آخرين، فظهر جنديان آخران وحملوني إلى جندي آخر يبدو أنه كبيرهم لأنه يرتدى ملابس عسكرية لا تشبه ملابسهم ثم سألني عن وشم يدى فلم أفهم شيئا فأمر باعتقالي وقال :

- لابد من إخبار سيدى الملك والسيدة شمس على وجه السرعة .

الفصل السابع عشر

(فوزى عبدالحميد)

لم أتمالك نفسى حين رأيت أخي علاء مغلول الأيدي والقدمين بسلاسل من حديد، كانت جيفان تقبض بيدها على يدي وتتحدث إليّ لكنى لم أعِ ما كانت تقوله، جذبتُ يدي من يدها وركضت نحو المنصة واخترقت الصفوف والزحام وارتطمت بالأجساد المتلاحمة ، لم يكن أحد يتوقع وصولي إلى المنصة بسبب كثرة ما حولها من جنود لذلك كانت المفاجأة بادية على وجه الملك وكبير مستشاريه حين اقتربت من أخي علاء وطوقته بيدي وسحبته نحوي بينما تحسستُ جيبي بيدي الأخرى أبحث عن المسدس لكنى لم أجده، هل سقط منى في الزحام ، أين المسدس ؟ !

ساد الهرج لثوان ولكن سرعان ما استعاد الجنود وعيهم حين صرخ فيهم الملك قائلا في رعب :

- اقبضوا عليه .

ألتف الجنود حولي ولكمني أحدهم في وجهي فملت للوراء فبادرني آخر بلكمة في بطني فخارت قواي وسقطت على الأرض، سمعت وقتها صوت الملك :

- لقد ظهر المتسلل الثاني .

كنت على مقربة من الملك والمستشارين والسيدة شمس، مال الملك ناحية كبير المستشارين وهمس في أذنه ثم نهض وقال :

- ألقوا بهما في سجن منطقة السوق .

لكن رأيت السيدة شمس تنهض وتطلب من الملك التمهل، ثم اقتربتْ منى بوجهها الغض الأبيض الأحمر المستطيل المخيف المرعب ونظرتْ نحوي بعينين تشعان نارا نظرة اهتز لها قلبي ثم ابتسمت وعادت للوراء ومالت إلى الملك وهمست في أذنه ، لا أعلم ما الذى قالته له ، لكنني سمعت الملك يقول وهو يشير نحوى :

- هذا المتسلل يُساق لقصر السيدة شمس لاستجوابه في جلسات سرية .

أحكم الجنود قبضتهم وكبلوني في رقبتي وقدميّ وكفيّ ، ورأيتهم يعيدون علاء إلى العربة ذات القفص التي انطلقتْ به نحو سجن منطقة السوق، بينما دفعني أحد الجنود بقدمه وساقني آخر إلى عربة أخرى ذات قفص حديدي وانطلقتْ بي في طريق أعرفه، طريق قصر كبيرة السحرة السيدة شمس .

كانت العربة تسير ببطء وكنت مطأطأ الرأس أركع على ركبتيّ لكنني كنت أسمع الناس من حولي يتوعدوني بالقتل والذبح ، وكان الأطفال يقذفون العربة بالحجارة فأصابني حجر

في جبهتي وأخر في كتفي، وشعرت بالسائل الأحمر القاتم يسيل على وجهى فنظر لي أحد الجنود وأخذ يضحك دون شفقة، وبعد قليل اختفت الأصوات فعلمت أننا عبرنا منطقة السوق، وعلى مقربة من قصر كبيرة السحرة، ترجل أحد الجنود وأمر جنود باب القصر بفتح الباب، وولجت العربة لداخل القصر، وسمعتُ باب القفص يُفتح وشعرت بمَنْ يقبض على كتفي شاهرا سيفه في وجهي وهو يأمرني بالنزول وقادني إلى مدخل ضيق ثم هبط بي درجات سلم لمكان مظلم قليلا له رائحة عطنة ، ثم سلمني لجندي آخر قام بفتح باب حديدي له قوائم وألقى بي داخل الغرفة ، لم يكن للغرفة نوافذ إلا الباب الذى أحكم غلقه الحارس، والباب لم يكن كتلة واحدة بل كان مكونا من قوائم حديدة تتخللها فتحات واسعة كانت تسمح لي رؤية الطرقة بوضوح.

بعد ساعة عاد الجندي وفتح الباب الحديدي وفكّ سلاسل يدي وعنقي وترك قدميّ مغلولتين ، ثم استدار خارجا دون أن يتحدث وأغلق الباب واختفى ، كنت أرى كل نصف ساعة الحارس يمر أمام الباب جيئة، وذهابا ليسلى نفسه ، وكثيرا ما كنتُ أسمعه يغنى بصوت محشرج خشن، يغنى ثم يسعل ثم يغنى ثم يبصق ثم ينظر نحوى ويعاود الغناء ، مرتْ ساعتان كنت غارقا في أفكاري وتيقنت أنها النهاية وأن الذبح لن يكون أيسر عقاب هنا، وهل هناك أقسى من الذبح ؟

نعم ، حجرة التعذيب الثعبانية، وكأن الحارس سمع أفكاري فرأيته يقف أمام الباب، ويمد يده نحو القفل الضخم

ليدير فيه المفتاح ثم ألقي نحوي بلفافة من القماش ثم أغلق الباب، اقتربتُ من اللفافة القماشية وقد ظننت أن بداخلها طعاما ثم شعرت بحركة بداخلها فأجفلت، وما هي إلا دقائق حتى رأيت ثعبان ضخم يخرج منها يتلوى في نشاط، أمسكت بالسلسلة الحديدية التي فكها الحارس من يديّ وصوبتها نحو رأس الثعبان فأصدر فحيحا متقطعا ثم همد ذلك الشيء البشع، وأخذتُ أفكر، ماذا لو لم يسقط منى المسدس ؟ لتغيرت النهاية .

بتُ ليتلى أترقب ساهرا فزعا حتى أخبرتني ساعتي البيولوجية بأن النهار تنفس، رأيت الحارس يفتح الباب ومن خلفه جنديان هذه المرة، وضع أحدهم على رأسي غطاء وجه ثم قاداني في طرقة ضيقة وصعدا بي درجات سلم، لم أكن أرى شيئا ، لكن قلبي يحدثني بأنها النهاية ، ثم توقفا وأجلسني أحدهم على مقعد وسمعته يقول :

- أمرك سيدتي .

ثم نزع عن وجهى الغطاء وانصرف.

وجدت نفسي في حجرة واسعة، واسعة جدا، بها ستائر وسرير مرتفع تحوطه ستائر ملونة تعلوه نافذة تنسدل أمامها ستارة حريرة شفافة، وعلى الجانب الأيمن رفوف تتراص عليها كتب كثيرة بشكل منظم وعلى الجانب الأيسر مائدة ومنضدة عليها زهريات وكتب وأوراق وأدوات سحر غريبة، نظرت خلفي فوجدت باب الغرفة الذى أدخلني منه الجندي وعلى جانبي الباب دولابان خشبيان منقوش على كل منهما ثعبان ضخم، عدتُ بنظري للأمام فرأيت ستائر السرير تهتز

وتنفرج ، لتخرج منها كبيرة السحرة السيدة شمس، كانت هادئة ثابتة بطيئة الحركة ترتدى فستانا أبيضا مرصعا بجواهر تلمع أعلى الخصر وخطوط دائرية على الأكمام، فستان أنيق، وكان من الممكن أن يكون الموقف رومانسيا لو كانت السيدة شمس ليست ساحرة كريهة الوجه، اقتربتْ منى ودارتْ حولي ، فشعرتُ بثنايا فستانها يلفح خدي ، دق قلبي دقات متلاحقة ثم وقفتْ أمامي ونظرتْ في عينيّ.

وقالت :

- كيف حالك ؟

لم أرد وتأملتُ وجهها المخيف الذي كان يتموج كأنه يتسع ويضيق ورأيت حواجبها الصفراء اللامعة التي لا تراها إلا اذا دققتَ النظر فيها بحيث لو رأيتها من بعيد شعرتَ أنها بلا حواجب، عادتْ للخلف ناحية سريرها وجلستْ على طرفه وعادت تنظر نحوي ثم قالت :

- هيا ... اقترب .

فشعرتُ بالمقعد الذي أجلس عليه تحرك نحوها ثم استقر وثُبتَ فتضاءلتْ المسافة التي كانت بين مقعدي وسريرها، نظرتْ في عينيّ ودنتْ مني، وهى مازالت جالسة وقالت :

- هل نسيت طعم الآيس كريم يا أستاذ ؟!

هنا ارتعشتْ أطرافي وشعرتُ بصداع عنيف جعلني أضغط على مقدمة رأسي بكلتا يديّ ، ثم اختلستُ النظر إليها وأنا أفكر في الجملة التي قالتها، تبدو جملة معروفة بالنسبة

لي، قالها لي أحدهم ذات يوم، مدتْ يدها نحوي ووضعتها على كتفي ثم ربتتْ مرتين وقالت :

- أبهذه السهولة نسيت معلمة الموسيقى يا أستاذ فوزى ؟

انتفضتُ واقفا في فزع كالملسوع بعد أن قطعتْ جملتها الأخيرة الشك باليقين وقلتُ مرعوبا :

- سوسن ؟!

ضحكت ضحكة رنانة طويلة ذات رنين حاد محبب للنفس وطالت ضحكتها فرأيت لسانها المشقوق فجلستُ على المقعد فاقد الأعصاب ، وسمعتها تقول بعد أن انتهتْ من ضحكتها الطويلة :

- لقد أوفيتُ بوعدي معك ، نحن الآن بلا أقنعة .

قالتها فرأيت خصلات شعرها تحولت إلى ثعابين صغيرة تتلوى فوق رأسها، ثعابين بشعة المنظر تقفز حول رأسها محاولة الوصول لوجهي لالتهامه، وأخرجتْ لسانها الذي تدلى إلى ما تحت ذقنها، لسان طويل بشع مشقوق، وحين رأيتُ هذا المنظر الكريه فقدت الوعي.

لم أعرف كم مرّ من الوقت حين أفقت ، لكن أعتقد لم يمر وقت طويل لأني رأيتها تجلس نفس الجلسة وقد اختفت ثعابين شعرها ، ونظرتْ إليّ قائلة :

- فوزي ، لا وقت لدى لمثل هذه الإغماءات الصبيانية .

قلت في ضعف :

- الأمر صعب ، هل لي أن أطلب قهوة ؟

ابتسمت ابتسامة مخيفة ونادت على وصيفة لها وأمرتها أن تحضر لي فنجانا من القهوة، عادت الوصيفة بعد قليل بكوب ضخم ملئ بالقهوة ، رشفتُ رشفتي الأولى وشعرت بأن توازني بدأ يعود ، نظرت إليها فقالت :

- سأجعلك تراني بمظهري المألوف لديك .

وما هي إلا ثوان حتى تحولت ملامحها إلى ملامح أعرفها جيدا ، سوسن ، شعر أسود داكن ووجه أسمر مستطيل محبب وقوام مرتفع ، ترتدي الجينز بعد أن اختفى الفستان ونهضتْ، ودارت حولي تمشي بخطوات واثقة بحذاء جلدي أبيض اللون ثم عادتْ وجلستْ على طرف سريرها وقالت :

- يمكنني الإجابة عن عشرة أسئلة فقط ، إن زدت سوف أقتلك، وتذكر أنني لا أحب التفاصيل .

قلت :

- السؤال الأول : من أنتِ ؟

قالت مبتسمة ابتسامة بشرية فبدتْ فاتنة :

- يا له من سؤال ساذج ! يبدو أنكَ ستبدد فرصتك في أسئلة طفولية ، وعلى أي حال فأنا شمس ، كبيرة السحرة هنا .

قلت :

- السؤال الثاني : لماذا ظهرتِ في حياتي ؟

قالت :

- لأنى كنتُ أريدك أن تُعيد القلادة وعمدت أن أفشل كل خططك في حياتك حتى لا تجد طريقا إلا العودة للقرية وإعادة القلادة .

قلت وقد راق لي الحديث وتتابعتْ رشفات القهوة :

- لهذا خططتِ لطردي من المدرسة ؟

قالت في ذكاء :

- سأعتبره السؤال الثالث .

قلت مسرعا :

- لا ... أرجوكِ ... لدى الكثير من الاستفسارات .

قالت :

- نعم خططت لطردك من .....

ثم توقفت عن الكلام حين شعرتْ بنافذة الغرفة تُفتح بعد أن حركتها الرياح ، وعلى حافة النافذة وقفتْ بومة ونظرتْ نحوي بنظرات ثاقبة ، لكن الساحرة عادت تكمل حديثها قائلة :

- نعم خططت لطردك من المدرسة، وطردك من درس ليلى ابنة مدام نورا وكنتُ سأدفعك دفعا للعودة لقريتك قبل موت والدك.

لم أتكلم وصمتنا معا ثم قالت :

- صدقني، لم أقتل والدك ، اللعنة من قتلته.

هممت أن أتكلم فأسرعت قائلة :

- السؤال الثالث .

فأومأت برأسي موافقا وقلت :

- السؤال الثالث : ما حكاية القلادة واللعنة ولماذا أنا بالذات ؟

ضحكت قائلة :

- هذا سؤال مقالي أيها الوغد ، لكن أعرفك جيدا تحب التفاصيل ، القلادة هي أقدم قلادة في العالم وكنا نزين بيها الصنم الأكبر فوضعناها حول عنقه وكنت أستمد منها قوتي في السحر، فهي تكفل لي الحياة لقرون دون مرض ولا ألم و تجعلني بصفتي كبيرة السحرة أعيش مئات السنين دون أن أتجاوز سن الأربعين.

ثم صمتتْ قليلا ونظرتْ إلى الرفوف التي تتراص عليها الكتب على الجانب الأيمن وأردفت :

- حلّ بالجزيرة زلزال عنيف أطلقنا عليه زلزال (ريتا) ، اهتزت له منطقة الأصنام فانفكت القلادة من عنق الصنم الأكبر وسقطت في البئر الأوسط وأنتَ تستطيع أن تخمن البقية .

قلت :

- هل معك سجائر ؟

قالت مسرعة :

- هل أعتبره السؤال الرابع ؟

قلت مسرعا :

- لا ... مازلنا في السؤال الثالث ، لم تكملي حكاية القلادة واللعنة ولماذا أنا بالذات .

قالت وقد نجحتْ في غيظي :

- القلادة سقطت في البئر الأوسط فابتلعتها الثغرة المؤدية إلى قريتك، البئر المهجورة، تغير بنا الزمن على أرض الجزيرة، وعدنا للوراء مائة عام، ألم يلفت نظرك منظر العربات الخشبية والمباني الحجرية وعدم وجود اختراعات حديثة ؟

طبعا لم تنتظر منى إجابة وأردفت :

- أنتم في عالمكم تسبقونا بمائة عام، فضلا عن أنى صرتُ أمرض مثل البقية، كانت جروحي في السابق تلتئم وتُشفى من تِلقاء نفسها، لكن سقطتُ ذات مرة في (المترو) في عالمكم ومازال الجرح باقيا في قدمي حتى الآن ولولا إحدى وصيفاتي أهدتني عشبا مسكنا لجننت .

هنا كنت قد رشفتُ رشفتي الأخيرة واسترخيتُ في جلستي وسمعتها تكمل :

- أما اللعنة ، فهي الشيطان الذى يحرس القلادة، يحول حياة من يعثر عليها ويحتفظ بها دون أن يعيدها إلى جحيم، وهذا ما حدث مع والدك، طارده حارس القلادة وظن والدك أنه قادر علي سحقه ولكن حدث العكس .

ثم أخذتْ نفسا عميقا وقالت :

- هل عرفتَ لماذا أنت بالذات ؟ لأنك الوحيد القادر على إعادة القلادة .

قلت :

- السؤال الرابع : ما دخل أخي علاء بالقصة ؟

قالت :

- **في الحقيقة لم أتوقع يوما أن يدخل علاء في القصة، لكن احتفظ بالقلادة رجل كهل يسمى شفيق، وطارده حارس القلادة، فلم يجد بدا من أن يعينه أخوك في إعادة القلادة .**

قلت :

- **السؤال الخامس : وكيف عرف عم شفيق حكاية الثغرة والبئر ؟**

أجابت :

- **هو من وجد القلادة في البئر، هو توقع فقط أن إعادة القلادة للبئر سيفي بالغرض، لكن من خلال استجواب أخيك علمنا أنه سقط في البئر وقد نسي القلادة مع شفيق فابتلعته الثغرة لأنها كانت ليلة اكتمل فيها القمر .**

قلت مراوغا :

- **السؤال الخامس : ما ....**

قاطعتني :

السادس يا أستاذ فوزي .

قالتها ساخرة متهكمة فقلت :

- **السؤال السادس : كيف لم تعلمي بوجودي على أرض الجزيرة وأنتِ كبيرة السحرة ؟**

قالت وقد وضعتْ ساقا على ساق :

- كنت أتوقع قدومك عبر الثغرة، وعندما عثروا على أخيك توقعت أنك أنت، لم ينجو أحد من دوامات البحر، فضلا عن أن أحدا لم يتوقع مكان وجود الجزيرة من قبل.

قلت في نفسى :

عبقري يا هنري ، كانت كل دراساتك صحيحة ودقيقة .

ثم قلت :

- السؤال السابع : ماذا تنوين فعله بأخي ؟

قالت وقد لمعتْ عيناها :

- سنحتفظ به هنا لحين عبورك الثغرة إلى قريتك، تجد القلادة وتعود بها ويعم السلام جزيرتنا ونرسلك بسلام لعالمك .

قلت دون تفكير :

- وما الذي يجعلني أثق في أن الملك سيتركنا نرجع عالمنا بسلام ؟

قالت :

- هذا هو السؤال الثامن وإجابتي الثامنة هي أنى أعدك بذلك، تذكر أنني صادقة معك وها أنا الآن أفي بوعدي وأجيب عن كل استفساراتك كما وعدتك من قبل أننا سنلتقى وقد حدث.

قلت وقد عاودني القلق والتوتر مرة أخرى :

- السؤال التاسع : ماذا لو رفضتُ عرضك ؟

قالت :

- هذا أسهل سؤال طرحته ، لأن طفل ذو ثلاث سنوات يستطيع أن يجيبك .

قلت :

- إذن ما الإجابة ؟

قالت :

- تُقتل أنت وأخوك ، وحارس القلادة سيطارد شفيق إلا أن يعيدها .

قلت من فوري :

- يا لك من شيطانة .

قالت ضاحكة :

- أهذا سؤال أم إجابة يا أستاذ ؟

قلت مبتسما :

- السؤال العاشر .

أضافت قائلة :

- والأخير .

قلت :

- يعجبني ذكاؤك .

قالت :

- تعودت أن أسخر من الآخرين، لكنك تصر على أن تسخر مني .

قلت :

- يمكنك التجاوز عن ذلك بحق حصص الموسيقى التي رفعت مشقتها عنك ذات يوم .

قالت :

- لقد سامحتك .

ما شاء الله ، شيطانة رقيقة الحاشية طيبة القلب .

ثم أردفتُ قائلا :

- السؤال العاشر والأخير : ما المطلوب منى بالضبط ؟

قالت في كياسة :

- سأطلب من الملك تأجيل محاكمتك وأخيك وقبل اكتمال القمر بثلاث ليال سأرسلك عبر الثغرة إلى قريتك ، ستكون أمامك فرصة ثلاث ليال تعثر فيها على القلادة ، وفى ليلة اكتمال القمر في قريتك تهبط البئر المهجور ، وما هي إلا دقائق حتى تصل لمنطقة الآبار والأصنام بنفس الطريقة التي وصلنا بها أخوك ، وفى نفس الليلة أعدكما بالعودة لقريتك، يستحيل أن يأتي أي مخلوق من عالمكم إلى جزيرتنا عبر الثغرة إلا في ليلة اكتمال القمر

صمتنا معا وطال الصمت ووضعتُ رأسي بين كفيّ ثم سمعتها تقول :

- هل لي بسؤال ؟

قلت :

- بشرط .

قالت :

- ما هو ؟

قلت :

- أن أسألك سؤالا إضافيا .

القصة انتهت يا فوزي ، لكنني موافقة .
قلت :
- اسألي .
قالت :
- هل ستتزوج من منال ؟
أربكني السؤال وتلعثمت ولم أتكلم .
فقالت :
- لا بأس .. ما سؤالك الإضافي ؟
قلت :
- أنتِ إنسانة بشرية تعرفين السحر أم أنتِ مخلوق لا ينتمى للبشر ؟
قالت :
- ماذا تعتقد أنت ؟
أجبت :
- أنت لست بشرية .
لم ترد وابتسمتْ فعرفتُ الإجابة وابتسمتُ ، ولم تطل ابتسامتي لأنني رأيتها عادت لهيئتها المخيفة بفستانها الأبيض ثم تحسستْ قدمها فرأيت جرحا غائرا مقذذ وسمعتُ باب الغرف يُطرق ودلفت إحدى وصيفاتها فابتسمتْ لها فدنتْ منها الوصيفة وقالت :
- سيدتي ، موعد تدليك قدمك .
لم تكن الوصيفة إلا جيفان .

الفصل الثامن عشر

(فوزي عبد الحميد)

كنت قد نسيتُ أن جيفان صارت مقربة من كبيرة السحرة لذلك أصابني الذهول حينما رأيتها تلج غرفتها حاملة زجاجة بها عشبا أخضر اللون، كدتُ أن أتكلم لولا غمزة من إحدى عينيها فهمتُ منها أنها تريدني أن أخرس، فصمت، ونادت سوسن أقصد الساحرة على أحد الحراس الذي حضر سريعا ووضع غطاء الوجه على رأسي ووجهي وقادني من حيث أتى بي .

مرت خمسة أيام بعد هذا اللقاء كانت كلها تسير على وتيرة واحدة، وتيرة بطيئة مملة، عند شروق الشمس يلكزني الحارس ويقودني بعد أن يغطى رأسي ووجهي إلى خارج القصر، ثم يلقى بي في عربة مزدحمة بالآخرين تسير بنا العربة قرابة ساعة ، ثم يتم الكشف عن غطاء الوجه لأجد نفسى في منطقة متسعة محاطة بسور حجري ضخم ، كنا نقوم بحمل الأخشاب إلى حيث تستقر العربات ، نضع الأخشاب على مربعات مرسومة على الأرض بطريقة تناسب نوع تلك الأخشاب ، وتتولى مجموعة أخرى من السجناء وضع الأخشاب

داخل صناديق العربات، كنا رجالا ونساء في مختلف الأعمار، لم أكن بحاجة لذكاء لأفهم أنها منطقة الغابات، وهى قريبة جدا من أكواخ الفقراء، تلك المنطقة التي تقطن فيها السيدة أم لينا، أنا لم أر هنا أكواخا لكنى أشم رائحة الفقر والعوز في أرجاء المكان، هنا لا مكان للراحة، عمل وعمل دون رحمة، عند الظهيرة كانوا يسمحوا لنا بتناول الطعام في وقت لا يزيد عن ثلاثين دقيقة، لم يكن طعامنا إلا خبزا وجبنا وثمرة تفاح، كنت أتناول طعامي في صمت وأنا أتصفح تلك الوجوه الشاحبة التي يكسو ملامحها الفقر والاستسلام، كنت أسرح بخيالي في كل ما حدث لي، في كل مرة من وقت تناول الطعام كانت حياتي تُسرد أمامي منذ تخرجي ، والقرية والقاهرة خالتي نعيمة ومنال والمدرسة والأستاذ شوقي والمدرسة وهنري وديفيد وأمريكا والدوامات والجزيرة ثم سوسن، هنا أسمع أحد الجنود الذى يخبرنا بغلظة بالعودة للعمل، كنت أعود إلى قصر السيدة شمس قبل غروب الشمس، ألج القصر بنفس الطريقة المهينة التي خرجت منها .

في الأسبوع الثاني حدث شيء عجيب، كنت في حجرة السجن والظلام الخفيف يخيم على كل شيء حين لمحتُ بومة تقف على قوائم الباب الحديدي للغرفة الكئيبة، كانت تنظر نحوى نظرة غير عادية، ثم مدتْ رأسها في إحدى الفتحات الحديدية الواسعة بين القوائم وولجتْ داخل الحجرة، لم أحرك ساكنا وظللتُ أنظر إليها، دنتْ مني ثم فجأة فردتْ جناحيها وتحولت في ثانية واحدة إلى بشرية، كانت جيفان ، هممت أن

أصرخ من المفاجأة فرأيتها تضع كفها على فمي فصمت، ثم نزعتْ يدها وقالت :

- اسمعني بدون مقاطعة ، الحارس الآن في نوم عميق بعد أن ألقيت عليها تعزيمة فقدان الوعي، السيدة شمس تتعمد تعذيبك في أشغال حمل الأخشاب حتى تنفذ خطتها وتعيد القلادة ، لا تسألني عن شيء ، أنا عرفت القصة كلها، وسمعت كل ما دار بينكما، كنتُ أنا البومة التي وقفت على نافذة الحجرة حينما كنتما تتحدثان، عرفتُ كل شيء ، هناك خطة لإنقاذك وأخيك، ستُجرى محاكمة صورية أمام أهل الجزيرة وسوف يتم الحكم على أخيك بالسجن مدى الحياة مع الأعمال الشاقة ، ليكون هذا الحكم وسيلة ضغط عليك لتقبل عرض الساحرة، وفى يوم المحاكمة سننفذ خطتنا، لكن يجب أن نعجّل بموعد المحاكمة .

قلت مقاطعا بهمس :

- وأخي هل سينجو ؟

قالت :

- قلت لا أسئلة ، سينجو معك ، لا تثق في وعد الساحرة ، هي ليست بشرية، هي كائن من عالم آخر، فقدانها القلادة جعلها تتشابه مع البشر في بعض الأمور مثل المرض، لذلك هي في أشد الحاجة لإعادة القلادة، لابد أن تطلب من الحارس مقابلتها ، ثم تُخبرها بترددك في عرضها حتى تُعجّل بمحاكمة أخيك، لا تقلق ، لقد رتبتُ

كل شيء، حين تجلس معها كن حريصا على أن تكون نافذة غرفتها مفتوحة ، سأكون معكما وسأعرف ما تقوله لك، بعد هذا اللقاء ستشعر الساحرة بعدم جدوى خطتها، لذلك ستعجل بموعد المحاكمة، بعد هذا اللقاء سأخبرك بكل تفاصيل الخطة .

صمتت قليلا ثم قالت كأنها تذكرت شيئا :

- المسدس معي، نزعته من ملابسك في اللحظات الأخيرة قبل هجومك على المنصة .

وقبل أن اسألها هل رأت أخي رأيتها تحولت إلى بومة وخرجت بنفس الطريقة التي جاءت بها .

في اليوم التالي ناديتُ على الحارس وأخبرته أنني أريد مقابلة السيدة شمس، سخر منى قائلا :

- اخرس أيها الدخيل، المجرمين لا يطلبون مقابلة أسيادهم .

كررتُ طلبي مرات ومرات لكن بلا جدوى .

بعد ثلاثة أيام ناديتُ الحارس وكررتُ طلبي وأخبرته أنه لديّ معلومات هامه عن دخيل آخر كان شريكا لي وأود أن أخبر السيدة شمس ، وأقنعته أنها معلومات هامه ربما تجعله يحصل على مكافاة من الساحرة فوافق لكن لم يحدد لي متى سيخبرها بعد ثلاثة أيام جاءني قائلا :

- بعد منتصف الليل ستقابل سيدتي .

فاهتز قلبي فرحا ولاح لي الأمل من جديد واستعددتُ للقاء .
قادني الحارس إلى غرفة السيدة بنفس الطريقة الأولى وكانت هذه المرة ترتدي ثياب نوم وجلستُ على مقعد قريب من سريرها وبدأتُ أتحدث :

- في الحقيقة أنا ....

ثم تذكرت النافذة ، يا لحماقتي ، فبدأتُ أسعل وقلت :

- لم أعتد العمل الشاق لذلك أصيب صدري بربو وضيق تنفس، هل تسمحين بفتح النافذة قليلا ؟

قالت :

- تبدو شاحبا حقا يا فوزي، وهذا العذاب سيستمر إن رفضت عرضي ،ثم أشارت بيدها ناحية النافذة ففُتحت من تِلقاء نفسها ، ثم قالت :

- يتبقى أسبوعان على موعد اكتمال القمر.

هنا رأيت البومة استقرتْ على النافذة وسكنت وفردت جناحيها وأغمضت عينيها كأنها تستعد للنوم، فنظرتُ لها محدقا ، فقالت الساحرة :

- لا تخف، هي بومة حقيقية وليست مسحورة .

ابتسمتُ وقلتُ :

- في الحقيقة أنا لا أثق في وعدك .

هبّت واقفة في عصبية وقالت :

- لا عليك ... رأسك مقابل القلادة ، ستُقتل مع أخيك ، والقلادة ستعود بدونك

قلت :

- عم شفيق جبان ولا يقوى على الذهاب للبئر وحيدا .

قالت مبتسمة :

- هو يعرف مصير من يخفي القلادة ويتحدى حارسها، وله في موت أبيك عبرة .

قلت سائلا :

- لماذا لا تعيدي القلادة بنفسك وتتركينا نعود لعالمنا وينعم الجميع ؟

قالت ساخرة :

- أيها الأحمق ، أنا عشتُ في مصر شهورا وكان من السهل أن أحضرها لكن لابد من أن يعيدها بشرى ، بشرى على معرفة بمن وجد القلادة أول مرة .

قلت :

- عم شفيق ؟

قالت :

- نعم ، إن شفيق هو أول من رأى القلادة من عالمكم، وهو مقطوع من شجرة، لذلك لم يخبر أحدا بالقلادة سوى أسرتك، لا أحد يعرف حكاية القلادة في عالمكم سواه ووالدك وأخيك وأنت .

قلت :

- أحتاج للتفكير فأنا أشك في وعدك .

قالت :

- لا وقت ، بعد أسبوع واحد إن لم تأتني راكعا خاضعا سأبدأ في محاكمة أخيك ، وأنتَ تعلم عقاب جريمته،

حجرة التعذيب الثعبانية أو السجن مدى الحياة ، ولا جدوى لموافقتك إن صدر الحكم .

صمتتْ لحظات ثم أردفتْ :

- أنا رتبتُ كل شيء ، تذكر ، أنتظر موافقتك الأسبوع القادم ، أي قبل اكتمال القمر بأيام قليلة .

قلت :

- سأفكر ، لكن هل لي بطلب ؟

أومأت برأسها دون أن تتكلم فقلت :

- اطلبي من حراسك بعدم إرسالي للعمل في نقل الأخشاب حتى أكون في كامل وعيي وأفكر في عرضك مرة أخرى .

ابتسمت قائلة :

- طلبك مرفوض .

ثم نهضتْ فعلمتُ أنها تريد إنهاء المقابلة ، وسمعتُ باب الغرفة يُفتح فدخل الحارس ومعه اثنان من الجنود، وقبل أن يضع أحدهم الغطاء على رأسي رأيت البومة حركتْ جناحيها وطارت مغادرة فابتسمت .

عدتُ إلى غرفة السجن وتكرر خروجي مع شروق الشمس وتقطيع الخشب وحمله لنقله إلى العربات، وتكررت إهانات الجنود لنا، وتكررت نظراتي للوجوه الشاحبة من السجناء التعساء، وكنت أهرب من هذا الواقع المرير إلى عالمي،

المدرسة ومنال ، قريتي وأهلي ، ثم خطر في بالى فجأة سؤال : لماذا أثق كل هذه الثقة بجيفان ؟
يا له من سؤال !
لا أظنها أنها ستغدر بي ، هي تفعل كل هذا من أجلى، لا أعرف لماذا ، لكن لم أشك يوما في إخلاصها، وماذا لو كانت الساحرة صادقة في وعدها، والسؤال الأهم : ماذا لو فشلت الخطة ؟
الخطة التي لم أعرف تفاصيلها حتى الآن، لكنى لاحظت ثقة جيفان في خطتها، وهذا ما طمأنني كثيرا .
بعد أسبوع جاءني الحارس قائلا :
- أيها الحقير ، لابد أن لديك معلومات هامة ، فسيدتي طلبت منى أسألك هل تود لقاءها الليلة ؟
ابتسمت بمرارة وقلت :
- لا .
هكذا علمتُ أنها لا تزال تنتظر قبولي عرضها والان انتهى الأمر، فما أن يخبرها الحارس برفضي لقائها فسرعان ما تحدد يوم المحاكمة، وهذا ما حدث لأنى في اليوم التالي وبعد عودتي مباشرة من منطقة الأخشاب قذفني الحارس داخل الغرفة، بدأت أبدّل في ملابسي فرأيت ورقة طويلة عريضة ذات عنوان رنان اهتزت له أوصالي، كان العنوان كلمة واحدة (الخطة)
وكان اسم (نافيج) مكتوب بخط عريض في ذيل الورقة كأنه توقيع ، لفت انتباهي هذا الاسم ولم أستغرق وقتا طويلا حتى عرفت أنها جيفان ، لكنها تعمدت كتابة اسمها بالمقلوب .

قرأت الورقة عدة مرات ، فأصابني اليأس ، لأنى شعرت أن الخطة ساذجة جدا وهى تعتمد على حيل سحرية بسيطة وتعتمد على مصادفات قد لا تحدث .

في اليوم التالي وأنا أحمل الأخشاب كان حديث السجناء عن يوم المحاكمة ، وقال رجل كهل متقوس الظهر بأنفاس لاهثة :

- غدا إجازة من العمل بأمر من الحاكم .

سألته وأنا أحمل عنه الأخشاب لأصعد بها سلما خشبيا :

- يوم المحاكمة غدا ؟

أجاب في وهن :

- نعم يا بنى ، سيكون جنود الحراسة مشغولين في تنظيم المنصة وتأمينها ، لهذا نحصل على إجازة من العمل في أيام المحاكمات وأيام الاحتفالات .

وحين انتهى اليوم وجاء بي الحارس لغرفتي قال بينما هو يقذف بي للداخل:

- غدا لا عمل، سينتقل جُلّ الجنود والضباط إلى منطقة الآبار والأصنام لتأمين المحاكمة .

قلت مصطنعا الغباء :

- وهل ستحضر المحاكمة ؟

قال ساخرا :

- أيها الأحمق ، نحن الحراس أدنى رتبة هنا ، مهمتنا الحراسة فقط .

وتركني وهو يغنى ويبصق .

حين خلوتُ بنفسي ، انزويت في جانب الغرفة حيث تستقر ملابسي فرفعتها عن الأرض فوجدت احدى بلاطات الأرضية قد نزعت ووضعت بدلا منها أخرى جديدة فابتسمت .
بِتُ ليلتي أفكر في رعب فيما أنا مقدم عليه، ولكنى لم أغادر تلك البلاطة حتى أشرقت شمس يوم المحاكمة وأحضر لي الحارس بعض الخبز والجبن ثم عاد لمكانه وهو يغنى ، وعند منتصف النهار سمعت الحارس يتحدث مع أحد الأشخاص، كان يتحدث مع أنثى ، صوت أعرفه جيدا ، صوت جيفان، ثم انتهى الحديث فاقتربتُ من باب الغرفة وناديتُ الحارس لكنه لم يرد، فعلمتُ أن جيفان ألقتْ عليه التعزيمة، هنا أسرعتُ إلى ملابسي الملقاة على البلاطة وقمتُ بنزعها بسهولة وحفرتُ بيدي في الرمال لأجد لفافة قماشية فتحتها وأنا أرتعش لأجد بداخلها ثيابا عسكرية وبينما أنا أرتدي البذلة العسكرية رأيت البومة تمد فمها لداخل الباب وتلقي أمامي بمفتاح ، أسرعتُ لالتقطه ، ثم نظرتُ للبومة مبتسما، وعدتُ لأخفي اللفافة القماشية الفارغة في الحفرة وأعيد البلاطة لكنني وجد لفافة أخرى صغيرة لم أنتبه لها في المرة الأولى وحين فتحتها وجدت ذلك الشيء المعدني اللامع المغرى المحبب للنفس، المسدس، وضعته بين ملابسي، وأعدت البلاطة لموضعها ووضعت عليها ثيابي، وهرعت إلى باب الغرفة ، أولجت المفتاح ولحظات وانفتح الباب ، نظرت إلى الحارس فوجدته غارقا في نوم عميق، ماذا تقول الخطة، نعم تذكرت، الانحراف يمينا في الطرقة الممتدة، ثم صعدت درجات السلم، أنا الآن في خلفية القصر، نظرت

بجانبي فرأيت مبنى يشبه فصول الدراسة ، ابتسمت وقلت لنفسي إنها مدرسة السحر ، انحرفت يسارا فرأيت ممشى بين الأشجار والنباتات ينتهى عن مدخل القصر .

- حين تصل للباب الرئيس سر في ثبات ولا تحدث أحدا من الجنود، وإن حدثك أحدهم أخبره أنك مكلف بتأمين المنصة ، كن ثابتا يا فوزي.

هذا ما كان مكتوب في الخطة ، مشيت ناظرا للأمام ناحية الشارع الذى بدا لي واضحا من داخل القصر، ثم سمعت من يقول بصوت مرتفع :

- أيها الضابط ، لماذا تأخرت في الخروج مع من خرجوا لتامين المنصة ؟

قلت :

- كنت .. كنت .. كنت أطمأن بنفسي على نوبة حراسة السجين الدخيل .

كنت متعمدا أن أضع قبعة غطاء الرأس العسكرية بشكل مائل للأمام ليخفي وجهي حتى لا ينكشف أمرى .

كنت أصطنع الثبات وإن كان داخلي يرقص من الخوف، لم يتحدث أحد فواصلتُ مسيري للأمام ، وما إن عبرتُ الباب بقدم واحدة سمعتُ من ينادى في صرامة :

- انتظر ، قف مكانك .

أقسم وقتها أنني شعرت بدم جسمي يتجمع في رأسي ووجهي ، مددت يدى اليسرى ناحية مقدمة القبعة ، وأملتها للأمام أكثر، لم أستدر للوراء حتى لا ينكشف وجهي لهم، كنت أعلم أنه لو التقتْ عيناي وعيونهم لزاد ارتباكي ، لذا وقفت جامدا في مكاني أنظر إلى الشارع الطليق المحبب لنفسي، سمعت صوت خطوات من خلفي وشعرت بصاحب الصوت يقف بجانبي الأيمن وسمعته يقول همسا وهو مائل نحو أذني :

- أيها المحظوظ ، ستحصل على مكافأة إضافية لتأمين المنصة، لا تنسانا في سهرة، وبعض النبيذ من حانة السوق.

ابتلعت ريقي وهدأ روعي وقلت بصوت منخفض :

- المكافأة كلها لكم يا صديق .

ربتَ على كتفي وقال مشجعا :

- هيا اذهب ، الوقت يمر .

بعد خطوة واحدة كنت في الشارع ، لم أصدق نفسى أنني نجوت ، حمدا لله، كنت أسير في الشارع حتى وصلت إلى السوق وأنا أملأ صدري بالهواء وبعد أن عبرت السوق الذى كان غير مزدحم بمناسبة انصراف الناس إلى المحاكمة ، وجدت جيفان .

قالت جيفان في خطتها :

- تذكر يا فوزي ، اعبر السوق تجدني على اليمين أمام بائع الأحذية ، أشرنا إلى عربة ، فترجل السائق وانحنى أمامي قائلا :

- أمرك سيدى الضابط .
ابتسمتُ وقلت آمرا :
- إلى المحاكمة .
وأومأ برأسه دون أن يتكلم وانطلقت بنا العربة إلى الساحة .
في هذه المرة لم أعانى من الازدحام لأن الناس كانوا يفسحون لي الطريق وينحنون جانبا حين رأوا البذلة العسكرية، ومنهم من كان يصافحني ومنهم من كان ينحني أمامي انحناءة بسيطة ، كانت جيفان تنظر لي وتبتسم
وتقول :
- تقدم أيها الضابط .
شققنا الصفوف واخترقنا الزحام حتى بدت لنا المنصة عن قرب وشعرت بيد جيفان تضغط على يدي ومالت نحو أذني قائلة :
- تذكر ، كلمة السر هي (مدى الحياة) .
نزعت يدي من يدها بلطف وابتسمتُ ونظرتُ في عينيها وأومأت برأسي وتركتها ، تقدمتُ ناحية الجانب الأيمن من المنصة ومشيت مشية عسكرية حتى وقفت في الصف الثالث على يمين المنصة .
الملك يجلس مهيبا وعلى يمينه كبير المستشارين وعلى يساره السيدة شمس، وعلى اليمين أسفل المنصة يقف كبير الجنود ومن خلفه ثلاث صفوف من الجنود كنت أنا في الصف الثالث ومازال وجهى تغطيه مقدمة القبعة ، وعلى يسار أسفل المنصة يقف ضابط قوى البنية مهيب الملامح ومن خلفه عربة خشبية

ذات قفص حديدي يتوسطها علاء ومن حول العربة جنود يقبضون بأيديهم على سيوفهم في تأهب .
عندما أشار الملك بيده للناحية اليسرى قام الضابط قوى البنية ثم استدار للخلف وأمر بفتح القفص الحديدي بإشارة من يده وقام جنديان بإنزال علاء من العربة وجرّاه إلى المنصة ، ثم لكزه أحدهم في ظهره فشعرتُ بهذه اللكزة في قلبي، وركع أخي على ركبتيه وهو مغطى الوجه ثم ارتفعتْ الأصوات وهتف الجميع ودُقتْ الطبول وتحركتْ الحناجر مطالبة بقتل الدخيل، أشار الملك بيده فصمت الجميع ونهض الملك وقال :

- حرصا على الشفافية ومشاركتكم أمور الحكم فقد قامت السيدة شمس بأمر منى باستجواب الدخيل وقد تبين أنه جاء بغرض التجسس لصالح العالم الشرير، وأما عن الدخيل الجديد فقد تبين لنا بعد استجوابات وتحقيقات أشرفت عليهما السيدة شمس بأن الدخيل الجديد الذى هجم على المنصة منذ شهر هو شقيقه، وحرصا منا على إقامة العدل على أرض الجزيرة فلن تتم محاكمة دون استجواب وتحقيقات ، لذلك تم تأجيل محاكمة الدخيل الذي هجم على المنصة وقد أرسلتْ السيدة شمس بكل التحقيقات لكبير المستشارين الذى تشاور في الحكم مع السيدة شمس بصفتها خادمة الأصنام وكبيرة السحرة، ولتسمحوا لي ولتسمح لي السيدة شمس بأن ينطق كبير المستشارين بالحكم على الدخيل المتسلل.

هتف الجميع بالصفير والتصفيق ودُقتْ الطبول وعلتْ الأصوات المطالبة بقتل الدخيل .
هنا وقف كبير المستشارين فصمت الجميع فأشار كبير المستشارين إلى أحد الجنديين الذين يقفان حول علاء فقام أحدهم بكشف غطاء وجهه .
قالت جيفان في خطتها :

- تذكر يا فوزي، حين يُكشف وجه أخيك سيدور ببصره ناحية اليمين وبالتحديد إلى الصف الثالث، حين يراك تحرك مقدمة قبعتك بيدك اليمنى عندئذ سيفهم أخوك أننا سنبدأ الخطة .

وفعلا حين تم كشف وجه علاء رأيته يدور ببصره ناحية اليمين ، كنت بعيدا عنه وكان الضوء يُؤذى عينيه وأحسستُ ذلك من تضييق عينيه كأنه يتحاشى الضوء، فتحسست بيدي اليمنى مقدمة قبعتي ، رأيته يبتسم
فابتسمت .
وهنا سمعت كبير المستشارين يقول :

- تولتْ كبيرة السحرة التحقيقات وأطلعتني عليها، ولما كان لزاما عليّ الحكم بالعدل وتبرئة كل برية ومعاقبة كل مسيء ، فقد قررتُ تأجيل محاكمة الدخيل الجديد الذي هو قابع الآن في سجن قصر السيدة شمس تحت حراسة مشددة .

ابتسمتُ في سري وسمعته يكمل كلامه قائلا :

- وقررت أيضا محاكمة الدخيل الأول الماثل أمامكم بالحكم عليه بالسجن والأعمال الشاقة مدى الحياة .

وما إن سمعت كلمتي (مدى الحياة) حتى تحسستُ مسدسي وأخرجته واخترقت الصفوف، كان الناس يرقصون ويهتفون ويهنئون بعضهم البعض وفى أقل من ثلاث ثوان كنتُ أقف خلف كبير المستشارين وقد أحطتُ رأسه بيدي اليسرى بينما أثبت فوهة مسدسي في مؤخرة رأسه ، تجمد الملك مكانه وحاول بعض ضباط الجانب الأيمن الذى كنت أقف فيه قبل ثوان التحرك للصعود للمنصة لكن طلقتان في الهواء كانتا كفيلتين بأن يخرس الجميع ويتسمروا في أماكنهم .

قالتْ جيفان في خطتها :

- أشد ما أخشى يا فوزي هو رد فعل الساحرة، لكن كتاب التعازيم سيكون معي سأقرأ عليها تعزيمة الذهول وفقدان النطق، ثمة احتمال أن تفشل هذه التعزيمة، فأنتَ تعلم قدرات الساحرة، ربما كانت قادرة على إبطال التعزيمة، لذلك بقية الخطة تعتمد على سرعة بديهتك وحسن تصرفك، السرعة يا فوزى السرعة .

مازلتُ أقبضُ على عنق كبير المستشارين، رأيتُ الساحرة تنهض وارتعشتْ يدي بالمسدس قليلا ، خشيتُ أن تبطل الساحرة تعويذة جيفان فينتهي كل شيء ، لكن ما رأيته كان

عجيب حقا ، رأيتُ الساحرة تتحدث وهى ذاهلة، تتحدث بلا صوت ، تتحرك شفتاها دون كلام ، ورأيت بين الجمهور الذاهل المضطرب جيفان تقرأ من كتاب التعازيم .

وعلمت أنها نجحت، استعدتُ ثباتي، ووجدت علاء يرتعش ويحرك يديه وقدميه في اضطراب، وفى لحظة تحول إلى بومة ، وهنا رأيت جيفان تتقدم ناحية المنصة وتلقي نحوي بالكتاب وسرعان ما تحولت إلى بومة طارت في الهواء يتبعها علاء ناحية الشرق، أطلقت طلقة ثالثة في الهواء فزاد الذعر بين الجنود والحراس وهرب بعض الناس في هرج ومرج ، ومن حسن الحظ أن الجزيرة لم تكن تعرف سلاح الطلق الناري، وأدين لهنري بهذا المعروف، فلولاه لما كنتُ أملك المسدس، هويتُ بمؤخرة المسدس على رأس كبير المستشارين وجذبتُ الكتاب وقفزت من على المنصة .

بدأت أطلق النار بشكل عشوائي فاتسع الطريق أمامي ، وامتطيت جواد أحد الجنود بسرعة البرق ،وخلال دقيقة كنتُ خارج أرض الساحة ، أنطلق هناك ناحية الشرق، ناحية منطقة الآبار والأصنام .
في الحقيقة كنت بيني وبين نفسى أعترض على الخطة لذلك أصابني اليأس حين قراتها أول مرة، لا أعرف سبب إصرار جيفان أن تترك كتاب التعازيم معي ، لماذا لم تحمله هي بحيث أجد الثغرة مفتوحة عند وصولي.

وبينما أنطلق بالحصان ناحية الشرق نظرتُ خلفي فلم أجد أحدا ، كانت الشوارع خالية تماما.
لكن مهلا ، شبح جندي يمتطى حصانا يركض خلفي على مسافة بعيدة ، عدت أنظر للوراء ، نعم أحدهم يحاول اللحاق بي لكنه ملثم تماما ، شبح أسود موشح بالثياب السوداء ، لكزت حصاني وأسرعت حتى أزيد المسافة بيني وبينه ، كنت أتوقع هذا ، لذلك أردتُ أن تأخذ جيفان الكتاب معها ، فعندما أصل إلى منطقة الأصنام ربما لم تستطيع جيفان إتمام التعويذة ، حتما سيكون لحق بي هذا الجندي الملثم عندها يضيع كل شيء .

من بعيد ظهر لي باب سور ساحة الأصنام ورأيت جندي حراسة ، جندي واحد فقط ، وعلى مقربة عشرين مترا رآني فأجفل فأطلقتُ رصاصة نحو قدمه ، فأصابته وسقط على الأرض يمسك بقدمه ويصرخ ، حين اقتربتُ منه قلت مهددا وأنا أصوّب مسدسي نحو رأسه بينما ما زلتث فوق ظهر حصاني :
- الطلقة التالية ستكون بين عينيك، افتح الباب .

تحامل الجندي رغم ألمه وزحف وهو يجر قدمه التي تقطر دما وفتح الباب، لا أحب العنف لكن كان لابد أن يرى منى هذا الجندي ما هو كفيل بطاعة أمرى، لذلك كنت مضطرا لذلك.
ولجتُ بالحصان داخل الساحة، أعطيتُ الكتاب لجيفان، وقفتْ وأولتُ ظهرها للصنم الأكبر ونظرت نحو البئر وبدأت تقرأ ،

عدتُ للخلف ناحية الباب وأحكمتُ وصده ورجعتُ وربت على كتف علاء دون أن أتكلم .
قالت جيفان في خطتها :

- تذكر يا فوزي ، حين ابدأ في قراءة التعازيم، وحين ترى ثعبانا يخرج من البئر اعلم أن الثغرة قد فُتحت، أمامكما خمس دقائق لتقفزا، فوزي تذكر، لو انتهت الخمس دقائق ستُغلق الثغرة وتضيع الفرصة والأجدر بكما أن تقفزا في الدقيقة الأولى ، تأخرك في القفز كفيل أن يلعب الزمن بكما ألاعيبه .

في الحقيقة لم أكن أفهم جملتها الأخيرة ماذا تقصد بتأخرك في القفز كفيل بان يجعل الزمن يلعب بك ألاعيبه ؟
وبينما أنا أردد في خيالاتي وأتذكر ما قرأته في الخطة سمعتُ أحد الجنود يتحدث مع الجندي المصاب، لكنه لم يرد عليه لأنه كان قد فقد الوعي ، فنظرتُ للخلف ورأيتُ الجندي يحطم الباب الحديدي، نظرتُ إلى جيفان التي بدا الارتباك عليها، وكلما زاد تحطيم الجندي للباب زاد قلقنا وارتفع صوت جيفان بالتعازيم ، نظرتُ للخلف مر أخرى فرأيتُ الباب وقد بدأ في الانهيار وما هي إلا دقائق ويتحطم، كان الجندي قويا ، يضرب الباب بكتفه في إصرار عجيب .
نظرت لعلاء فوجدته يرتعش كورقة ، وهنا زحف اليأس على ثلاثتنا وارتبكتْ جيفان أكثر ، ورأيتها تصرخ بالتعازيم بينما تتساقط دموعها بلا توقف ، جيفان المرحة القوية الثابتة رابطة الجأش تبكى ، وكان هذا المنظر كفيل بانهياري ، فارتعشتُ

ونظرتُ للخلف ، مازال الجندي يعود للواء خطوات ثم يسرع منطلقا نحو الباب ليضربه بكتفه ، الباب ينهار شيئا فشيئا هنا تحسستُ مسدسي وصوبتُ فوهته ناحية الجندي وضغطتُ على الزناد ، لكن لم يحدث شيء ، لقد نفذت الطلقات، عدتُ أضغط على الزناد في هيستريا مرة بعد مرة لكن انتهى الأمر .

وفجأة سمعتُ علاء يشهق فنظرتُ ورأيتُ ثعبانا يخرج من البئر، ثعبان يطير بجناحين ورأيت جيفان تبتسم ورغم ذلك تتساقط دموعها ، ثبت عينيّ في عينيها فغمزت .
قالت جيفان في خطتها :

- الغمزة الأولى تعنى أن الثغرة تعمل، يقفز أخوك ، وحين ترى منى الغمزة الثانية تقفز أنتَ .

هنا دفعتُ علاء ناحية البئر فسقط، فنظرتُ لأسفل البئر فوجدتُ علاء اختفى كأنه لم يكن، حمدا لله .
عدتُ بنظري لجيفان أثبت عيني في عينيها في انتظار الغمزة الثانية ، وهنا سألت نفسي ما مصير جيفان؟ هل تنوى القفز بعدى أم أنها ستبحث عن بئر آخر يعيدها إلى بلدها الهند؟ والسؤال الأهم لماذا فعلت كل هذا من أجلي ؟!
وبدا هذا السؤال غبيا، لأن أحدا لا يفعل ذلك إلا اذا كان يحب ، وبينما أنا غارق في هذه الأفكار رأيتها تغمز مرة بعد مرة فتأهبت للقفز وأنا أنظر إليها نظرة شكر وعرفان أخيرة وأنا أسأل نفسى هل سنلتقى ثانية يا جيفان، وهنا شعرت بمن يقبض على كتفي بيد غليظة ويضع سيفه تحت عنقي من الأمام

الفصل التاسع عشر

وقبل أن ألقى بنفسي داخل البئر أغمضتُ عيني ودعوتُ الله أن تتم الخطة بسلام ، وما إن تحركتُ قليلا لإلقاء نفسي حتى شعرتُ بمن يضع يده على كتفي بينما شعرت بشيء معدني بارد يلامس حنجرتي ، فتحت عينيّ فوجدتُ الجندي وقد أحكم قبضته على ودسّ سيفه أسفل ذقني، شعرتُ بلوحٍ من الثلج على ظهري ، قال الجندي بحزم وغلظة:

ـ حركة واحدة وسأفصل عنقك عن جسدك .

لم أتكلم لكنني رفعت كلتا يدىّ للأعلى، الغريب أني رأيتُ جيفان في ثبات ومازالتْ تتمتم بالتعازيم .

- ماذا تفعل هذه الحمقاء ؟

لم أعلم وقتها أنها كانت على حق فيما تفعله، لأنني شعرتُ بيد الجندي تتراخى والسيف قد سقط منه إثر صوت ارتطام شديد ، حينما نظرتُ خلفي لأفهم ما يحدث وجدتُ الجندي ملقى على الأرض وقد شُجت رأسه، والسيدة أم لينا تمسك بحجر كبير بين يديها وقبل أن أتحدث إليها سمعتها تقول :

- إن وجدتَ لينا ابنتي في عالمك أخبرها أنى أحبها.

هنا سقطتْ دموعي دون إرادة منى وهممتُ أن أقول شيئا لكنها قاطعتني :

- لا وقت أيها الغبي، ما هي إلا دقائق حتى تمتلأ الساحة بالجنود .

ثم ألقتْ بالحجر بعيدا ودفعتني في ظهري نحو البئر فسقطت.

ثم شعرتُ بالبئر ينغلق من الأعلى واختفتْ سماء الجزيرة، وساد ظلام دامس ، وفجأة انهار من تحتي قاع البئر ورأيتُ نفسي أجرى على أوتاد حديدية مدببة فتجرحتْ قدماي ، وكلما أبطأتُ زادتْ الجروح فأسرعتُ أكثر وأكثر، لم يستغرق الوقت دقائق حتى وجدتُ خط الأوتاد الذي أركض فوقه قد انحرف إلى خطين وترددتُ ، لكن لم يكن أمامي وقت للتفكير حتى لا تخترق الأوتاد قدميّ فركضتُ في خط منهما ، وفجأة انتهى خط الأوتاد فسقطتُ للأسفل وأغمضتُ عينيّ وغبتُ في إغماءات متكررة ، ثم جذب انتباهي منظر السماء والنجوم اللامعة، حين وقفتُ على قدميّ كانتا سليمتين فحمدتُ الله وبدأتُ أدور حول نفسى لأجد طريق للخروج ورأيتُ سلما مصنوعا من الحبال لكنه ممزق من الأسفل ، ولابد من شيء حتى أتعلق به جلستُ أفكر أين أنا ؟ هل عدت إلى مصر ؟

نظرت مرة أخرى إلى السماء والنجوم وجال بخاطري علاء أخي، هل نجا؟ ويا ترى إلى أي مكان ألقت به الثغرة، نظرت مرة أخرى إلى السلم الممزق ورحت أبحث في جيبي عن شيء أصنع منه حبلا، فلمستُ شيئا باردا معدنيا فأخرجته فوجدت السلسلة، سلسلة منال ، يا الله ّ!

أين هي الآن ؟ وهل تزوجت ؟
وهنا تحمست فبدأت أخلع قميصي بعد أن تمزقت البذلة العسكرية ، ومزقته وصنعتُ منه حبلا ورحت ألقي بطرف الحبل ناحية السلم الممزق وفشلت وكلما فشلت كان وجه منال يبدو لي في الفراغ وكانت تترد في مخيلتي جملتها حينما كانت تقول لي:
(حتى تعود ... سأنتظرك حتى تعود)
كنت عاري الصدر والنجوم تضئ وبعض الرمال تسقط فوق رأسي بفعل الرياح، كررتُ محاولتي حتى نجحت ، تعلقت بالحبل القماشي الذى صنعته من قميصي وبدأ أتسلق بحذر.
- احذر يا فوزي .
كنت أكررها لنفسي كلما اهتزّ السلم ، لابد من الخروج والا عثروا عليكَ جثة هامدة في هذه البئر ، وبينما أشجع نفسي وأسرح في خيالاتي نظرت لأسفل فوجدت أنني صعدت مقدار متر ، كتمت أنفاسي وقفزت للأعلى وهنا تمسكت بالسلم الحبلى، حمدا لله، وما هي إلا دقائق وكنت ملقى على ظهري في صحراء فسيحة .

كانت الأجواء مخيفة ، ظلام دامس إلا من ضوء خافت للنجوم، مكان متسع، صحراء مظلمة لا أنيس فيها ولا جليس، وهنا سألت نفسى، أين سأذهب ، وكيف سأتحرك وأنا عاري الصدر ؟

ورحتُ أتخيل كيف لو رآني وكيل الوزارة بهذا الشكل، كيف لو رأتني مدام نورا ، يا لها من خيالات !

نهضت ورحت أبحث عن عصا أحمى بها نفسى ما إن هجم على حيوان ، لكنى لم أجد ، ألقيت ببصرى في كل الاتجاهات ، ولا شيء سوى الظلام ، لكن مهلا ، ثمة أضواء بعيدة ، بعيدة جدا يبدو صداها في جو السماء ، لابد أنها أهلة بالناس ، فتوجهت نحوها ، ومشيت ، كنت كلما تقدمت أنظر خلفي متوجسا، وأجلس أستريح قليلا ، ثم أنهض لأعاود المسير ، وبعد ثلاث ساعات تقريبا كنت على مشارف قرية ، وأول بيت وجدته كان بيت منعزلا عن بيوت القرية ، أنا إذن في قريتي، ولكن لابد من أن أتأكد ، هرعت إلى البيت الذى توهمت انه بيت عم شفيق القديم ورحت أطرق الباب ولا مجيب فبدأت أدفع الباب بكتفي مرات ومرات حتى انفرج أخيرا ، كان البيت مكونا من طابقين، حين دلفتُ داخل الطابق الأرضي تيقنتُ أنني في بيت عم شفيق، هنا سقطتْ دموعي وبدأتُ أبكى بنحيب، وحمدت الله ، أنا الآن في قريتي، البئر الأوسط إذن هو الطريق إلى قريتي، ولابد أن هنري هنا في مصر، ولاشك أن علاء قد نجا، وهو الآن في القرية قد سبقني إلى البيت ، ولكن لحظة ، كيف لم أجد علاء في البئر، أنا قفزت خلفة مباشرة ، كيف لم أجده في الأرض البور ؟ لم يكن هناك متسعا من الوقت بين قفزته إلى البئر وقفزتي ، وكان من الطبيعي أن ألقاه في بئر القرية ، هل صعد البئر ونجا ؟ ثم تذكرتُ أن السلم الحبلى ممزق ، إذن أين هو الآن ؟ هل قذفتْ به البئر إلى مكان آخر ؟

صعدتُ إلى الطابق الثاني ورحت أبحث في ملابس عم شفيق فوجدت جلبابا قديما باليا فارتديته ، ورحت أتجول في الغرفة ، ورأيت مرآة ملقاة على مقعد ، فنظرت إلى وجهي ، طالتْ لحيتي قليلا وبدا شعر رأسي منكوشا ، ألقيتُ بالمرآة بعدما ألقيت بجسدي على سرير متهالك ورحت في نوم طويل .

لم أعرف كم مرّ من الوقت حين سمعتُ صوتا بالأسفل، نهضتُ من فوري وقبل أن أفتح باب الغرفة سمعتُ صوت خطوات على السلم الطيني، فاختبأت خلف الباب وأنا أكور قبضة يدي ، ثم انفتح الباب وقبل أن أهوى بقبضتي عليه ، رأيت أن هذا الرجل مألوفا لي ، استدار نحوى بينما أحكمت أنا إغلاق الباب ، ابتسمتُ له لكنه كان ينظر نحوى في فزع ورعب ولمحتُ أطرافه ترتعش فقلت :

- عم شفيق !

قال بصوت متقطع :

- بسم الله الرحمن الرحيم ، عفريت .

قلت بسرعة :

- عم شفيق ، ماذا حدث لك ؟ أنا فوزي .

قال ومازال يرتعش :

- افتحْ الباب ، أريد المغادرة ، بسم الله الرحمن الرحيم .

قلت وأنا أحاول أن اقترب منه :

- أنا فوزي يا عم شفيق ، فوزى عبد الحميد .

قال وهو يبتعد في خوف :

- فوزى في القاهرة ، أنتَ عفريت .
حاولتُ أن أقترب منه أكثر فصرخ في وجهى وركض ناحية الباب وهرب مفزوعا وهى يصرخ قائلا :
- عفريت ... عفريت .

جلست أفكر فيما حدث، عم شفيق لابد أنه أصيب بالجنون، أنا لم أتغيب إلا شهور، كيف نسيني بهذه السرعة ، ثمة لغز في الموضوع ، عدت أنظر في المرآة مرة أخرى ، لحيتي طالتْ وشعري صار منكوشا ، لكن هذا بفعل ليلة أمس، لابد من نزول القرية ، ثم لاح لي وجه منال (حتى تعود) ، قمتُ من فوري، وغمرتُ وجهي بالماء وقمتُ بتمشيط شعري واتجهتُ إلى محطة القطار .
في طريقي إلى المحطة قابلتُ ناسا من أهل قريتي لكنى لم أتحدث لأحد منهم، سرتُ ماشيا مسافة طويلة ، وقبل أن أترك الحدود الشمالية للقرية وعلى مقربة من محطة القطار قابلني رجل ، حدق بوجهي قائلا :
- أستاذ فوزي ... هل عدتَ من القاهرة ؟ وكيف حال الحاج عبدالحميد ؟
ماذا يقول هذا المجنون، الحاج عبدالحميد ، قلت له :
- تعيش أنت .
قال في تعجب :
- فال الله ولا فالك ، ماذا تقول ، الحاج عبدالحميد حي يرزق .

ثم رفع كلتا يديه للسماء وقال :
- أدام الله عليه الصحة .
هل أصاب الجنون كل أهل قريتي؟! قلتُ ذلك في نفسى ، ثم نظرتُ إلى الرجل النحيل القصير وقلت :
- الحاج عبد الحميد توفاه الله منذ عام .
قال الرجل في رعب واضح :
- كنت في داره بالأمس ، إذن أنا أخطأت ، لابد أنك لست ابنه .
ثم ابتعد عنى قائلا في تعجب واشمئزاز :
- يخلق من الشبه أربعين ، ظننته الأستاذ فوزي .
وفرّ الرجل بعيدا حتى اختفى .
لاحتْ لي محطة القطار فشعرتُ بحماس وراحة وعاودتني الذكريات ، بعد نصف ساعة كنت محشورا بين أكوام البشر في عربة القطار، وسرحت بخيالي ، كيف لم أتزوج منال ؟ وضعت يدي في جيبي وشعرت بالملمس الناعم البارد، سلسلة منال، اهتز قلبي، وشعرت أنني ضيعت فرصة حياتي، فتاة جميلة رقيقة ، والأهم أنها تحبني ، سأبحث عن عمل ، أي عمل ، وسأتزوجها ، يا لها من نهاية سعيدة !
ودار في عقلي ما حدث بيننا ، كانت هذه الفراشة تتودد إلى، كنت مغفلا ، كم من مرة صددتها وقابلت حبها ببرود ، ثم سألت نفسى السؤال الرهيب ، ماذا لو تزوجت ؟
يا لها من أفكار !

كانت عجلات القطار تكركر والعربة تهتز وتضطرب مثل أفكاري فتزيد من توتري، ثم تذكرتُ ما قاله الرجل عن والدي ، الرجل يقول انه على قيد الحياة ، عم شفيق لم يعرفني، أخي علاء لم يعد أو ربما عاد إلى دولة أخرى، كيف أحل هذا اللغز ؟ لا اعرف ، وهنا استسلمت لنوم متقطع .

في الرابعة بعد الظهر كنت أشق الزحام في محطة رمسيس، عرجتُ على محلات الملابس واشتريت لنفسي بنطالا وقميصا وخلعت جلباب عم شفيق وهرعتُ إلى بيت خالتي نعيمة .
ولجتُ مدخل البيت وقد قررتُ أن أصعد إلى غرفتي لأستريح قليلا ثم أتوجه لخالتي نعيمة ، كنتُ أنوي أن أطلب يد ابنتها ثم أعود للقرية لأزف لأمي خبر الخطوبة، لم أدرِ بنفسي إلا وأنا أقف أمام باب غرفتي ، أدرتُ المفتاح في الكَالون فلم ينفتح، غريب جدا ، حاولتُ مرات ومرات ، ثم سمعتُ خطوات داخل الغرفة ، وما هي إلا لحظات حتى فتح الباب شخص ما من الداخل، ثم نظر إليّ في عصبية وغباء قائلا :

- من أنت ؟

كان الشاب وسيما طويلا هادئ الملامح صاخب الشعر غض البشرة كأنه استعار وجه فتاة ، قلت :

- من أنت ؟

قال في تعجب وحيرة :

- نعم ؟! من أنتَ ومن تريد ؟

قلت في نفاذ صبر :

- أنا فوزي ، هذه غرفتي ، ألم تخبرك خالتي نعيمة بذلك ؟

قال في برود :

- اسمع ، لقد استأجرتُ هذه الغرفة منذ ثلاث سنوات وهذه السنة الرابعة ، ولابد أنكَ أخطأتَ العنوان يا كابتن .

تجاهلت تعليقه وقلت :

- ثلاث سنوات !؟

قال :

- لا بأس ، أنا في السنة الأخيرة من الجامعة ، وفور تخرجي سأترك الحارة كلها ، استأذنك.

وراح يغلق الباب في وجهي ، طبعا هي إهانة لا أرحب بها .

مددت يدي لأمنعه بالقوة وقلت :

- انتظر ، أريد تفسيرا .

ثم ولجتُ لداخل الغرفة حين لم أجد منه مقاومة .

أنا لم أخطئ ، هي غرفتي ، لكن لا يوجد شيء من أثاثي ومقتنياتي ، هذا الوغد منظم حقا، سرير وزهرية ومقاعد إسفنجية ، لا رائحة تبغ ولا كراكيب عزاب ولا فوضى شبابية .

جلست على مقعد وقلت :

- أنا تركتُ هذه الغرفة منذ شهور قليلة ، كيف تسكنها منذ ثلاث سنوات

وكيف سمحتُ لكَ خالتي نعيمة بذلك ، ثم كيف سمحت لك الآنسة منال ؟

انفجر الشاب في ضحكة طويلة لها ذيل ثم هدأ وقال :

- الآنسة منال !

قالها في تهكم وتعجب ثم أردف :

- وهل للأطفال رأى في ذلك ؟

قلت :

- أطفال !!!

قال بلهجة جادة :

- نعم ، أطفال ، منال طفلة لا دخل لها بهذه الأمور .

هذا الشاب مخبول فعلا ، قلتها في نفسى بعد أن كتمتُ غيظي وقلت :

- أنا معك ، منال طفلة ، كيف سمحتْ لك إذن خالتي نعيمة باستئجار الغرفة ؟

قال، وهو يرفع خصلة من شعره الثائر من فوق حاجبه الأيمن :

- استأجرت الغرفة من الأستاذ سعيد .

شعرت بالدوار للحظة ثم قلت في غيظ :

- هل خالتي نعيمة باعتْ البيت لسعيد هذا ؟

قال بعد أن نفخ وزمجر :

- الأستاذ سعيد هو زوج خالتك نعيمة .

وضعتُ رأسي بين كلتا يدىّ وبدأتُ أفهم .

- والدي على قيد الحياة .
- منال مازالت طفلة .
- عم شفيق لم يعرفني .

وتردد في عقل قول جيفان :

- الثغرة تُغلق بعد خمسة دقائق، اقفزْ سريعا، لو تأخرتَ لعبَ بكَ الزمنُ ألاعيبه.

الجندي الذى عطلني عن القفز في البئر جعلني أرجع مصر في زمن غير الزمن .

سمعت الشاب يقول :

- هل أنت بخير يا أستاذ ؟

قلت في وهن :

- نعم .

ثم سألته ومازال الدوار يأكل أحشاء رأسي :

- في أي عام نحن ؟

ضحك الشاب فاهتز شعره وسقطت خصلة على حاجبه الأيمن فرفعها في بطء وقال :

- أعتقد أنكَ لستَ بخير، لابد أنكَ مررتَ بتجربة قاسية أو حادث أليم، أنصحك باستشارة طبيب مخ وأعصاب.

هذا ما كان ينقصني حقا .

قلت :

- أرجوك أجب عن سؤالي .

لم يجب الشاب ولكنه تقدم إلى المنضدة وقطع ورقة من دفتر التقويم ودسها تحت أنفى فأمسكتها برعشة وقرأت، وكان ما قرأته مرعبا كئيبا مخيفا :

- السابع من نوفمبر لعام ٢٠٠٥ ميلادية .

أنا الآن عدت للوراء عشرة أعوام .

يمكنني الآن فهم لماذا أبي على قيد الحياة ولماذا منال طفلة ووالدها على قيد الحياة .
اعتذرت للشاب وانصرفت، وبينما أهبط الدرج توقفتُ أمام باب شقة الدور الأرضي وابتعلتُ ريقي وارتعشت وترددت، هل أطرق الباب ؟
استجمعتُ شتات شجاعتي المهدمة ولا إراديا طرقت الباب، انفرجَ الباب عن وجه صبية مستدير، كانت تمسك بيدها أقلام ألوان، ابتسمتُ فابتسمتْ فبدتْ غمازتان على أديم خديها وقالت :
- عايز مين يا عمو ؟
ثم سمعتُ صوت مرتفع من الداخل يقول :
- مين يا منال ؟
قالتْ الفراشة :
- معرفش يا بابا .
نما عرق على جبهتي واهتزّ قلبي حين رأيتُ والدها يقف خلفها ويقول :
- عايز مين حضرتك ؟
قلتُ بصوت مبحوح :
- هل هذه شقة سائق التاكسي ؟
قال في ضجر :
في الدور الرابع يا أستاذ .
ثم أغلق الباب .

في اليوم التالي كنتُ أمام مدرسة منال، جاءتْ تتهادى من بعيد في مرح وبراءة، سرتُ خلفها وحين انفصلتْ عن زميلاتها قلتُ مناديا :

- منال .

توقفتْ واستدارتْ نحوي وقالتْ :

- ماذا تريد ؟

كانتْ تتجاوز نصف قامتي، تحملُ خلفها حقيبة المدرسة، تربطُ شعرها ب (فيونكتين) ليتدلى على جانبي رأسها ، وترتدى جيبة زرقاء تعلوها بلوزة بيضاء رُبطت بشريط أزرق على صدرها ليحل محل رابطة العنق .

قلت :

- منال ألا تذكرينني ؟

قالت بعد أن أحستْ بخوفٍ بدا على وجنتيها :

- ماما قالت لا أتحدث مع الغرباء .

قالتها وتركتني فتبعتها وقلت :

- منال ، ومددت بيدي بها بالسلسلة التي أهدتني إياها قبل سفري .

ثم نظرتْ لي نظرة أخيرة وأسرعتْ الخطى واختفتْ .

شردتُ بذهني ، أنا عدتُ في زمن غير زمني ، كيفَ أصحح هذا الخطأ ؟ما مصير هنري وديفيد ؟

هل لابد من العودة للجزيرة ؟

عندما انتبهتُ من غفلتي شعرتُ بدمعة حارة تسقط من عيني .

الفصل العشرون والأخير

(منال)

هل مازال فوزي يتذكرني ؟! معقولة يا فوزي ، كل هذه الشهور ، يا ترى ماذا تفعل الآن ؟ هل ما زلت تذكر حبى لك ؟
جلستُ وحيدة بعد منتصف الليل أقلب في هاتفي الجوال ، وولجتُ إلى فيس بوك ضغطتُ على صفحة فوزي عبد الحميد ، ثم ولجتُ برنامج رسائل ماسنجر وكتبتُ :
حبيبي فوزي ، أعتقد أن هذه هي المرة المائة التي أكتب لكَ فيها ، لن أيأس يا فوزي، سأظل أكتب لك حتى تعود، لكن لماذا أنتَ دائما لا ترد ؟ لماذا تظهر دائما غير متصل ؟ هل غيرتَ عنوان صفحتك على فيس بوك ؟ هل تهرب منى يا فوزي ؟ صارتْ حياتي كئيبة بدونك، تقريع أمي ينهال على رأسي ليل نهار :

- **ستظلين عانسا.**
- **لا تعلقي قلبك بسراب يا ابنتي.**

لكنى أعلم أنكَ لستَ سرابا، أنتَ حقيقة يا فوزي، أنتَ الحقيقة الوحيدة في عالمي ، متى تعود يا حبيبي ؟
في كل ليلة ألجُ صفحتك على أمل أن أجد منك ردا ، أي رد يا فوزي ، رسالة أو كلمة أو حرف ، لكنى لا أجد شيئا ، لا أجد إلا

رسائلي فقط ، فأنام دامعة حزينة القلب شاحبة الوجه ، لأستيقظ صباحا فألجُ إلى صفحتك فلا أجد ردا، هل تهرب منى؟ تهرب من منال ؟ تهرب من حبيبتك؟

أتذكر يوم عيد ميلادي حين أهديتني مبيدا حشريا؟

كانت أجمل هدية قدمها لي إنسان، هل تذكر السلسلة يا فوزي؟ السلسلة الذهبية ؟ لا بأس يا فوزي، لن أنساك حتى إن نسيتني ، سأظل أحبك ، لن أتزوج غيرك ، سأنتظرك ما حييت ، سأنتظرك حتى تعود .

تمت

محتوى الكتاب

بطاقة الكتاب ٢

إهـــــــداء ٣

مقدمة ٤

الفصل الأول ٦

الفصل الثاني ٢١

الفصل الثالث ٣٨

الفصل الرابع ٤٦

الفصل الخامس ٦٧

الفصل السادس ٧٨

الفصل السابع ٩٤

الفصل الثامن ١٠٢

الفصل التاسع ١١٧

الفصل العاشر ١٤٠
الفصل الحادي عشر ١٤٩
الفصل الثاني عشر ١٦٣
الفصل الثالث عشر ١٧٦
الفصل الرابع عشر ١٩٣
الفصل الخامس عشر ٢٠٨
الفصل السادس عشر ٢١٩
الفصل السابع عشر ٢٢٧
الفصل الثامن عشر ٢٤٢
الفصل التاسع عشر ٢٦٢
الفصل العشرون والأخير ٢٧٥
محتوى الكتاب ٢٧٧